الحياة الخالدة في علم الأخلاق

جوادي آملي

دار الهادي



الحياة الخالدة
في
علم الأخلاق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحياة الخالدة
في
علم الأخلاق

جوادي آملي

دار الهادي

الطبعة الأولى

١٤١٦هـ - ١٩٩٦م

دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع

تلفون وفاكس: ٨٣٤٢٦٥ - ٣١٧٤٢٥ - تلكس: MCS20777-22597 بلاغ.
ص.ب: ٢٥/٢٨٦ غبيري - بيروت - لبنان.

تنويه

نشكر الأخ السيد علي الهاشمي وسائر الاخوة الأعزّاء الذين ساهموا في مراحل الترجمة والمطابقة والتصحيح واستخراج المصادر والتعليق لهذا الكتاب ، ونسأل الله القبول ودوام التوفيق .

لجنة الهدىٰ

الحياة الخالدة

الحمد لله رب العالمين ، وصلىٰ الله على نبينا الأكرم محمد ، الذي وصفه الله تعالى بقوله : ﴿ وإنك لعلىٰ خلق عظيم ﴾[1] . والصلاة والسلام على آله الأطهار الذين شرفهم الله تعالى ونزههم عن كل رجس بقوله : ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ﴾[2] .

وبعد ، فقد قمت نزولاً عند رغبة بعض الأخوة من أهل الإيمان بإلقاء محاضرات أخلاقية ، قام بعض الدارسين بتدوينها ومنهم السيد ميرزا أبو القاسم ميرزائي ، وإسماعيل سراجيان . وقد طبعت خلاصة هذه الجهود بمساعي جماعة من أهل الخير .

نسأل الله تعالى أن يرشدنا إلى صراطه المستقيم ، وأن يهب أخوتي الذين تحملوا عناء الكتابة بكل حرف رحمة ونوراً ، وأن يهب الساعين في طبع الكتاب أفضل الأجر والثواب ، إنه حميد مجيد .

محمد تقي الآملي

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين

مقدمة في علم الأخلاق :

العلم على نحوين :

أولهما : علم يُطلب لذاته ، وهو علم معرفة الله تعالى ، وصفاته : كالكمال ، والجمال ، والوحدانية ، كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ **فاعلم أنه لا إله إلاّ هو** ﴾[1] . ومعرفة النبوة والإمامة ، والاعتقاد بالمعاد ، وبقية المسائل الاعتقادية . وتسمىٰ هذه العلوم بالعلوم النظرية .

ثانياً : علم يطلب تعلمه من أجل العمل به ، وهذا النوع من العلم يسمىٰ العلم التطبيقي أو العملي ، ويقسم إلى قسمين :

أولهما : الأمور التي تؤدى بواسطة الجوارح والأعضاء ، كالصلاة والصوم والحج . ويدعىٰ هذا العلم في علم الأخلاق (بالفقه الأصغر) .

---

(١) سورة محمد (ص) : الآية ؛ ١٩ .

ثانيهما : علم الأعمال الروحية والنفسية ، كالأعمال التي تؤدى بواسطة القلب والجوانح ، وهو ما يسمىٰ (بالفقه الأكبر) أو ما يعرف بعلم «الأخلاق» ، الذي يختص به البحث في هذا الكتاب .

يمكن الذهاب إلى أن الحياة عبارة عن قدرة راسخة في الروح ، تبعث في الإنسان القابلية على الحركة بسهولة ويسر . والمقصود بالقدرة المذكورة هو الملكات الثابتة التي لا تتلاشىٰ . فهي كالصخور في مجرىٰ النهر تبقىٰ في مكانها ، بينما يجري الماء من فوقها على الدوام .

والمراد من انبعاث القابلية على الحركة بسهولة ويسر ، هو أن تلك الحركة تؤدى بطريقة لا تسبب كثيراً من المشقة أو العناء للروح البشرية . كالشخص السخي الطبع فإنه يلتذ ببذل المال والجود به . ولعل عدم بذله المال يسبب له الألم .

ان صفة السخاء راسخة في نفوس هؤلاء سواء ملكوا المال أم لم يملكوه ومثل هذه الصفة تسمىٰ بالفضيلة .

فوائد علم الأخلاق :

الإنسان يبغي بطبعه نيل السعادة الأبدية ، أي أنه يسعىٰ للصعود في مدارج الكمال ، وتزكية نفسه ليصل إلى مقام المقربين ، فعليه أن يميّز بين الأخلاق الخبيثة والأخلاق الفاضلة ، ليتسنىٰ له اجتناب الخبيث منها . ومن ثم يتحلىٰ بالأخلاق الطيبة الحسنة . وعليه قبل كل شيء التعرف على نفسه ودقائقها حتى يميز الطريق الذي يرشده إلى الأخلاق الفاضلة ، ويجنبه الرديء منها .

أقسام الموجودات : تقسم الموجودات إلى عدة طبقات :

١ ـ طبقة الجمادات ، وهي التي لا تملك الروح ولا القابلية على الحركة ، كالأحجار والصخور .

٢ ـ طبقة النباتات كالأشجار والحشائش وهي تمتلك الروح النباتية وتتشكل من ثماني قوىٰ كالآتي : ـ

أ ـ الجاذبة .

ب ـ الماسكة .

ج ـ المغذية .

د ـ الدافعة .

هـ ـ النامية .

و ـ الهاضمة .

ز ـ المصورة .

ح ـ المولدة

٣ ـ طبقة الحيوانات : وهي التي تمتلك إضافة لصفة الجماد والنبات الروح الحيوانية المتكونة من عشر قوىٰ ، بواسطتها يمتلك الحيوان الحس ، والقابلية على الحركة ، وإدراك الجزئيات الضرورية . وتقسم تلك القوىٰ العشر إلى قسمين : خمس قوىٰ عبارة عن حواس ظاهرة . وخمس قوىٰ عبارة عن حواس باطنة ـ وسنتطرق لبيان ذلك في ما بعد .

٤ ـ طبقة الإنسان : وهو الذي يمتلك ـ إضافة إلى ما تمتلكه الجمادات والنباتات والحيوانات ـ القابلية على إدراك الكليات ، التي بواسطتها يتمكن من التعبير عن نفسه ومشاعره . وبسبب هذه القابلية يستطيع الإنسان التوصل إلى المعقولات بواسطة الأشياء المحسوسة

والفكرية .

فالتعرف على النفس البشرية هو أول مرحلة لنيل مفتاح السعادة في الدنيا والآخرة . ومعرفة النفس تؤدي إلى معرفة الله تعالى . ولذا قال الرسول الأكرم (ص) : (من عرف نفسه فقد عرف ربه) . ومعرفة النفس تدفع الإنسان لطلب الكمال ، وتهذيب الأخلاق . وبدونها لا يبقىٰ فرق بينه وبين الحيوان الذي يندفع بغريزته لتناول الطعام لاحساسه بالجوع . فالفرق الوحيد بين الإنسان والحيوان هو معرفة النفس والذات . ولذلك خصّ الله تعالى الإنسان بكرامة لم يخص بها أياً من مخلوقاته . وذلك في قوله تعالى : ﴿ ولقد كرمنا بني آدم ﴾[1] .

وبصدد التعريف بمنزلة الإنسان قال تعالى : ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾[2] . وتكرم الله تعالى على الإنسان من بين جميع مخلوقاته بهذه الخلقة البهية بتاج التفضيل حيث قال تعالى : ﴿ وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴾[3] .

وللنفس البشرية سبعة أسماء :

١ ـ الطبع .
٢ ـ النفس .
٣ ـ القلب .
٤ ـ الروح .
٥ ـ السر .
٦ ـ الخفايا .

---

(١) سورة الاسراء : الآية ؛ ٧٠ .
(٢) سورة المؤمنون : الآية ؛ ١٤ .
(٣) سورة الاسراء : الآية ؛ ٧٠ .

٧ ـ الأخفىٰ .

ولكل من هذه الأسماء معنىٰ مخصوص حسب مرتبة ومقام النفس . وهناك حقيقة هي أن النفس ما دامت متعلقة بالبدن ، فان لها الاستطاعة على اكتساب الحقائق والمعارف ، والتقرب إلى الله تعالى . وللنفس في داخل البدن قوة عاقلة متسلطة على مملكة الجسم . ولهذه القوة العاقلة قوىٰ تخضع لها . وبدونها تتعطل مملكة الجسم . وخمس من هذه القوىٰ عبارة عن حواس ظاهرة كالآتي :

١ ـ البصر .
٢ ـ السمع .
٣ ـ الشم .
٤ ـ الذوق .
٥ ـ اللمس .

ولكل حاسة من هذه الحواس وظيفة خاصة بها ، ولا يمكنها تأدية وظيفة حاسة أُخرىٰ . فمثلاً العين ترىٰ ولا تسمع ، والأُذن تسمع ولاترىٰ ، وهكذا الحواس الأُخرىٰ . وللإنسان خمس قوىٰ أُخرىٰ ، تسمى بالحواس الباطنة وهي كالآتي :

١ ـ الإحساس المشترك .
٢ ـ التخيل .
٣ ـ السلوك والتصرف .
٤ ـ الإدراك .
٥ ـ الذاكرة .

وحسب ما يحدده علم التشريح فقد رسمت قدرة الباري عز وجل فوق

الجبين عظماً على شكل مثلث تقريباً تقع قاعدته في أعلى الأنف ورأسه فوق الجبين وله ستة ثقوب تتصل ببعضها ، فيكون مركز الحس المشترك على جهة اليمين السفلىٰ وطرفه الأيسر مركزاً للتخيل والتفكير ، والشرخ الأيمن داخل الوسط مركز التصرف ، وطرفه الأيسر مركزاً للإدراك ، والشرخ الأيمن جهة الداخل مركزاً للذاكرة ، وطرفه الأيسر يكون خالياً ، ولم يُفهم للآن سبب كونه خالياً .

أما بالنسبة للإحساس المشترك فانه يكون بمثابة حوض تصب فيه خمسة منابع ، وهذه المنابع الخمسة ما هي إلا الحواس الخمس السالفة الذكر ، فمثلاً : إن قال شخص : لقد أكلت تفاحة حمراء عطرة وحلوة وناعمة ، نستنتج قطعاً أنه عرف اللون ببصره ، والطعم بذوقه والرائحة بشمه والنعومة بلمسه ، وكل ذلك كان بفضل الإحساس المشترك ؛ لأنه لا يستطيع أن يميز تلك الصفات الخمس في آن واحد ، إلا عن طريق القنوات الخمس . وتوجد قوة منفصلة أُخرىٰ تضبط تلك الصفات الخمس ليتذكرها ولا ينساها ، وهي قوة الذاكرة التي هي عبارة عن خازن للمعلومات السابقة ، فإذا فقد شخص قوة الذاكرة ، فانه سوف ينسىٰ كل ما رآه وسمعه قبل لحظة ، بمجرد رؤيته وسمعه لشيء مستجد ، وبذلك يصيبه الشلل في أعماله .

وأما القوة المدركة فهي قوة إدراك الأشياء واستيعابها وفهمها ، ولها القابلية على اختراع وتصور الأشياء فتكون عملية المحبة والعداوة مرتبطة بحاسة التخيل والتصور التي بواسطتها يتم إدراك الأشياء .

وأما قوة السلوك والتصرف فان عملها الجمع بين نتائج القوىٰ الأربع السالفة الذكر . وهذه القوىٰ الخمس عبارة عن قوىٰ باطنية خفية ، تقسم كذلك إلى ثلاثة أقسام :

١ ـ القوىٰ الموجهة .
٢ ـ القوىٰ المدركة .
٣ ـ القوىٰ المحركة .

ومن المتفق عليه أن الحياة الأبدية والسعادة الأخروية للإنسان لا تنال إلا بتهذيب النفس من الأخلاق الذميمة واكتساب الأخلاق الحميدة والصفات القدسية . وان ذلك لن يتيسر إلا بمعرفة كنه الرذائل والفضائل ، ليتسنىٰ للمرء التمييز بين الخير والشر ، وبهذا يكون علم الأخلاق من أشرف العلوم وأكثرها فائدة ، نظراً لأن بقية العلوم وإن كانت شريفة إلا أنها تستمد شرفها من هذا العلم الذي يربطنا بتعاليم الله عز وجل ، فإذن ليس هنالك علم : أفضل من علم معرفة الله جل جلاله وبذلك العلم يحصل الفضل والشرف للناس كل حسب علمه وينفرد النبي مصطفىٰ محمد (ص) بالسهم الأوفىٰ من ذلك العلم لا يدانيه في منزلته أحد من الأنبياء أو الرسل وبه يختم الفضل والشرف كما تختم الرسالات .

وقولنا : إن الإنسان يمتلك الروح الحيوانية إضافة للإنسانية ، ولذلك يُدرك الكليات ، والحيوان لا يمتلك النفس الإنسانية فلا يدرك إلا أن إحتراق النفط يسبب الضياء ، أو أنه يعلم أن طعماً مراً أصاب لسانه إذا أكل شيئاً مراً ، ولكنه لا يدرك أن كل نوع من هذا الأكل مر ، أي أنه لا يدرك الكليات ، بخلاف الإنسان الذي يدرك الجزئيات والكليات ، ولذا فهو يدرك السعادة والشقاء ويسعىٰ لتحصيل السعادة .

بم يتم الكمال الانساني

إن الشيء لا يخلو من النقص أو الكمال ، ومعنى ذلك أن كل شيء خلقه الله تعالى إذا سار في الطريق المرسوم له حتى يصل إلى نهاية الكمال

فهو كامل وإلا فهو ناقص ، فمثلاً شجرة المشمش إن أعطت ثمرها ناضجاً صالحاً للأكل فهي شجرة كاملة وإن تساقطت براعم الأثمار ولم تعط ثمراً فهي ناقصة وليست كاملة . ومن معاني التكامل الإنساني معرفة الإنسان نفسه والتفكر في خلقه ، لماذا خُلق ؟ ومن أين أتىٰ ؟ وإلى أين سيذهب ؟ وما هي الواجبات والوظائف التي يريدها الله تعالى منه ؟ .

إذن فخلال مراحل سيره عليه أن يعي أنّ الطريق الذي يسير فيه لا نهاية له ، وأنه من خلال أداء واجباته يتقرب إلى العلي القدير حتى يصل إليه ، فيهبه الخلود ، وعليه أن يعلم أن الله عالم وقادر وحي ومريد ومحب لكل من يريد التقرب إليه ، لذا ورد في الحديث القدسي (كل من تقرب إلي قدماً تقربت إليه عشراً) ، وهو تعالى مشتاق لطالبيه أكثر من اشتياقهم إليه ، لكونه رؤوفاً كريماً حيث أنعم على مخلوقه بهذه المنَّة كما جاء في الآية : ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحد** ﴾[1] .

إذن فالإنسان يستطيع أن يصل بدرجات القرب من الله تعالىٰ إلى مراتب لا تصلها حتى الملائكة .

وأعظم السعادات للسائرين في هذا الطريق العارفين بالله حق معرفته أن تكون أعمالهم خالصة لوجه الله تعالى وليس طمعاً في الجنة أو خوفاً من النار ، وهذه هي حقيقة الإخلاص كما قال الإمام علي (ع) : (إن قوماً عبدوا الله خوفاً من ناره فتلك عبادة العبيد ، وإن قوماً عبدوا الله طمعاً في جنته ، فتلك عبادة التجار ، وإن قوماً رأوا الله أهلاً للعبادة فعبدوهُ ، وتلك أفضلُ العبادات) . وهذه العبادةُ الأخيرةُ ترفعُ البشرَ من حضيضِ الذّلِ إلى أسمىٰ المراتب . وللإنسانِ أربعةُ طرقٍ للسيرِ فيها في الدارِ الدنيا :

---

(١) سورة الكهف : الآية ؛ ١١٠ .

١ ـ سير من الخلق إلى الحق .
٢ ـ سير في الحق بالحق .
٣ ـ سير من الحق إلى الحق بالحق .
٤ ـ سير من الخلق إلى الخلق بالخلق .

ويكون التدرج في هذه المراتب درجة درجة حتى يصل الإنسان إلى الكمال الذي لا يتسع العقل البشري لاستيعابه ، وطرقه شائكة ولكنها لذيذة يشعر الإنسان بالبهجة والسرور من خلالها ، وبهذا أصبح علم معرفة الله تعالى من أفضل العلوم ، ولهذا فان الأنبياء والأولياء (ع) كلما خطوا خطوة إلى الأمام في هذا الطريق تراهم يشعرون بالتقصير أمام الله ويظهرون خشوعهم وخضوعهم أضعافاً مضاعفة لله تعالىٰ ، كما يتضح من الأدعية المأثورة . وهذا هو معنىٰ العبودية ومعرفة الله تعالىٰ الحقة ، ووصول الإنسان إلى حد الكمال ، وعلى الساعي إلى هذه المرتبة الجد وبذل الجهد إلى الحد الذي يوصله لمعرفة أسماء الله وصفاته الحسنىٰ ، حتى يصل إلى درجة (عبدي أطعني تكن مثلي) ، أو ما جاء في الحديث القدسي الآخر (يا عبدي أنا ملكٌ لا تزول دولته ، فأطعني حتى لا أكتب الزوال لمملكتك) ، (أنا أقول للشيء كن فيكون ، فأطعني حتى تقول للشيء كن فيكون) ، ومعنىٰ ذلك هو أنَّ (العبودية جوهرة كنهها الربوبية) ، وكنه الربوبية معناه صفات الله تعالى ، فان كان سبحانه محسناً فكن محسناً ، وإن كان رحيماً فكن رحيماً ، وإن كان ستاراً فكن ستاراً وهكذا ، عليك التحلي بكل صفات الله تعالى لتصل إلى درجة خليفة الله .

لماذا يصل البشر الى مرحلة الكمال متأخراً

لقد تفضل الله تعالى على الإنسان بمنحه قوتي الشهوة والغضب ،

ليحصل على اللذة والمنفعة بشهوته ، ويدفع الضرر عن نفسه بواسطة قوة الغضب ، ويجب أن تعلم أن قوة الغضب تأتي بعد قوة الشهوة ، ذلك لأن الطفل حين يكون في رحم أُمه يكون محتاجاً إلى الغذاء الذي هو عبارة عن الدم فيحتاج لقوة الشهوة للإستزادة من الحصول على الغذاء الكافي لحفظ عملية النمو ، وبعد أن يخرج إلى عالم الدنيا بشهرين أو ثلاثة أشهر ويكتسب مقداراً من الرشد ، تبدأ قوة الغضب بالظهور شيئاً فشيئاً ، على قدر حاجته في دفع الضرر عن نفسه ، وقد شوهد أن الطفل يغضب حين يرىٰ طفلاً آخر يرضع من ثدي أُمه ، ولا يتخلىٰ عن غضبه إلا إذا استرد ثدي أُمه من ذلك الطفل ، وإن لم يستطع منع الطفل الغريب فإنه سيبكي بشدة غضباً ، ومن هذا يُعلم إمتلاكه لقوة الغضب وتستمر تلك القوتان في عملهما حتى سن العاشرة أو الخامسة عشر حيث تبدأ قوة العقل بالعمل تدريجياً ، ولهذا فان الله تعالىٰ يكلف الإنسان بالواجبات الشرعية عند هذا السن .

إذن فعلّة تأخر كمال الإنسان إلى سن العاشرة أو الخامسة عشر هو بسبب تأخر قوة العقل حيث تنقاد تينك القوتين إلى قوة العقل ، ومن البديهي أن هذه العملية تسبب مشقة وصعوبة للإنسان حيث يحاول عقله فرض سلطته على مملكة بدنه والسيطرة على تينك القوتين . ولكنهما لا يستسلمان بسهولة وتحتاج العملية بذل جهد وعناء ، إلا الأنبياء والصالحين فانهم يتحكمون بغرائزهم بكل قدرة ولذا قال (جزناها وهي خامدة) ، يعني أن عقلنا كان يقود قوىٰ الشهوة والغضب وغيرهما منذ البداية .

والآن وقد عرفنا علّة تأخر كمال الإنسان ، نقول إذا سلب البدن قوة العقل فإن نظامه سوف يضطرب ، ولا يصل الإنسان إلى غاياته ، فمن هذا يُفهم أنه لولا العقل لما نال الإنسان ما يريد .

فكمال الإنسان بكمال عقله الذي يسيطر على جميع بدنه ، والعقل ،

أو القلب الإنساني مثله مثل المرآة التي تعكس لمن يقف أمامها صورته ، وتزول الصورة بزوال منشئها المادي ، والقلب كذلك يحصل على المعلومات ويتخلىٰ عنها كشبح المرآة المذكورة . وبين القلب والمرآة تشابه في الخواص والمواقف في إدراك الحقائق .

ولتوضيح ذلك نقول :

أولاً : إن المرآة غير المطلية بالزئبق لا تنعكس عليها صور الأشباح المادية وكذلك بعض القلوب لا تنفذ إليها التعاليم والإرشادات لعتمتها وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله تعالىٰ :

﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء وان منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعلمون ﴾[1] .

ثانياً : أن تكون المرآة مطلية بالزئبق ، ولكن يعلوها الغبار والضباب فيكون انعكاس الصور مشوشاً ضعيفاً ، وبتفاوت مقدار الغبار على المرآة يتفاوت وضوح إنعكاس الصور فإذا كان شديداً فإنه سيشكل حائلاً يمنع من انعكاس الصور تماماً والقلب الإنساني الذي فطر على الصفاء والشفافية ، تكدره المعاصي والذنوب فتجعله أسود ملوثاً لا يقبل التعاليم الالهية .

ثالثاً: المرآة صافية إلا ان هناك حجاباً بينها وبين الصورة فلا تنعكس فيها ، وكذلك بعض القلوب تكون صافية إلا أن حجاباً ما يحجبها عن رؤية الحقائق الالهية ، وبين الثالثة والثانية تشابه بعيد إلا أن الحالة الثالثة سهلة العلاج بالنسبة للحالة الثانية خصوصاً إذا تعرضت النفس إلى كدورة تنفذ إلى الأعماق .

---

(١) سورة البقرة : الآية ؛ ٧٤ .

رابعاً : اتجاه المرآة معكوس فالصور التي تنعكس عليها لا بد ان تكون قبال الوجه الصقيل المعد لانعكاس الصور عليه ، أما إذا واجه الشبح الجانب الخلفي من المرآة فلا يحصل انعكاس للصور عليه ، وكذلك بعض القلوب ينحرف اتجاهها فهي متجهة باتجاه مبادىء مخالفة للحقيقة بل تبتعد أكثر ويكون ضلالها أمراً واقعاً .

خامساً : نحن نريد أن ننظر في جانب المرآة الآخر ، فإذا أردنا أن تنعكس صورتنا فيها ، فلا مناص من وضع مرآة أمامها ووجهها مقابل لنا تنعكس فيه صورتنا ثم تنعكس على المرآة الثانية المعاكسة لها ، فكذلك بعض القلوب يمكنها الإطلاع على أشياء لا يمكن لغيرها ان تطلع عليها كالحقائق الالهية التي تحتاج إلى صفاء عالٍ وجهد منظم رتيب .

أقسام العلوم العقلية :

تقسم العلوم العقلية إلى قسمين :

الأول : العلوم العقلية الدنيوية ، التي بواسطتها يستطيع البشر مزاولة الحرف المختلفة كالتجارة والزراعة والصناعة وكل ما فيه كسب ونفع مادي .

الثاني : العلوم العقلية الأخروية ، وهي العلوم التي يسعىٰ الإنسان لاكتسابها لمعرفة آخرته وإرضاء ربه ، وتتضمن علم معرفة الله تعالى ومعرفة النبي (ص) وأهل البيت (ع) ، ومعرفة الصفات الكمالية والجمالية لله تعالى والتفقه في الدين ومعرفة سائر الاعتقادات الدينية ، وينقسم هذا العلم كذلك إلى قسمين :

الأول : العلم المكتسب وهو العلم الذي يبذل الإنسان جهداً ويتحمل

مشقة في الحصول عليه .

الثاني : العلم المستحصل بالموهبة والإلهام ، وهو العلم الذي يحصل عليه الإنسان دون جهد أو مشقة في تحصيله ، وهذا العلم يختص بنخبة من الخواص من البشر .

للروح الإنسانية تغلغل وتوافق مع البدن ، فنستطيع القول بأنها متغلغلة وراسخة في كل عضو وجارحة من الجسم ، ولن تجد مكاناً من البدن يخلو من الروح . والقوىٰ العشر متوقفة على وجود البدن أي (الحواس الظاهرة والباطنة) ، والروح تكتسب المعلومات من جهتين : إحداهما من عالم الغيب ، والأُخرىٰ من عالم الشهادة وذلك يعني أنها عن طريق القوىٰ العشر تحصل على المعلومات من عالم الشهادة والمحسوسات ، وأما استحصالها العلم من عالم الغيب فيكون إما عن طريق الوحي أو الإلهام ، فإذا علم المرء أمراً دون علة محسوسة فهو إلهام .

يبقىٰ أن نقول : إن من يرىٰ أحلاماً صادقة في منامه ، فان ذلك يسمىٰ بالمبشرات ، وذلك ما ذكره الرسول الأكرم (ص) حين قال : أنا سوف أرحل عنكم ، ولكن تبقىٰ المبشرات من بعدي . وما المبشرات إلا الأحلام الصادقة ، ولكن هذا العلم عينه إن حصل عليه الإنسان في عالم اليقظة يسمىٰ إلهاماً ، وهو ما يحدث لدىٰ الأنبياء والأولياء ، وأما العلم الإيحائي بواسطة جبرائيل (ع) فهو مختص بالأنبياء ، وهذان النوعان من العلم هما علما الموهبة ، وكلما اقتربت الروح من عالم الغيب أكثر بعدت عن عالم الشهادة أكثر، وكلما اقتربت الروح من عالم الشهادة أكثر بعدت عن عالم الغيب أكثر ، ولا غروَ أن ما عدا سلالة أهل البيت المعصومين (ع) لا يستطيع أحد منهم أن يجمع بين عالمي الغيب والشهادة .

ويمكن تصور أربع علامات للوجود :

١ ـ عالم القضاء المطلق .

٢ ـ عالم القدر التفصيلي .

٣ ـ عالم التخيل .

٤ ـ عالم الإحساس .

مثال ذلك أنه إذا أراد معمار أن يشيّد بناءً ، ففي المرحلة الأولىٰ يتخيل صورة البناء بواسطة قوة التخيل ، واعتماداً على تلك الصورة يقوم برسم البناء على الورق ، ثم يعطي الخارطة إلى البناء ويوعز إليه بالشروع بالبناء ، وبعد إنجاز البناء يفحصه المعمار ويعجب بمنظره بواسطة قوىٰ تخيلية ثلاث على الفور فيكون ما جاء عن طريق التخيل قد عاد إلى عالم التخيل ثانية .

والآن يحضرنا الحديث حول خلق كل الأشياء بموجب الآية الشريفة :

﴿ **إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون** ﴾[1] . فكل الموجودات قد خلقت بقلم قدرته في اللوح المحفوظ الذي هو (القضاء المبرم الذي لا يغير ولا يبدل) أما ما هو القلم واللوح المحفوظ ، فإن ذلك كله محجوب عنا والمرحلة الأدنىٰ من اللوح المحفوظ هي لوح القدر ، الذي يمحو الله تعالىٰ فيه ما يشاء ويثبت ما يشاء وقد أشار القرآن الكريم لذلك في قوله تعالى :

﴿ **يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب** ﴾[2] فلوح المحو والإثبات هو لوح القدر ، وأم الكتاب هو لوح القضاء أو اللوح المحفوظ .

---

(١) سورة يس : الآية ؛ ٨٢ .

(٢) سورة الرعد : الآية ؛ ٣٩ .

وبنحو عام فان هناك حجباً وأستاراً على صفحة الروح الإنسانية تمنع البشر من معرفة هذه الأسرار ، والناس يختلفون في مراتب اختراقهم لهذه الحجب حسب مراتب الإيمان ، وقد وصل نبينا المصطفىٰ محمد (ص) مرتبة لا تضاهيها مرتبة حيث خرق جميع الحجب (وعلم ما كان وما يكون وما هو كائن) ، ونال بهذه الخصوصية صفة أشرف جميع الأنبياء والمرسلين .

ولأن معنىٰ الوحي والإلهام بات معلوماً لدينا فيجب علينا معرفة باعث الإلهام وكيف يحصل للإنسان ؟ نقول : عندما تعجز الحواس العشر عن الإدراك يوكل التمييز آنذاك للقلب الذي يأمر أحياناً بالأعمال الصالحة وأحياناً بالأعمال السيئة ، فإذا كان الأمر خيراً فإن محركه ومسببه ملك صالح ، وإن كان أمراً بالشر فمحركه ومسببه شيطان فاجر ، يسمىٰ الخناس ﴿ **الذي يوسوس في صدور الناس** ﴾[1] وإن استقرار أوامر الملائكة في القلب توفيق عظيم للإنسان وأما استقرار أوامر الشياطين في القلب فانه يؤدي إلى الخذلان ، ولكي ينجو الإنسان في مسيرته إلى الله يجب أن يكون قلبه خالياً من تأثير الأعداء ، فلا يمنحهم الفرصة للتصرف في مملكة القلب . وقد ذكر علماء الأخلاق أن «الملائكة الملهمة» من جهة اليمين والشياطين الموسوسة من جهة اليسار ، والإنسان واقع بين هاتين المجموعتين ، والقلب مستهدف لإلهام الملائكة ونبال الشياطين الموسوسة ، وبعبارة أخرىٰ مثل القلب كجسر تمر عليه جنود مملكة البدن ، فعليه التحكم فيها .

فان استطاع اغلاق الطريق بوجه الشياطين وعمل بتعاليم الملائكة فانه سيرقىٰ إلى درجة لم تصلها الملائكة وإلا فانه سيكون مصداقاً للآية الشريفة :

---

(١) سورة الناس : الآية ؛ ٥ .

﴿ إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً ﴾[1] .

ولا ينكر أن قوتي الشهوة والغضب ضروريتان في حياة الإنسان وتقسم قوة الشهوة إلى قسمين :

١ ـ شهوة البطن .

٢ ـ شهوة الفرج .

أما شهوة البطن ، فان البدن محتاج على الدوام لملء الجوف بالطعام لادامة حياة البدن ، حتى يؤدي رسالته النهائية وهي العودة إلى مقام عليين والقرب من الله .

وأما الشهوة الجنسية فان بدن الإنسان متكون من العناصر الأربعة ، أي ، التراب والماء والهواء والنار ، ومن المعلوم أن الماء فوق التراب والهواء فوق الماء والنار في أعلى الهواء ، ومن المقدر لهذه العناصر الإنفصال عن بعضها ، وبذلك يتلاشىٰ تركيب البدن ويتحلل ، وتعود عناصره من حيث أتت ، ولهذا السبب فقد وهب الله تعالىٰ الإنسان هذه الشهوة لادامة النسل ، ولا ننسىٰ (ان الشيطان يجري في ابن آدم مجرىٰ الدم) كما ورد ذلك عن الرسول الأكرم (ص) .

وسبق ان قلنا أن الدم يدور في البدن خلال الأوردة والشرايين ليصل إلى أقصىٰ النقاط بواسطة الأوعية الشعرية ، وعلى هذا الأساس فان الشيطان سيجري في بدن الإنسان بأكمله ، وقد قال رسول الله (ص) (وسدوا مجاريه بالجوع) يقصد بالصيام . ذلك لأنه يتغلغل في الدماء ويثير الشهوة الجنسية بواسطة الأكل فالحد منها مرتبط بالحد من الأكل ولذلك قال رسول الله (ص) «من أرقته شهوته فعليه بالصيام» وعدم السيطرة على الشهوة

(١) سورة الفرقان : الآية ٤٤ .

وتوجيهها بالإتجاه البناء هو الأساس في انحطاط الإنسان وشيوع الرذيلة ، وقد عدّ العارفون إثنين وسبعين رذيلة تسببها هذه الشهوة من قبيل الطمع والبخل والحسد والحقد والغضب والتكبر وما شاكل ومن أجل التخلص من هذه الرذائل يجب ترشيد الشهوة وفق الشريعة الإسلامية لقطع دابر الشياطين التي تقترب من الإنسان كلما انغمس في الرذائل والأخلاق المنحطة .

ومع كل ذلك نقول : إنه ما بين القول النظري والتطبيق العملي لتلك الأمور خمسة أشياء .

أولها : تصور الإنسان للفعل الذي يريد ارتكابه .

ثانيها : التأكد من أن الفعل نافع أو ضار .

ثالثها : التفكير بأداء العمل النافع عند عدم المانع من ادائه .

رابعها : العزم الراسخ والإصرار على أداء ذلك الفعل .

خامسها : تحرك العضلات طبق النقاط الأربع السابقة التي كانت أفعالاً قلبية وباطنية ، فينطلق الأمر من الروح إلى كل عضو لأداء واجبه المقرر ، وحينها يكون الأمر عملياً وتُترجم النيات والهواجس القلبية إلى أفعال ، فلنحاول أن نتعرف على أي منها بترتب الثواب والعقاب ؟ .

أما عملية التصور والتخيل القلبي فانها خارجة عن اختيار البشر نظراً لأن التخلص منها أمر صعب جداً وليس ميسراً إلا لأفراد نادرين ، ولذا لا يترتب عليها ثواب أو عقاب ، كما ان اعتقاد المرء بصحة شيء أو خطئه لا يترتب عليه كذلك عقاب ولا ثواب . كذلك الرغبة في فعل شيء كما في الأمر الثالث لا تستحق عقاباً ولا ثواباً .

وأما المرحلة الخامسة والتي يتم فيها تنفيذ الفعل بواسطة الأعضاء

والجوارح فيترتب عليها الثواب والعقاب ؛ لأنه فعل اختياري .

وأما عند قصد فعل المعصية فأحياناً يقوم الإنسان بارتكابها فعلاً وأحياناً لا يرتكبها لعدة أمور ، أما خوفاً من الباري عز وجل ، وإما إرضاءً للباري سبحانه فيبتعد عن المعصية بعد ان أوشك أن يقع فيها ، وثمة حكاية لامرأةٍ فقدت زوجها ولها أطفال منه فقصدت حداداً واشتكت له حالها هي وأطفالها وأنهم سيموتون من الجوع إن لم يسعفها ، فأجابها بشرط أن يختلي بها فرفضت ذلك رفضاً شديداً . ثم عادت إليه ثانية لشدة الجوع وصراخ الأطفال اليتامىٰ تستنجد به ان يسعفها فأجابها بشرط ما ذكر لها أولاً ، فرفضت ذلك أيضاً وعادت إلى دارها ، وأطفالها ينظرون إلى أمهم لعلها تحمل لهم ما يسد رمقهم فلم يستطيعوا حتى البكاء من شدة الجوع ، ثم عادت إلى الحداد مرة ثالثة واستجابت لطلبه بعد أن يئست من مروءته ، فرآها الحداد ترتعش كالسعفة في الهواء ، فقال لها : ما لي أراك ترتجفين وترتعشين أو لم تطلبي ان لا يرانا أحد وقد فعلت ؟ فاهدئي إذن ، فقالت له : اعلم أننا مهما حاولنا لا نستطيع أن نخفي أنفسنا عمن يرانا ، ذلك هو الله تعالى مطلع علينا لا يحتجب منه أحد أبداً ، وقعت هذه الكلمة منها في قلب الحداد وأخذت منه مأخذاً عظيماً ، وغيرت مجرىٰ حياته إلى الأبد ، وأسعفها لوجه الله تعالى وذاق حلاوة الإيمان ، وجنّبه الله تعالى أذىٰ النار في الدنيا فهو يمسك بالحديدة المحماة فلا تؤذيه حرارتها .

فكلما كان الإنسان قريباً من المعصية متمكناً من مزاولتها ، ثم تاب ورجع كان أجره أعظم عند الله تعالى .

في بعض الأحيان يطرأ مانع خارجي للإنسان يمنعه من ممارسة المعصية مع عزمه عليها كأن يتعرض لحادث يفقد حياته على أثره أو أمر آخر يحول بينه وبين المعصية ، ففي هذه الحالة يكون المرء مستحقاً للعقاب

حتىٰ ولو لم تصدر منه المعصية خارجاً . والأخبار والروايات كثيرة في أن قصد الإنسان السيّىء باعث للعقاب وقصده الخيِّر باعث للثواب ، وحتى أعمال الإنسان الصريحة مرصودة من قبل الله تعالى : لأنه حاضر في كل مكان كما قال : ﴿ **وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله** ﴾[1] .

وقد قدمنا أن القلب تخطر عليه خواطر محمودة وخواطر مذمومة ، وبالنسبة إلى اجتماع الخواطر المحمودة والمذمومة في القلب في آن واحد ، فان لعلماء الأخلاق خمسة آراء :

أولها : أنه لا يمكن اجتماع الخواطر المحمودة والمذمومة في آن واحد ؛ لأنه بمجرد التفكير بخاطرة محمودة فإن الخاطرة المذمومة ستتلاشىٰ ، ودليلهم هو الآية الشريفة : ﴿ **ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه** ﴾[2] .

الثاني : إمكان وجودهما معاً في القلب ، ولكن بسبب ميلنا لأحدهما نشعر به ولا نشعر بالآخر .

الثالث : إمكان تواجدهما معاً في القلب في آن واحد وكلاهما مؤثر ، ولكن تأثير أحدهما أكثر من الآخر ، لذلك يشعر الإنسان أن أحدهما موجود والآخر غير موجود .

الرابع : إن الخاطرتين موجودتان في آن واحد ، ولكن للسرعة الهائلة في خطورها على الذهن نحس وكأنهما خاطرة واحدة ، ومثال ذلك أننا إذا أخذنا (قرصاً دائرياً) ونقشنا عليه نقطاً سوداء وبيضاء بالتتابع بشكل دائري

---

(١) سورة البقرة : الآية ؛ ٢٨٤ .
(٢) سورة الأحزاب : الآية ؛ ٤ .

ووضعنا فيه محوراً حتى يدور عليه بسرعة كبيرة ، فسوف نرىٰ النقاط البيضاء والسوداء على شكل دوائر إحداها سوداء والأُخرىٰ بيضاء في آن واحد .

فالرأي الرابع يشبه الرأي الأول في النتيجة ، لكنه يفسر ذلك بأوضح من الرأي الأول .

الخامس : يذهب أصحاب هذا الرأي إلى أن القلب مثل كأس مملوء نصفه بالماء النقي ، والنصف الآخر مملوء بالماء العكر ، وقول هذه الطائفة لا يختلف عن الطائفة الثانية والثالثة في النتيجة وان اختلفوا في الصياغة اللفظية ، ودليلهم على ذلك أن أحد أسماء الله الحسنىٰ هو الاسم المبارك (يا من لا يشغله شأن عن شأن) ومعناه أن الله لا يشغله أمر عن أمر آخر فهو محيط في آن واحد بجميع مخلوقاته علماً وقيمومةً ، ولكن الإنسان يشغله شأن عن شأن وهو تعالى لا شريك ولا شبه له كما قال تعالى : ﴿ **ولم يكن له كفواً أحداً** ﴾[1] وهو منزه عن ما يتصف به البشر قال تعالى : ﴿ **ليس كمثله شيء** ﴾[2] . وكل شيء يدل على وحدانيته تعالى :

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد .

وقال الشيخ البهائي «قُدّس سرّه» :

(كل من قال فيك مدحاً بلسانه   تغزل البلبل بتغريده وترنم به القَمريّ)

وقال سعدي :

(ليس التوحيد مقصوراً على بني آدم   فقد ردد ذلك كلُّ بلبل في أعلى غصن)

---

(١) سورة الاخلاص : الآية ؛ ٤ .

(٢) سورة الشورىٰ : الآية ؛ ١١ .

إذن كل الموجودات هي مظاهر إلهية وتجليات لقدرته تعالىٰ :

﴿ له الأسماء الحسنىٰ ﴾[1] .

ونتمكن أن نقول : إن الإنسان له القابلية على أن يكون مثلاً أعلىٰ لأحد أسماء الله المباركة (يا من لا يشغله شأن عن شأن) فيستطيع الإنتباه إلى عدة أشياء في آن واحد وهذه هي حجة القائلين بالامكان .

على الإنسان أن يركز الخواطر المحمودة في قلبه وإلا أصبح من الغافلين وقد ذم تعالى الغافلين في آيات كثيرة ، فصرف عنهم رضاه ، ومنهم من أغفل قلبه عن ذكره .

إن علينا أن نرىٰ كيف نقطع الطريق بوجه الخواطر المذمومة حتى نتخلص منها ؟ فكلما أحدثت الخواطر المذمومة صدعاً علينا أن نتذكر الآية الكريمة :

﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾[2] .

لقد ذكرنا سابقاً أن الإنسان مركب من البدن الماديّ ومن الروح التي يحصل بها الكمال الإنساني وبتكاملها ترتفع لتتربع على منبر السعادة متوسلة بأعمالها الصالحة حتى تصل إلى منزلة اللقاء الإلهي ، فالأمور المباحة تساعد على الارتقاء البشري نحو عالم التقرب من الله تعالى ، وأما المحرمة فانها إضافة لكونها تمنع النفس البشرية من ذلك القرب من الله تعالى فانها تحرفه عن الطريق المستقيم إلى طريق الضلال ، فعلىٰ الإنسان أن يملأ قلبه بحب الله تعالى حتى لا يدع مجالاً للهواجس المذمومة ليكون قلبه مشغولاً

---

(١) سورة طه : الآية ؛ ٨ .

(٢) سورة الأعراف : الآية ؛ ٢٠١ .

بحب الله لا يلتفت لغيره ، فيتدرج في مراتب الحب حتى يصل إلى آخرها ، وهي مرتبة الشغف المطلق .

إن حلاوة حبّ العباد لله تعالى قد تكون في سطح قلوبهم فنقول : إنهم يحبون الله تعالىٰ ، وقد تدخل إلى أعماق قلوبهم ، فترىٰ أعمالهم كلها صادرة لمرضاة الله لحبهم له ، وقد يكون قلب العبد متشرباً بالحب الإلهي فلا يرىٰ فيه غير حب الله تعالى ، فهو قطعة عشق ومحبة ، وهذه المنزلة تسمىٰ «حب الله المباشر في القلب» كما ورد في بعض أدعية الإمام المعصوم (ع) (اللهم إني أسألك إيماناً تباشر به قلبي) فإذا ارتقىٰ العبد إلى منزلة بحيث أوقف كل أعماله على مرضاة الله وأحبه بكل أعضائه وجوارحه صار مصداقاً للآية الشريفة : ﴿ **ونفخت فيه من روحي** ﴾[1] فتصبح أُذنه أذن الله وعينه عين الله ويده يد الله ودمه ثار الله ولسانه لسان الله فتكون أعماله كلها إلهية حتى لا يبقىٰ له رأي أذوق في شيء إلا ما يريده تعالى لشدة التزامه بتعاليم الله ، وسوف نتناول ذلك إن شاء الله تعالى في باب المحبة .

وبعد هذه المقدمات والمعرفة لفوائد علم الأخلاق ننتقل إلى باب التوبة باعتباره أحد منازل السالكين والسائرين إلى الله تعالىٰ .

---

(١) سورة الحجر : الآية ؛ ٢٩ .

الفصل الأول

التوبة

يقع الكلام على التوبة في عدة أُمور :

الأول ـ في معنىٰ التوبة وحقيقتها ، إعلم أن التوبة حالة وقرار يتخذ في القلب ، إن أراد الإنسان أن يسمو بنفسه ويتقرب إلى الله تعالى بتجرده عن ذنوبه ، فاقتراف الذنوب بارتكاب المعاصي تكون سبباً لابتعاد الإنسان عن الله تعالىٰ ، فإذا أراد التكفير عن معاصيه والإقتراب من الله تعالى ، فعليه أن يتعرض للنفحات الإلهية مبتدأ بصفحة جديدة من حياته بثلاثة أمور :

الأول : العمل الفوري .

الثاني : العمل المقبل .

الثالث : تدارك ما حصل في الماضي .

أما العمل الفوري فانه بمجرد ندمه على ما صدر منه يحصل على المغفرة ويصل إلى مطلوبه .

وأما العمل المقبل فهو أن يتعهد بأن لا يعود لمثل ذلك أبداً في

المستقبل .

وأما التدارك لما مضىٰ فهو بأداء ما عليه من عبادات وطاعات وقضاء ما فات منها وإعطاء لكل ذي حق حقه . وهناك خمسة أشياء في هذا المقام :

الأول ـ علمه بأن معاصيه قد أبعدته عن طريق الله تعالىٰ .

الثاني ـ ندمه بسبب هذا العمل .

الثالث والرابع ـ العمل الفوري والعمل المقبل .

الخامس ـ تدارك الأعمال الماضية .

وعلماء الأخلاق على اختلاف في أن أياً من العلم والحال والعمل يسمىٰ التوبة، وفي رأينا ان التوبة هي حالة الندم والأسف وسنوضح هذه الاختلافات عما قريب إن شاء الله .

الأمر الثاني : هل التوبة واجبة أو مستحبة ؟ .

والجواب : أن تعلم أن التوبة واجبة عقلاً وشرعاً .

أما عقلاً ، فان كل عقل يحكم بأن الإنسان خلق في أسفل سافلين ، وعليه أن يسمو ويتكامل بالتدريج حتى يصل إلى أعلىٰ عليين ، وإلى درجة الكمال ، وفي أثناء مسيرته هذه تعرض له أمور تعرقل وصوله إلى ذلك الهدف ، وهو على علم وبصيرة من ذلك ، فيتعرف على الندم للتخلص من ذنوبه ، وإصلاح ما أمكن منها ، ليواصل مسيره في طريقه المستقيم الذي رسمه الله تعالى له . فهي إذن واجب عقلي كما ذكرنا .

وأما شرعاً فان الأحاديث الواردة في ذلك كثيرة ، وسنتطرق إليها في حينها .

الأمر الثالث : هل أن وجوب التوبة فوري أم غير فوري ؟ والجواب : إن وجوبها فوري ، بدليل الشرع والعقل أيضاً .

أما شرعاً فقد ذكر في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة أن التوبة واجب فوري ﴿ **إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأُولئك يتوب الله عليهم** ﴾[1] وأما عقلاً فلوجوه :

أولها : إن الشجرة في بداية نموها وطراوة عودها يمكن تقويمها والتحكم فيها وتهذيبها بسهولة ، ولكن حين يشتد جذعها بمرور السنين الطويلة فانه يصبح من الصعب علينا ذلك ، وكذلك النفس يسهل التحكم فيها إذا لم تتلوث بالمعاصي ، فنبادر إلى التوبة النصوح بدون إهمال ، وإلا فان القلب سوف يتلوث ويصبح قاسياً شيئاً فشيئاً وتكون العاقبة سيئة نعوذ بالله تعالىٰ من سوء العاقبة .

ثانيها : قد يفاجىء الإنسان الموت فيختطف حياته وهو على وضع غير مناسب للقاء الله تعالى ، لذلك يجب أن لا يتوانىٰ الإنسان عن التوبة ولا يطمئن للحياة فقد أخفىٰ الله تعالىٰ ساعة المنية كي يكون الإنسان على استعداد دائم للرحيل وسفر الآخرة الطويل ليهيّىء لذلك مستلزمات السفر واللقاء بمولاه تعالى ، فنبادر بالتوبة قبل فوات الأوان وحلول الأجل .

ويقسم الناس إلى خمسة طوائف من حيث الإيمان :

أولها : طائفة الكفار والمشركين الذين يصدهم الكفر أو الشرك عن الصراط الإلهي المستقيم ويقطع عليهم طريق التوبة أحياناً إلا أن نفحات اللطف والرحمة الإلهية تصيب من يتعرض لها فهم يتمكنون من التوبة والاستنارة بنور الهداية الالهية .

---

(١) سورة النساء : الآية ؛ ١٧ .

ثانيها : طائفة الفاسقين ويمكنهم التوبة عن الفسق والفجور والعود، إلى الله تعالى . حيث ان طريق التوبة مفتوح لمن شاء بنية خالصة .

ثالثها: أصحاب الخواطر والخيالات المذمومة والتي قد تجر الإنسان شيئاً فشيئاً إلى الوقوع في المعصية ما لم تقطع الطريق عليها بالإستغفار والتوبة كما قال مولىٰ الموحدين أمير المؤمنين(ع) «جالس على عتبة باب قلبي ولن أدع أحداً غير الله يدخله» ولا نسمح حتى للخواطر المباحة باختراق النفس فربما تستدرج الإنسان إلى الخواطر المحرمة ثم إلى المعصية نعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا، والتوبة عن هذه الخواطر علاج ناجح لصفاء النفس .

رابعها : طائفة يذكرون الله تعالى ولا تخطر لهم خواطر مذمومة إلا أنهم ينشغلون عن ذكر الله تعالى بذكر غيره من المباحات وتوبة هذه الطائفة عن ذكر غيره تعالى والإنشغال بذكره فقط .

خامسها : أهل الذكر المنشغلون بالله تعالىٰ لا يخطر على بالهم غيره أبداً فليس لهؤلاء ذنوب تستوجب التوبة ، ولكنهم يطلبون التوبة باعتبارها جزءاً من العبادة ، فهم يتضرعون ويبكون ويخرون للأذقان سجداً وكأنهم جاؤوا بذنوب الدنيا بأجمعها كما هي سيرة الرسول الأكرم (ص) وأئمتنا الهداة (ع) والصالحين فعلىٰ الإنسان أن يلهج بالتوبة والإستغفار دائماً حتى الأنبياء والأوصياء والمعصومون وقد أشار االقرآن الكريم إلى ذلك بقوله : ﴿ **وتوبوا إلى الله جميعاً** ﴾[1] . حيث لم يستثنِ سبحانه وتعالى أحداً .

التوبة ثلاثة أقسام :

أولها : توبة العوام من الناس من الطائفة الأولى والثانية والثالثة لأن عموم الناس لا تخلو من واحدة مما ذكرنا من المعاصي .

(١) سورة النور : الآية ؛ ٣١ .

ثانيها : توبة الخواص ، والمراد به التوبة عن الخواطر المباحة والتي تخطر على بال الناس وحتى الأولياء والصالحين .

ثالثها : توبة خاص الخاص ، وهي التوبة التي تكون جزءاً من العبادة ، كتوبة الأنبياء والأولياء المعصومين (ع) لكي لا يغفلوا عن ذكر الله تعالى . ولنسأل إذا كان الأنبياء والرسل والأولياء معصومين وآمنين من العقاب فكيف نفسر استغفارهم وتضرعهم وخوفهم الشديد ؟ .

لعلماء الأخلاق آراء عديدة في هذا الموضوع :

الرأي الأول : هو أنهم (ع) يؤدون التوبة والاستغفار من أجل تدريب الناس وتعويدهم على ذلك وفي الوقت نفسه يشغلون قلوبهم بذكر التوبة إلى الله تعالى ولكننا لا يمكننا الإقتناع بذلك إذ لا يمكن لأمير المؤمنين (ع) أن يغمىٰ عليه في الليلة عدة مرات ، من أجل تأديب الناس .

الرأي الثاني : هو أنهم يستغفرون عن الأمور المكروهة وفيه :

أ ـ أن الأمور المكروهة قد جوزها الله تعالى فلا يعاقب عليها .

ب ـ إذا ما تصفحنا حالات وصفاء الأنبياء لم نجد في سيرتهم أدنىٰ سلوك من هذا القبيل .

الرأي الثالث : بأن التوبة من الأُمور المباحة ، وهذا الرأي غير معقول أيضاً ، لأمرين :

الأول ـ لأن الفعل المباح أكثر جوازاً من الفعل المكروه .

الثاني ـ إن بعض الأنبياء كانوا منزهين حتى عن الخواطر المباحة التي تشغل عن ذكر الله تعالى .

الرأي الرابع : يقول إن استغفارهم من أجل أُمتهم بدليل الآية الشريفة : ﴿ **ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر** ﴾[1] والمراد من ذلك ذنوب أُمته ، ولتوضيح ذلك نذكر ثلاثة أمور :

١ ـ ما نراه اليوم في المؤسسات من محاسبة الرئيس الأعلىٰ لنائبه عن كل ما يصدر من تابعيه وان كان النائب قد أحسن التصرف ولم يرتكب خطأً ، ولذلك بالنسبة لله تعالى فانه يحاسب أنبياءه ورسله على تقصير أممهم .

إلا أن النفس لا تطمئن لهذا التوجيه فان الله تعالى مطلع على كل أفعال عباده ، وليس بحاجة لأن يؤاخذ الرسول بذنوب أُمته .

٢ ـ إن المعاصي والذنوب التي تصدر من الأمة يطلع عليها النبي فتسبب له انزعاجاً وخجلاً فيتوسل إلى الله تعالى بغفرانها .

وهذا التوجيه ليس بسديد ، إذ ان النبيّ ينهاهم عن المعاصي والذنوب فان لم يتوبوا فلا محالة من انتظار العقاب .

٣ ـ ان الله تعالى خلق جميع مخلوقاته بنفس رحماني واحد ﴿ **وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر** ﴾[2] ومعناه أن الله سبحانه وتعالى قد خلق الموجودات كلها بكلمة «كن» وهو يسمىٰ النفس الرحماني ، فمثلاً : ان النفس الإنساني يذهب إلى الأعماق ويعود نفساً واحداً ، وتحدث حروف الهجاء جميعاً من هذا النفس الواحد ، أي أنه عندما يخرج من الحلق يشكل الحروف الحلقية ، وعندما يصل إلى فضاء الفم يشكل الحروف الشجرية

(١) سورة الفتح : الآية ؛ ٢ .
(٢) سورة القمر : الآية ؛ ٥٠ .

ويصل إلى الشفاه فيشكل الحروف الشفوية ، وكأن لسان حال هذا النفس يقول لنا : أنا الألف أنا الياء الخ ، وذلك صحيح لا ريب فيه ، ولكن لا يستطيع أحد الحروف الإدعاء بأنه الجميع .

فالنفس الرحماني نفس واحد ، وهو عبارة عن منزلة الرسول الأكرم (ص) وهي بمشيئة الله تعالى حيث ورد (خلق الله الأشياء بالمشيئة ، وخلق المشيئة بنفسها) ويتضح ذلك عندما ندرك منزلة الولاية التامة والولاية المطلقة التي نالها الرسول الأكرم (ص) وهو (الخاتم لما سبق والفاتح لما استقبل والمهيمن على ذلك كله) ، وفي كلام مولى الموحدين أمير المؤمنين (ع) (كنت مع الأنبياء سراً ومع خاتم النبيين جهراً) فهو مع آدم ومع نوح وإبراهيم وعيسىٰ وموسىٰ وجميع الأنبياء عليهم السلام في السر والخفاء ، ومع خاتم النبيين (ص) علناً وجهراً ، وبهذا الإتحاد فآثام الأمة آثام النبي ، ولكن عقلنا عاجز وفهمنا قاصر عن إدراك هذا الموضوع ، ولذلك نجمل الكلام فيه .

الرأي الخامس : الذي يقول إن تضرعهم وابتهالهم واستغفارهم ليس ليكونوا نموذجاً مؤدياً للآخرين ، بل لعله من أجل أداء واجباتهم ، ولكن الناس من خلال ذلك قد اقتدوا بهم فتفتحت لهم الأبواب الإلهية وهذه المسألة تسمىٰ بحالة الوقوف ، وهذا الأمر بحاجة إلى فهم بعض المقدمات وهي أن المسافرين إلى الله أمامهم ثلاث مراحل :

١ ـ سير من الخلق إلى الله في عالمه الربوبي :

٢ ـ سير من الحق إلى الحق ، وهو التبحر في الصفات الإلهية ، لفهم هذه الصفات ، وهذه هي الحالة التي ذكرناها سلفاً (حالة الوقوف) .

٣ ـ سير من الحق إلى الخلق ، وهو السير باتجاه الناس وليس من

باب تهافت منزلتهم ، بل لارتفاعها . وبهذه الوسيلة يتعرف الناس على عالم القرب من الله تعالى ، وهذه هي منزلة الأنبياء ، ولكل واحد منهم وقوف عند منزلة ، النبي يحيىٰ (ع) في منزلة الخوف والنبي عيسى (ع) في منزلة الرجاء مثلاً .

ورد في الروايات أن النبي يحيىٰ (ع) قال للنبي عيسى (ع) هل أنت مطمئن أن النار لن تمسك ؟ فأجابه عيسىٰ (ع) : وهل أنت متوهم أن الباري عز وجل ليس غفاراً ؟ فاتفقا على انتظار الوحي لمعرفة الجواب . فنزل جبرائيل (ع) في تلك الأثناء قائلاً : كلاكما على حق وصواب ، لكن الله تعالى يقول (أنا عند حسن ظن عبدي المؤمن) فأضحىٰ معلوماً من هذا أن الرجاء أفضل من الخوف وقد ورد في الدعاء (يا من سبقت رحمته غضبه) ، فلو افترضنا أن هناك مولى له عبدان أحدهما راجي والآخر خائف ويقفان على فاصلة أقدام عنه ، فان غفل المولىٰ تراجع الخائف إلى الوراء مبتعداً عن مولاه لشدة خوفه ، وتقدم الراجي مقترباً نحو مولاه .

إذن فالخوف ربما يكون سبباً للبعد أحياناً ، والرجاء يبعث على القرب أحياناً ولذا فان حالة الرجاء أفضل وأحسن من حالة الخوف . وهكذا تصبح توبة الأنبياء واستغفارهم من أجل زيادة التقرب ولتأديب الناس وإرشادهم أيضاً .

الرأي السادس : ان شعورهم بالتقصير وعدم استطاعة العبد أداء ما عليه من تكاليف أو عبادات بما يليق بمقام المولىٰ وحقه في العبادة يدفعم لذلك المستوىٰ من التضرع والإبتهال والبكاء وقد ورد عن الرسول الأكرم (ص) : (ما عرفناك حق معرفتك ، وما عبدناك حق عبادتك) . وهذه المسألة متوقفة على مقدمة . وهي هل العبد مستحق للثواب على إطاعته وللعقاب على معصيته ؟ أم أنه لا يستحق الثواب على طاعته ولكنه يستحق

العقاب على عصيانه ؟ والعلماء على رأيين :

الأول ـ إن العبد بعمله الصالح يستحق الثواب ، وبعمله السيّىء يستحق العقاب . ولكن ثوابه على عمله الصالح واجب على الله تعالى ، أما عقابه على العمل السيّىء فليس واجباً ؛ لأن الله سبحانه قد يعفو عن الذنب إذا شاء فتسقط العقوبة .

الثاني ـ إن العبد بعمل الخير لا يستحق الأجر ، ولتوضيح ذلك ذكروا عدة أمور . وقبل بيان ذلك نقدم مقدمة نميز فيها بين الأجر والثواب . فالأجر هو دفع أو اعطاء لقاء أداء عمل ، أما الثواب فهو من باب التعظيم والإجلال ، والنسبة بينهما عموم وخصوص مطلق ، فكل ثواب هو أجر وليس كل أجر ثواباً ، وفيما يلي الأمور التي ذكروها :

الأول : ان العباد إنما يؤدون تكاليفهم وعباداتهم رجاءً للمنفعة ، ومن المسلم به أن الله سبحانه وتعالى لا تنفعه طاعة من أطاعه ولا تضره معصية من عصاه ، ونحن نرجو من أعمالنا العبادية والتكاليف الإلهية الأجر والثواب .

الثاني : إن العبد إذا أراد الحصول على أجر من الله تعالى فعليه أن يقدم شيئاً من عنده لله حتى ينال الأجر من الله تعالى ، أما أن يقدم شيئاً عائداً لله فلا يحق له المطالبة بالأجر ؛ لأنه مملوك ولم يقدم شيئاً إلا وهو مملوك لله تعالىٰ، وقد ورد (العبد وما في يده لمولاه) وهذا مما لا غبار عليه ولا ريب فيه ، فنحن لا نملك شيئاً أبداً بالمعنىٰ الحقيقي وإذا عبدنا الله فمكان العبادة وزمانها والتوفيق إليها ومعرفتها وكل ما يحيط بنا هو من ألطاف الله تعالى وملكتها عائدة له سبحانه وتعالى .

وبذلك يثبت أن العبد غير مستحق للثواب على عمل الخير .

الثالث : إذا فرضنا أن شخصاً احتضن طفلاً وتكفله وترعرع في بيته بمنزلة أطفاله وسهر على رعايته وتحمل من أجل تربيته المشقة والتعب وحين اشتد ساعده علّمه حرفة البناء ، فلو أراد الشخص منه أن يبني له بيتاً فهل من اللائق بالبناء هذا المطالبة بأجور العمل أم أنه سيرىٰ أن ما قدمه شيء يسير لما عليه ان يقوم به لهذا الرجل الذي تحمل من أجله وبذل جهوداً لتنشئته ؟ فأين ذلك من المنعم المطلق الذي أغدق علينا نعمه التي لا تعد ولا تحصىٰ .

فمهما عملنا وشكرنا فلن نوفيه حقه .

وبناءً على المقدمات السالفة نقول لأن الأنبياء والمعصومين يرون أنفسهم في موقع التقصير فتراهم يبكون ويتضرعون ، وذلك كله خوفاً من الله تعالى أو شوقاً إليه ، ومن الواضح أن المرء كلما زادت معرفته بالله زاد خوفه وتضرعه إليه أيضاً . قال الله تعالى : ﴿ **إنما يخشىٰ الله من عباده العلماءُ** ﴾[1] .

زن أعمالك وأفعالك بميزان العقل ، حتى تثبت في مقام العبودية ، واصرف نظرك عن المعاصي الكبيرة واغمض عينيك عن الأعمال غير الشرعية ، فحينئذ يستجاب دعاؤك في أمور الدنيا والآخرة من الرب الكريم . هذه المنزلة هي منزلة جيدة ، ولكن هنالك فرق شاسع في مدىٰ القرب من الله بين من يطلب الأشياء لنفسه ، وبين من لا يريد شيئاً لنفسه إلا رضا الله عنه وقليل من يفعل ذلك .

يحكىٰ أن عابداً كان منقطعاً يعبد الله مدة ويصله رزقه في كل يوم . فابتلاه الله تعالى ، فمنع رزقه عنه يوماً . وبعد أن غلبه الجوع قصد شخصاً

---

(١) سورة فاطر : الآية ؛ ٢٨ .

مجوسياً يستجدي منه . وحصل على قرص خبز ، وعند خروجه من الدار نبحه كلب لصاحب الدار وأخذ منه الخبز ، فعاد العابد وأخذ قرصاً آخر ، فنهشه الكلب منه مرة أخرىٰ وكرر ذلك مرات عديدة ، فغضب العابد وصاح بالكلب ناهراً : ما أوقحك من كلب ؟ أكلت خبزي وعضضت يدي فأجابه صاحب الدار قائلاً : ليس هو الوقح بل أنت . فإن رزقك كان يصلك منذ أعوام فلم تصبر على الجوع سويعات وجئت إلى داري مستجدياً أليس الأجدر بك أن تصبر على الجوع وتنتظر من رحمته تعالى أن يرزقك بعد حين ؟ فلو كنت مكانك لصبرت على ذلك ولم أستجد من أحد ، ولا أشكو حالي لغيره أبداً .

فلو صرفنا عمرنا كله بالعبادة والطاعات متحملين المشاق والأذىٰ فلن نؤدي حق شكر نعمة واحدة ، لأن الله هو السابق في الإحسان ، ولذا فإن خوف المعصومين (ع) وخضوعهم وبكاءهم لقصور العباد في منازل العبودية ، لأن واجب الوجوب غني بالذات ، وسائر ممكني الوجود فقراء بالذات كما جاء في الآية : -

﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد ﴾[1] .

الرأي السابع : القائل بأن خوفهم واستغفارهم للإحساس بعظمة الخالق وشدة الخوف منه تعالى بغض النظر عن وضعية العبودية ، ونقول باختصار : الرجاء أن يكون المرء منتظراً لحدوث أمر في المستقبل ينتفع به ولا يعلم هل سيناله أم لا فيمني نفسه بذلك ، وهذه حالة نفسانية ، وفي حالة اليقين بحصول الشيء أو اليقين بعدم حصوله لا يحصل رجاءً ، فالرجاء إذن مع الشك لا اليقين .

---

(١) سورة فاطر، الآية: ١٥.

أما الخوف فهو أن نتصور أمراً مكروهاً سيقع في المستقبل مخالفاً لميلنا ورغباتنا مشكوكاً في وقوعه ، ولهذا يسمىٰ خوفاً لاضطراب الذهن من توقع حدوثه ويحدث الخوف كذلك من مواجهة أمر مفاجىء أحياناً .

إذن فكل شيء عظيم يكون باعثاً للخوف . وعظمة الله تعالى محسوسة لدىٰ المعصومين (ع) أكثر من الآخرين فتراهم يخشونه أكثر وبناءً على ما تقدم يكون خاتم النبيين وأكرم المرسلين (ص) أشد الناس خوفاً وخشية لأنه أكثرهم إدراكاً لعظمة الله وهيبته ، فعلي بن أبي طالب (ع) فالأئمة (ع) فسائر الأنبياء (ع) كل حسب مرتبته ثم العلماء الصالحين .

وهناك فرق بين الخوف والخشية . فالخوف عند الإنسان حالة نفسية يمر بها عند ارتكابه عملاً يستوجب العقوبة أو لا يكون مرضياً لمن يخافه ، وأما الخشية فهي الخوف من عظمة وهيبة شيء ذي هيبة وجلال ، وقد جاء في القرآن الكريم قوله تعالىٰ : ﴿ **إنما يخشىٰ الله من عباده العلماء** ﴾[1] ولم يقل (يخاف) الله فخوف الأنبياء والأئمة (ع) والعلماء (رض) كان من هيبة الله وعظمته وليس لتقصيرهم وخطئهم .

الرأي الثامن : أن جميع الوجودية مركبة من حيثيتين :

١ ـ الحيثية الوجودية .

٢ ـ الحيثية الذاتية .

ولكن الله تعالىٰ واجب الوجود له حيثية واحدة ، وذاته بسيطة الحقيقة ، بخلاف الممكنات المركبة ، فقد جاء في القرآن الكريم ﴿ **سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون** ﴾[2]

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٢٨.

(٢) سورة يس، الآية: ٣٦.

وجاء في آية أخرىٰ ﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ﴾(١) .

بعد هذه المقدمة نعلم أن جميع ممكنات الوجود لها ارتباط وعلاقة بالخالق سبحانه من جهة حيثية الوجود واكتساب الشرف ، ولكنها تختلف من جهة الحيثية الذاتية عنه ، فلذلك كلما نظر المعصومون إلى ذواتهم وجدوها في منزلة واطئة فيحسون بالخوف والتضاؤل وكل عجزهم واستغفارهم وابتهالهم من جهة الاطلاع على ذواتهم .

الرأي التاسع : حاصله ، بما أن درجة الكمال الإلهي غير متناهية وليس لها آخر ، فمهما اطلع الإنسان على الكمال الإلهي يبقى قاصراً عن الاطلاع علىٰ كل الكمالات التامة ، وهذا رسول الله (ص) بكل معرفته وكماله لم يطلع بصورة تامة وكاملة على الله تعالىٰ ، فلذلك كان هذا الأمر داعياً إلى خوفه واستغفاره وتضرعه وعجزه . أما سبب عدم خوفنا نحن ، فلأننا لم نطلع كفاية على المنازل والمراتب الإلهية ، والمعنىٰ السالف عند المعصومين (ع) بمعنىٰ الشوق فلو أنّ شخصاً مستغرقاً في التفكير في محبوبه وكيفية الوصول إليه ، فحالته هذه تسمىٰ (الشوق) حيث يتطلع الإنسان إلى إزالة الحجب عن حبيبه ، ليحظىٰ برؤيته . ويجب عليك أن تعلم أن هذه الحجب تحصل بسبب معاصينا الموجبة لبعدنا من ناحيتنا عن المحبوب ، وليست مسببة عن المحبوب تعالىٰ .

وبذلك تعلم أنه كلما ازدادت المعرفة بالله سبحانه ازداد الشوق والمعاناة . ومن لا يعاني لا يدرك ، فكلما حثّ الإنسان الخطأ في مدارج المعرفة انكشف له جهله وعجزه . قال الشاعر :

(إلــى هنـــا وصـــل علمـــي   أنـــي أعلـــم أنـــي لا أعلـــم)

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٤٩ .

تلك الآراءكانت في تفسير اجتماع العصمة والخشية التي لا نصل إلىٰ غايتها نحن الغارقين بالجهل والمعاصي .

الأمر الخامس : هل توبة الشخص حتمية القبول وصحيحة ؟ يعتقد علماء الكلام أن الله (عزّ وجلّ) يقبل توبة التائب ، وإذا عاقب فإن ذلك مكر وعمل قبيح ، ونستطيع الاستشهاد على ذلك بآيتين وعدة أخبار .

فقد قال الله تعالىٰ : ﴿ **وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات** ﴾[1] ، وقال تعالىٰ أيضاً : ﴿ **قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً** ﴾[2] .

وأما الأخبار والأدعية فقد جاء فيها (التائب من الذنب كمن لا ذنب له) . وفي الصحيفة السجادية للإمام زين العابدين :

(الحمد لله الذي دلّنا على التوبة التي لم نفدها إلا من فضله ، فلو لم نعتدد من فضله إلا بها لقد حسن بلاؤه عندنا وجل إحسانه إلينا وجسم فضله علينا) .

التوبة التي تتحقق بشروطها الصحيحة تكون مقبولة إنشاء الله تعالىٰ ولدينا أدلة عقلية ونقلية على ذلك .

فمن الأدلة النقلية الآيات السالفة الذكر ، وقد قال تعالىٰ وهو أصدق القائلين : ﴿ **إن الله هو التوّاب الرحيم** ﴾[3] والتوبة تكون من جانب العبد ومن جانب الخالق (عزّ وجلّ) ، أما توبة العبد فكما أوضحنا سابقاً هي بمعنى الندم على كل ذنب وعمل قبيح إقترفه الإنسان ، ومن الله تعالى قبوله

---

(١) سورة الشورىٰ، الآية: ٢٥.
(٢) سورة الزمر، الآية: ٥٣.
(٣) سورة التوبة، الآية: ١١٨.

توبة عبده .

ونقدم مقدمة قبل استعراض الدليل العقلي : وهي أن للعلماء آراء ثلاثة بشأن أن الروح قبل البدن أم بعده ؟

الرأي الأول : وهو الرأي القائل : إن الأرواح قبل الأجسام ، ويستدل أصحاب هذا الرأي بالآيات والأخبار . قال تعالى ﴿ **ألست بربكم قالوا بلىٰ** ﴾[1] وقال تعالى ﴿ **ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين** ﴾[2] وآيات أخرىٰ تدل على أن الله تعالى قد أخذ العهد من عباده في عالم الذر .

أما الأخبار فمنها ما يقول : « خلق الله الأرواح قبل الأجسام بألفي عام » ، لأن البدن في تطوره داخل الرحم عندما يصبح كاملاً يمنحه الله تعالىٰ الروح وبدونها فهو ميت .

الرأي الثاني : أن الروح تحدث بحدوث البدن ، فعندما يتهيأ البدن للوجود في عالم الرحمة ، يخلق الله الروح فيه . وهذا هو نفس القول الأول القائل أن الأرواح كانت موجودة في عالم الذّر ، إلا أنه لم يسمّها روحاً .

الرأي الثالث : إن الروح لم تخلق قبل البدن ، ولا تخلق عند حدوثه ، ولعل الروح تتجرد من البدن ذاته عند حدوث التطورات والتحولات ، كمثل الشجرة عندما تُقطع تصبح خشبة وتعطينا ناراً مثلاً . وكذلك النطفة تصبح في الرحم علقة ثم مضغة ثم عظاماً ثم لحماً ، وبعد مدة يتحول البدن روحاً بدليل الآية الشريفة ﴿ **ثم أنشأناه خلقاً آخر** ﴾[3] وهو

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٢.

(٢) سورة يس، الآية: ٦٠.

(٣) سورة المؤمنون، الآية: ١٤.

المراد بالروح ، وأول مرحلة من إدراكها هي معرفة نفسها ، وبعدها معرفة الأمور البديهية ، وبعدها الأمور النظرية ، وبعدها معرفة الله ومعرفة الأنبياء .

وحسب الآراء الثلاثة المذكورة فالروح من عالم الأمر وعالم النقاء ، كما قال تعالى ﴿ **قل الروح من أمر ربي** ﴾[1] . والبدن هو من عالم الخلق وعالم المادة الكثيفة المحسوسة . ولا يخفى أن بين عالم الأمر وعالم الخلق تفاوتاً كثيراً ، ومع ذلك فإن الله تعالى قد أوجد فيما بينهما علاقة خاصة بقدرته بحيث يقف العقل عاجزاً عن إدراكها ولم يستطع أحد التوصل إلىٰ معرفة تلك الكيفية .

وربما تكون آثار الروح غالبة على البدن فتسمو النفس الإنسانية بصاحبها وتعرج به إلى منازل كمالية عالية فيصطبغ البدن بصبغة الروح ويصبح تابعاً يقفو آثارها وينفذ إرادتها السامية .

وأحياناً يكون البدن غالباً على الروح إلى حد تكون فيه آثار البدن وانعكاساته ظاهرة وواضحة للغاية ، وفي هذه الحالة نعبر عن ذلك بتجسد الأرواح فينحرف الإنسان عن صراط الله المستقيم فنرىٰ « أبو جهل » الذي تحول فيه الجسد إلى أمر مطاع والروح مغلوبة منزوية فلم تؤثر فيه كلمات الحق فإذا شاهد المعجزات ، قال : إن ذلك سحر . قال الله تعالى شأنه هذا وأمثاله : ﴿ **لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون** ﴾[2] .

وهناك حالة وسطىٰ بين المنزلتين ، يتمكن الإنسان فيها أن يهذب

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.

نفسه فيصل إلى مراحل كمالية عالية ويصبح ولياً يحظىٰ بكرامات إلهية نتيجة لتساميه الروحي ، كما يمكن أن يهبط إلى الحضيض إذا قصر في تهذيب نفسه وانقاد للأهواء المضلة .

سبق أن ذكرنا أن بداية ظهور القوة العاقلة هي بداية التكليف وكمال تلك القوة يكون في سن الأربعين ، أما غريزة الشهوة فتظهر في سن مبكرة لدىٰ الإنسان ، ولكن غريزة الغضب سابقة لها حيث تظهر في سن الطفولة ، ومعنى المعصية هو أن يندفع الإنسان مع غريزتي الشهوة والغضب ، والمعصية التي يقترفها الإنسان تكون سبباً في تلوث روحه وكدورتها وفقدان الحالة الشفافية التي يتسم بها الإنسان ، وقد يصل الإنسان إلى حالة من تلوث الروح تجعلها عدوانية شريرة ظاهراً وباطناً وقد قال تعالى : ﴿ **كلا بل ران علىٰ قلوبهم ما كانوا يكسبون** ﴾[1] ، فلن تنفع معها إلا نار جهنم .

وتكرار الأعمال هو تكرار الحالات ، وبها تحصل الملكات ، وما دامت ظلمة المعصية لم تصل إلى أعماق الروح ، يستطيع المرء أن يستحم بحمّام التوبة . فيتضرع إلى مولاه مستغفراً طالباً للعفو ، فتطهره التوبة من أدناس المعاصي ويؤوب إلى فطرته السليمة ، بتوبة نصوح ، تصدر من أعماق القلب ، ولا تقتصر على اللسان فقط وترديد للاستغفار دون رؤية وانتباه ، وأفضل التوبة ما يصدر من القلب وتنعكس آثارها على اللسان والجوارح .

الأمر السادس : « في بيان ما يُتاب منه » .

تُقسم المعاصي إلىٰ عدة أقسام : الأول ـ ترك ما فرض الله تعالى على عباده كمعصية عدم أداء الفرائض ، كترك الصلاة والصيام .

---

(١) سورة المطففين، الآية : ١٤ .

الثاني ـ المعاصي المتعلقة بحقوق الناس كالغيبة والسرقة والتهمة .

الثالث ـ المعاصي المتعلقة بحقوق الله وحقوق الناس ، كما تقسم الذنوب إلى صغائر وكبائر .

وقد اختلف العلماء المحققون في معنى المعصية الكبيرة والصغيرة إلى عدة آراء :

الرأي الأول : ليس هناك معصية كبيرة أو صغيرة ، فالمعصية الصغيرة تكون صغيرة الأهمية في اعتبارات الإنسان النسبية ، وكذلك المعصية الكبيرة تكون كبيرة في اعتبارات من ارتكبها ، لكن الله تعالى يعتبر ، أي معصية مهما كانت معصية كبيرة كما ورد ، ما معناه في الحديث القدسي : « لا تنظر صغرىٰ معاصيه بل انظر من الذي اقترفها بدون وعي وسيطرة » . وبالطبع فإن هذا القول قابل للتصديق ولكن أشار إلى الكبائر والصغائر في الآية الشريفة ﴿ **الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم** ﴾[1] وقد فُسِّر اللمم بالزلل الطفيف الذي يصدر عن الإنسان ، إضافة إلى أن هناك روايات وأخبار يستفاد منها وجود المعاصي الكبيرة والصغيرة ولذا نصرف النظر عن هذا الرأي لتوفر الآيات والأخبار المخلفة له .

الرأي الثاني : أن هناك معاصي كبيرة ومعاصي صغيرة ، واختلفوا في تشخيص الكبائر والصغائر إلى أربعة آراء ، وهي :

آ ـ إن المعاصي التي وردت بها نصوصٍ قرآنية تعد كبيرة ، والتي تستند إلى نصوصٍ غيرِ القرآن صغيرة .

ب ـ إن كلّ معصيةٍ ، ورد فيها وَعِيد بنار جهنم في القرآن الكريم أو

(١) سورة النجم، الآية: ٣٢.

على لسان المعصومين (ع) فهي كبيرة وغيرها صغيرة .

ج ـ إن المعصية التي وردت في القرآن أو على لسان النبي (ص) تكون كبيرة وغيرها تعتبر صغيرة .

د ـ إن كل معصية ورد فيها الأمر بالحد في القرآن الكريم وفي الأخبار تكون كبيرة مثل الزنا وشرب الخمر واللواط والسرقة . والتي ليس فيها حد تكون صغيرة .

الرأي الثالث : لا يعطي تشخيصاً دقيقاً ، ولكن تعدد المعاصي الكبيرة ويختلف في تعدادها تبعاً للأخبار الواردة ، فيحددها البعض بسبعين . وبعض بأقل أو أكثر .

في ذلك الاختلاف لطف لأن الشارع المقدس أراد لها الإبهام والمجهولية كي نجتهد في اجتناب المعاصي كما ورد في الخبر أنه تعالى أخفىٰ عدة أشياء منها :

١ ـ أولياؤه بين عباده .
٢ ـ ليلة القدر .
٣ ـ رضاه بطاعته .
٤ ـ سخطه على المعاصي .
٥ ـ ساعة الاستجابة في يوم الجمعة .

إذن فجميع تلك الإبهامات لحكمة ومصلحة يراها سبحانه ، فعلينا أن لا نؤذي أي شخص من الناس مخافة أن يكون من أولياء الله تعالى كما ورد في الحديث القدسي « ومن أهان لي ولياً فقد أهانني » .

وقال بعض الحكماء «لا تنظر إلى خلق الله بعُجب وتكبّر فلعل أحبّة الله

بين أولئك » .

وأخفىٰ ليلة القدر حتى يعبد الناس الله في كل الليالي بقصد نيل أجر ليلة القدر ﴿ **ليلة القدر خير من ألف شهر** ﴾[1] .

وعلة إخفاء رضاه في طاعته أن نستصغر أي عمل خير نفعله ، مما يدعونا إلى الاستزادة من عمل الخير .

وعلة إخفاء سخطه في معصيته أن لا نرتكب عملاً غير صالح مهما كان صغيراً لأنه قد يثير سخط الإله العظيم ونحن نحسبه طفيفاً .

وقد أخفىٰ ساعة الاستجابة للدعاء في يوم الجمعة حتى نعبد الله تعالى في جميع ساعات يوم الجمعة بأمل نيل استجابة الدعاء في تلك الساعة المباركة .

وتترتب على تحديد الإثم الصغير أو الكبير في بعض موارد الفقه مسائل فالعدالة المشترطة في صحة الصلاة خلف إمام الصلاة تستند إلى عدم ارتكابه المعاصي الكبيرة لذا فإن تشخيص الكبائر والصغائر مهم جداً وما يشترط في صحة الطلاق من أن يكون بحضور شاهدين عادلين ، إضافة إلى الناحية الأخلاقية التي تحتم على المرء معرفة الكبائر والصغائر ليعلم أيّ الأعمال يقربه إلى الله ، وأيها يبعده عنه .

وإذا صرفنا النظر عن الموازين السالفة الذكر حول الكبائر والصغائر في الأخبار ، فلن نستطيع حصر الكبائر والصغائر . ونفهم من ذلك أن المعاصي نسبية بمعنىٰ أن المعصية تقاس بالنسبة إلى ما دونها فتكون كبيرة ، وبالنسبة إلى ما فوقها فتكون صغيرة . ولكن هذا الكلام لا يصلح أن يكون مقياساً ثابتاً فإجمالاً نفهم أن هناك كبائر وهناك صغائر دون الرجوع إلى

(١) سورة القدر، الآية: ٣.

القياس النسبي .

في بداية بحث الأخلاق قلنا أن الله تعالىٰ خلقنا من أجل الوصول إلىٰ السعادة الأبدية ، وهي لقاء الله (عزّ وجلّ) ، وليس هناك تصور للسعادة أبداً بدون لقاء الله تعالىٰ ، فلهذا نقول : إن المعاصي هي الحائل أمام الإنسان من الوصول إلى السعادة الأبدية . ولأجل وصول الإنسان إلى تلك المنزلة عليه أن يبتعد عن المعصية ويهذب روحه من رين الضلال حتىٰ يكون البدن مطية للروح ، والبدن محتاج لأن يأكل ويشرب ويلبس ، إذن لأجل نيل هذا المقام هنالك ثلاثة عناصر : -

١ ـ الروح .

٢ ـ البدن .

٣ ـ موجبات البقاء .

ومن أعظم الكبائر قتل النفس كما ورد في القرآن الكريم ﴿ **ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها** ﴾[(١)] .

والمعصية الكبيرة الأخرىٰ بعد قتل النفس هي تضليل الناس ، حيث إنها تقطع الطريق للسير إلى الله تعالىٰ . وفي الرواية عن الإمام الصادق (ع) قال : « الذنوب الكبيرة سبعة من جملتها قذف المحصنات والشرك بالله والسرقة وأكل مال اليتيم ولو بدرهم » فسأله الراوي هل ما ذكرت أسوأ أم ترك الصلاة ؟ فأجابه : ترك الصلاة . فقال : فلم لم تذكرها إذن ؟ فقال : ذكرت الشرك بالله في بداية كلامي ونيل السعادة يتوقف على رضا الله فبدون معرفة الله تعالىٰ لن تنمو بذرة الإيمان في القلب ولن يوفق الإنسان للعمل الصالح ، والشرك ابتعاد عن الله تعالىٰ وهو الجهل الذي يغلق الأبواب

---

(١) سورة النساء، الآية: ٩٣.

للوصول إلى السعادة ولذا فهو من أعظم المعاصي ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾[1] . إذن فكل معصية تؤثر على الروح أو تفسدها ، فهي كبيرة ، وكل معصية تُفسد البدن فهي كبيرة أيضاً ، وما يفسد العقل والبدن كالخمر فهو حرام ومعصية كبيرة ، وكذلك الزنا الذي يفسد البدن وتترتب عليه آثار سلبية في المجتمع يعتبر من الكبائر أيضاً .

وأما الصغائر التي لم يتم تشخيصها بدقة ، حتى لا يتجرأ المرء على ارتكابها لكونها صغائر .

قال الإمام الباقر (ع) « الأمور ثلاثة : أمر بيّن رشده فيتبع وأمر بيّن غيّه فيجتذب ، ومشتبهات بين ذلك ، ومن ترك الشبهات نجا من الهلكات ومن ارتكب الشبهات وقع في المحرمات وهلك من حيث لا يعلم » .

وذلك يعني أن كل المسائل تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

الأول: الأمر الواضح الجلي وهو الرشد والصلاح فتجب المداومة عليه.

الثاني : الغي والعصيان ويجب اجتنابهما .

الثالث : الشبهات ومن اجتنبها فقد اجتنب المحرمات .

فيصبح معلوماً من هذه الرواية أن اجتناب الشبهات سبب لنجاة الإنسان من الهلكة، والوقوع فيها يسحب الإنسان إلى الوقوع في المعصية .

وقد ذكر فرق آخر بين الكبائر والصغائر ، فكل معصية يكون أثرها كبيراً تكون من الكبائر ، وكل معصية يكون أثرها طفيفاً تكون من الصغائر . ويكون الاختلاف بين المعاصي من ناحية الكيفية لا الكمية .

---

(١) سورة النساء، الآية: ٤٨ .

هذا التقسيم في المعاصي له نظير في الطاعات فمنها الطاعة الكبيرة ومنها الطاعة الصغيرة ، أو ما يعبر عنه بالفضيلة وبالأفضل ، فأي طاعة توصل الإنسان إلى منزلة الكمال أسرع تكون أفضل ، وتتفاوت الطاعات فيما بينها في الفضيلة كما أن للوقت أو المكان دخل في فضلها وكمالها ، كما أن للطاعة مصاديق كثيرة فلا تنحصر بالصلاة والصيام والحج ، كطلب الرزق الحلال والسعي وراء العمل مثلاً من أفضل العبادات وكل عمل يحافظ على البدن يكون طاعة أيضاً فالبدن يعتبر مطية الروح يأتمر بأمرها فما لم يكن البدن سالماً لا يستطيع أن يلبي أوامر الروح بدقة حتىٰ إذا ما عجز غادرته الروح أبداً . إذن فإحدىٰ الطاعات الواجبة تكون حفظ الصحة . وكل عبادة تؤدي إلى بقاء الروح في الجسد مدة أطول تكون أفضل ، ومن أفضل الطاعات والعبادات معرفة وحدانية الله تعالىٰ ونفي الشرك عنه ومعرفة النبي والأولياء (ع) والاعتقاد بهم ، لأن حياة الروح المعنوية بالمعرفة ومماتها بالجهل ، وقد قال الإمام الباقر (ع) : « ليس هناك شيء أفضل من المعرفة » .

وفي الجنة درجات ومراتب تتفاوت بحسب اللياقات الكمالية للأفراد في الحياة الدنيا كما أن لجهنم درجات ومراتب بحسب الشرور والمعاصي للأفراد في الحياة الدنيا . وينقسم الناس إلى أربعة أقسام بالنسبة لنيل الجزاء الأخروي :

الأول : الهالكون ، وهم الجماعة التي تهلك بسبب أعمالها .

الثاني : المعذبون ، وهم على مستويات متفاوتة ودرجات متنوعة في شدة العذاب ومدته ونوعه .

الثالث : الناجون ، وهم الموحدون الذين أطاعوا الله تعالىٰ ولم

يخالفوا ما أمرهم به ، ولم يتصرفوا وفق ميولهم وهواهم .

الرابعة : فرقة الفائزين وهم الفرقة التي لم تلوثها المعاصي أو التي تتوب عن قريب وهم على مستويات ودرجات في الكمال والسعادة .

وهذه الأقسام الأربعة تتفاوت فيما بينها تفاوتاً ملحوظاً بالنسبة للمدة أو نوع الثواب أو العقاب ، ومن ناحية الشدة في العذاب أو العلو في نعيم الآخرة ﴿ **إنَّ الله لا يظلم مثقال ذرة** ﴾[1] .

تتجلى رحمة الله تعالى ولطفه في عفوه في دار الآخرة ومضاعفته للحسنات وصفحه عن عباده المسيئين ، فمن يدخل الجنة يخلد فيها أبداً ، أما من يدخل النار فلا يخلد فيها إلا بعض الذين خبثت سريرتهم واستحقوا اللعنة وسوء الدار ، وقد تشمل رحمته تعالى كثيراً ممن يدخلون النار فينقلون فيها بعد أن يتطهروا من آثام معاصيهم إلى حيث رحمة الله تعالى الواسعة وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في الآية الشريفة ﴿ **الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون** ﴾[2] .

وفي قوله تعالى : ﴿ **من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزىٰ إلا مثلها** ﴾[3] .

إذن فكل عمل خير أو شر ينال جزاؤه في الآخرة ، إما بتجسم الأعمال أو بالمكافأة عليه طبقاً لشدة أو ضعف أو قلة أو كثرة الأعمال وحسب نوع الثواب أو العقاب . ونوضح أقسام الناس بالنسبة للجزاء بتفصيل أكثر مما ذكرناه سابقاً فنقول :

---

(١) سورة النساء، الآية: ٤٠.
(٢) سورة المؤمنون، الآية: ١١.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٦٠.

أما جماعة الهالكين فأولئك الذين لم يؤمنوا في الحياة الدنيا وليس في قلوبهم سوىٰ الأعمال السيئة وتسمىٰ عقوبة هؤلاء بالهلاك ، لأنهم إذا هلكوا في الدار الدنيا انقطعوا عن كل شيء وكان عذابهم في الدار الآخرة الخلود في النار ، ولا أمل لهم أبداً بالنجاة . وهم عبارة عن الكفار والمنافقين الذين حرموا أنفسهم من معرفة التوحيد أو الإخلاص كما في الآية الكريمة ﴿ **يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا أنظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب** ﴾[1] .

وأما المعذبون فهم الذين زرعوا بذرة المعرفة في قلوبهم ولكنهم ارتكبوا المعاصي ، ويكون عذابهم طبقاً لما اقترفوا من إثم . فيحاسبون أولاً ثم يلبثون مدة في العذاب حتى إذا ما طهروا من ذنوبهم نقلوا إلى إحدىٰ منازل الجنان كل حسب مقدار إيمانه بالله تعالىٰ وقد أشار تعالى إلى بعض منهم في الآية الكريمة : ﴿ **لابثين فيها أحقاباً** ﴾[2] وتفسر الحقبة بثمانين ألف عام وفي بعض الروايات بثمانين عام وبين أصغر العقوبات وأكبرها أهوال غير متناهية كعبور الصراط المستقيم ، فالبعض يعبرونه كالبرق الخاطف وبعض يعبرونه حبواً ، وفي حساب الأعمال وكشف الأفعال ينالون قسطهم من العذاب إضافة لأهوال ومصائب يوم القيامة ولن يظلم الله تعالى أحداً من عباده ﴿ **وما ربّك بظلّام للعبيد** ﴾[3] ، لأن العذاب يكون موازياً للأعمال التي اقترفوها وخالياً من عنصر الانتقام ، ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً**

---

(١) سورة الحديد، الآية : ١٣ .

(٢) سورة النبأ، الآية : ٢٣ .

(٣) سورة فصلت، الآية : ٤٦ .

يره ﴾[1] وفي بعض الروايات أنهم يلبثون ثلاثمائة ألف عام في العذاب ثم يخرجون منه إلى ما يلائم كل منهم في الجنة .

وأما الناجون فهم المؤمنون الذين عملوا بالواجبات وتركوا المحرمات .

وأما الفائزون فهم أهل التقوىٰ والهوىٰ في دار الحياة الدنيا وهم الذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً وقد جاء في الآية الشريفة **﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾**[2] . فيلبسون لباس الكرامة ، وتكون مساكنهم في أعلىٰ عليين في الجنة . كما أشار القرآن الكريم بقوله تعالى : **﴿ على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين * يطوف عليهم ولدان مخلدون * بأكواب وأباريق وكأس من معين * لا يصدّعون عنها ولا ينزفون * وفاكهة مما يتخيرون * ولحم طير مما يشتهون * وحور عين * كأمثال اللؤلؤ المكنون * جزاءً بما كانوا يعملون * لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً* إلا قيلاً سلاماً سلاماً ﴾**[3] . وليس لدينا معرفة تفصيلية كافية بعوالم الآخرة لنعطيها حقها من التعبير فلا تتعدىٰ معرفتنا على الإجمال ما ذكرته الآيات القرآنية الكريمة وما ادخره سبحانه وتعالى أكبر وأعظم وقد قال سبحانه : **﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾**[4] ، وقال أيضاً **﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾**[5] . وجاء في الحديث القدسي « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر علىٰ قلب بشر » . ولأننا لم نصل إلى تلك الطائفة المنعمة ولم نتعرف عليها ولا على نعيمها الذي

---

(١) سورة الزلزلة، الآيات: ٧ ـ ٨ .
(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٣ .
(٣) سورة الواقعة، الآيات: ١٥ إلى ٢٦ .
(٤) سورة التوبة، الآية: ٧٢.
(٥) سورة السجدة، الآية: ١٧ .

تتقلب فيه ، لذلك فإننا لا نستطيع تصور تلك اللذائذ والنعم التي أغدقها عليهم ربهم . ويقابلهم أولئك الذين تبوّأوا مقعدهم من النار بسبب معاصيهم والذين ينالون عقاباً لم تره عين ولم تسمع به أذن ولم يخطر على ذهن بشر والحرمان من كرامة الله تعالى أشد عند أوليائه لذا نرىٰ أمير المؤمنين علياً (ع) يفزع ويجزع في مناجاته قائلاً « فهبني يا إلهي وسيدي ومولاي وربي صبرتُ على عذابك فكيف أصبر عن النظر إلى كرامتك » .

فالإمام علي (ع) يرىٰ أن الحرمان من النظر إلى الكرامة الإلهية أشد من العذاب فهو لا يصبر على الفراق وإن صبر على العذاب ولذّة الوصال المشوب بالشوق العظيم بعد الفراق الطويل لا يعرفها إلا أهلها الذين يعيشونها ويعانونها ، وهم يرونها بقلوبهم الطاهرة السليمة وبالمعرفة الحقّة . ومن الألطاف الالهية أنه تعالى مَنّ علينا في يوم الجزاء بالفضل والعفو والشفاعة التي جعلها بإذنه لمن ارتضىٰ من عباده كرسول الله (ص) وأهل البيت (ع) وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله تعالىٰ : ﴿ **من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه** ﴾[1] .

وعلى الإنسان أن يراقب نفسه دائماً وأن لا يغفل عنها ولا يطمئن إلى حسن عمله وقد ورد عن الرسول الأكرم (ص) أنه قال : « على النفس أن لا تطمئن على حسن عملها . فقيل : وحتى أنت يا رسول الله ؟ قال : وحتىٰ أنا » . والآية ﴿ **ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين** ﴾[2] . وكل شيء بيد الله تعالىٰ ورحمته وسعت كل شيء ، والعبد الصالح من يعيش بين الرجاء والخوف ويسأل الله

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٦٥.

تعالى أن يثبّته بالقول الثابت . وفي الرواية : « أن المرء يقضي من عمره سبعين عاماً ولم يبق له منه إلا مدة حلبتي ناقة يُصنف إما من أهل الجنة أو النار » ، وموجبات العفو والمغفرة خفية مجهولة ، فلذلك على الإنسان أن يكون على حذر وهلع من الذنوب والشبهات والجزاء على شكلين :

١ ـ الاستحقاق .

٢ ـ جزاء التفضل .

نستطيع إدراك شيء ما من الجزاء الاستحقاقي ، وأما الجزاء التفضيلي فإنّا لا نستطيع فهمه ، وهو الذي يمن الله سبحانه به على عباده ، ويناله بعض من العباد الذين يقصر بهم عملهم عن الوصول إلى الجنة فتشملهم رحمته تعالى تفضلاً فيدخلون الجنة . وهناك كتابان كتاب العليين قال تعالىٰ : ﴿ **إن كتاب الأبرار لفي عليين * وما أدراك ما عليون * كتاب مرقوم * يشهده المقربون** ﴾[1] وكتاب سجّين * قال تعالى : ﴿ **كلا إن كتاب الفجار لفي سجّين * وما أدراك ما سجّين * كتاب مرقوم** ﴾[2] .

الخواطر القلبية تنقسم إلى قسمين :

الأول ـ الخواطر القلبية القابلة للزوال والتي يمكن إزالتها عن القلب بسرعة .

الثاني ـ الخواطر القلبية الراسخة والتي لا يمكن محوها بأي وجه من الوجوه وتنطبع على القلب كالحروف المطبعية على الورقة . وهذا القسم من الخواطر يسمىٰ بالملكات ، ويمكن القول أن الكتاب الذي يعطى في أيدينا يوم القيامة هو من الملكات وليست من حالات الوهم أو التصور .

---

(١) سورة المطففين، الآيات: ١٨ إلى ٢١.
(٢) سورة المطففين، الآيات: ٧ إلى ٩.

ونستطيع القول أيضاً أن الحسنات تكون في كتاب عليين والسيئات في كتاب سجين . وما بين خطي العمل والجزاء هو عبارة عن الحالات في الروح وأمرها خفي لا يطلع عليه الإنسان . وسمي « القلب » بذلك لأنه خاضع للتغير والتقلب دائماً يعني ذلك أن خواطر الخير تمر عليه وتترك أثرها فيه وخواطر البشر كذلك ، ولأن الإنسان يسير حثيثاً في حياته ، فإنه لا يعرف أياً من الحسنات ثبتت وأياً من السيئات إنمحت ، ولأنه جاهل بعاقبة أعماله فإنه سيشعر بالخوف والهلع تجاه المصير المجهول . والأعمال التي تصلح لأن يتقرب بها العبد إلى الله تعالىٰ هي التي تنبع من أعماق الروح وحضور القلب فالصلاة بلا حضور كالجسد بلا روح لا تصلح للتقرب ولا تكون معراجاً للإنسان إلى بارئه تعالىٰ ، والخواطر والهواجس القلبية لها تأثير بالغ علىٰ القلب سلباً أو إيجاباً وهي على ثلاثة أقسام :

١ ـ الهواجس الخارجة عن الاختيار .

٢ ـ الأعمال الصادرة عن الروح الملوثة بالذنوب .

٣ ـ ما يصدر من سلوك أصله الدوافع والملكات الغريزية ويكون جزاؤه مطابقاً له .

● الأمر السابع في التوبة ـ في الأمور التي تجعل الصغائر كبائر ـ وهي ست مراتب ـ :

أولاها : (الإصرار) ، فالإصرار يجعل من المعصية الصغيرة كبيرة ، ويمكن أن نتصور أن المعصية الصغيرة قد تصبح أكبر من المعصية الكبيرة حيث أننا قلنا سابقاً ان المعصية التي يكون أثرها في القلب أكثر تكون أكبر ، وكلما كان أثرها أقل كانت صغيرة .

مثال ـ فلنفرض أنّا ملأنا وعاءً بالماء ثم أرقناه دفعة واحدة علىٰ الأرض

فإنه لن يترك أثراً ملموساً عليها ويزول بسرعة ، ولكننا لو جعلناه يقطر عليها قطرة قطرة من علٍ فسوف يترك أثراً ليّناً فيها . ولهذا الاعتبار فإن الشارع المقدس قد أنزل بعض الفرائض على البشر تدريجاً ، فمثلاً فرض الصلاة خمس مرات يومياً ولم يجعلها فرضاً واحداً يؤدى مرة واحدة في اليوم ، لأن أثرها لن ينغرس في القلب . إذن فإدامة اقتراف الصغائر بما يصيّرها كبائر وقد ورد في الأخبار « عمل قليل دائم خير من كثير منقطع » ، وفي تعريف العدالة قالوا هي عبارة عن ترك الكبائر وعدم الإصرار على الصغائر .

ثانيتها : استصغار الذنوب ، ورد في الرواية : « لا تستصغروا الذنوب » بل انظروا أي الذنوب يصدر عن الإرادة وأيها كان عن استصغار وتهاون فيها .

ويروي زيد الشحام في أصول الكافي عن الإمام الصادق (ع) قوله : « اتقوا المحقرات فإنها لا تغفر . قلت : وما المحقرات ؟ قال : الرجل يذنب فيقول طوبىٰ لي لو لم يكن غير ذلك » .

وعن الإمام موسىٰ الكاظم (ع) : « لا تستكثروا الخير » ، ويشير لهذا المعنىٰ قوله تعالى : **﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً * الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ﴾**[1] . وقال الإمام موسىٰ بن جعفر (ع) : « ولا تستقلوا قليل الذنوب فإن قليل الذنوب تجتمع حتىٰ تكون كثيراً » . كما أن سعادة الإنسان تكون بالقرب من الله تعالى ، فكلما اقترب الإنسان من الله أكثر رآه أعظم شعر باستصغار نفسه وازداد خضوعه وخشوعه لله وعرف أن الله مطّلع عليه ولا تخفىٰ عليه **﴿ مثقال ذرة ﴾** ويعمل على إصلاح نفسه .

(١) سورة الكهف، الآيات: ١٠٣ ـ ١٠٤ .

● منزلة العبودية :

« العبـوديـة جـوهـرة كنهها الـربـوبيـة » فعبـوديـة العباد شجـرة ثمـرتهـا الـربـوبيـة . والآثـار الإلهيـة تكـون واضحة على العبـد وتنكشـف أسمـاء الله الحسنىٰ له ، وهذا المقام يكون أعلى مرتبة من مرتبة الرسالة فنحن نقول في التشهد « أشهد أن محمداً عبده ورسوله » .

هنا قد تقدمت منزلة العبودية على منزلة الرسالة فكيف يستسيغ العبد الذي نال هذا الشرف الاستهانة بالصغائر ؟ أليس هذا استصغاراً للمالك ؟ فالصغيرة مع الإصرار والمعرفة والانتباه الواعي تعتبر من أكبر المعاصي .

الأمر الثالث (عدم الاكتراث بالصغائر) :

ويعني ذلك أن يكون الإنسان مسروراً لمعصيته الصغيرة ، كأن يفرح عندما يتغلب على مجادله . وتلك الغلبة تدعوه للاستخفاف بالطرف المقابل ، إذن فقد أدّىٰ كسب المجادلة إلى الحرام ، فهذا الصغائر إلا أن السرور بها يعد ذنباً كبيراً .

إنّ الإصرار على المعصية يخلف في القلب آثاراً مدمرة ، وأما الندم عليها فإنه يجعلها تتضاءل وربما تتلاشىٰ من صفحة الروح أبداً .

الأمر الرابع : إنشاء المعصية :

وهو إظهار المعصية والتحدث بها أمام الناس . فتتحول من معصية صغيرة إلى معصية كبيرة ، كبعض الجهلة الذين يرتكبون المعاصي الشنيعة ثم يتبجحون بها أمام أصدقائهم .

الأمر الخامس :

تشجيع الآخرين على ارتكاب المعصية ، خصوصاً بالنسبة لمن يتمتعون بثقة الناس وبحسن الظاهر فعندما يرتكب مثل هذا معصية فإن الآخرين سوف يتهاونون في الوقوع فيها ، ولذا فإن العالم السيّىء تكون معصيته أكبر من الجاهل السيّىء ، نظراً لأنه سيكون مدعاة لاقتداء الناس به فيكون سبباً في إضلالهم أو أنه يتظاهر بالصلاح وأن ما يمارسه مباح فسوف يكون ضالاً ومضلاً ، لذا فإن العالم يكون أشد عقاباً عند الزلل من الجاهل وأعظم ثواباً من الجاهل عند الاستقامة .

الأمر السادس : الاستهانة بستر الله تعالى :

وهو من الأمور التي تحول المعصية الصغيرة إلى كبيرة فالتهاون بالمعصية واستصغارها له آثار سلبية على مستوىٰ الفرد والمجتمع وستر السيئات نعمة إلهية عظيمة حتى لا تشيع المعصية في المجتمع فلو انكشفت سرائر بعضنا لبعض لنفر بعضنا من بعض وتحطم المجتمع وأصبحت الحياة لا تطاق .

الأمر الثامن : في حقيقة التوبة :

بحثنا في الأمر الأول حقيقة التوبة، وقلنا: إن حقيقة التوبة أن تتولد بصورة فورية بعد ارتكاب الذنب وتكون موجبة للعمل. والذي نريد قوله الآن : هو أن البحوث العلمية حول هذا الموضوع كثيرة، ولكن نوجزها باختصار، فنقول: هنالك ثلاثة أشياء:

١ ـ العلم.   ٢ ـ الحال.   ٣ ـ العمل .

هذه الأمور تعني التوبة بنظر بعض وبنظر آخرين أن التوبة هي العمل

فقط ، وآخرون يعتبرون التوبة هي الحال فقط .

إن التوبة الفورية إذا تولدت من العلم ثم وَلّدت عملاً ستكون توبة حقيقية .

ولا بد أن نعلم أن صحة الروح بالطاعة ومرضها بالمعصية ، وأن علاج المرض بمضاده كما هو شأن الأمراض البدنية التي تعالج بمضاداتها . فالمريض الذي ارتفعت عنده الحمىٰ يعطىٰ علاجاً يؤثر في انخفاض الحمىٰ ذا تأثير بارد ، كذلك فإن الروح تعالج بما يضاد مرضها ومن الأسباب الأساسية لمرض الروح الغفلة والجهل والشهوة . فعلاج الغفلة بالوعي والمعرفة والتعلم وعلاج الشهوة بالصبر والإيمان . فالصبر يقف حائلاً منيعاً ويمسك بقياد النفس وزحامها ويردعها عن المعاصي . وعلاج كل مرض من سنخه فمن يأكل أموال الناس بالباطل لن تنفعه صلاة الليل لغرض التحلل منها إنما التوبة تتم بإرجاع الأموال إلى أصحابها كمن يشعر بالصداع في رأسه فإنه لن ينتفع بدواء للمعدة أو القلب مثلاً ، لذا فإن الأمراض الروحية ينفعها العلاج الملائم بها ، فمن ترك صيام شهر رمضان لم ينتفع إلا بقضاء ما فاته من صيام فلو صلىٰ بدلاً عن الصوم لم تبرأ ذمته وهكذا .

إن الأمراض الروحية أخطر من الأمراض الجسمية وذلك :

أولاً : لأن الإحساس بالمرض الجسماني أسرع كثيراً من اكتشاف المرض الروحي ، وهذا منشؤه الغلاف الذي تتوشحه الروح ، ولكي يعلم الإنسان بعيوب روحه عليه أن ينظر إلى المرآة ، وهي عبارة عن الروح العالمة .

ثانياً : تعذر المتخصصين في علاج الأمراض الروحية أو تشخيص العلة الحقيقية ولعله يجد المعالج أشد مرضاً منه فيتصور أن الطريق مغلق

بوجهه . ويمكن تحصيل العلاج بالاتكال على الله تعالىٰ ورجائه في استحصال الشفاء ، والالتفات إلى توابع الأمراض للعثور على مناشئها ، كما يمكن الاستعانة بالآخرين ، كما قال الرسول الأكرم (ص) : « المؤمن مرآة المؤمن » وهذه طرق مجدية ونافعة مهما كانت شاقّة .

والندم والتحسر على ما اقترف من عمل قبيح وأن يكون صادقاً في ندمه وأن يعزم على أن لا يعود لمثل ذلك العمل فتتحقق منه التوبة بعد أداء ما عليه كإرجاع الأموال أو التحلل من الآخرين . وحصول الجزع والألم من المعاصي التي تاب منها علامة من علامات الصدق في التوبة .

يدور بين العلماء بحث في التوبة فهل يتوب الإنسان عن كل ذنب بخصوصه أم أنها توبة واحدة عن كلّ المعاصي ؟ بعض المحققين يذكر أن ترك المعصية لوحده لا يعتبر توبة ، ما لم يقترن بالندم على ما فعل ويشعر بأن المعاصي تحجبه عن الوصول إلى السعادة الإلهية ، وإن ترك المعصية لأسباب العجز أو لأغراض مادية أخرىٰ فلا تعتبر توبة بالمعنىٰ الشرعي .

أما العمل الصادق فهو ذو ثلاث شعب ، أولها حفظ النفس وردعها عن المعصية أثناء العمل فإذا توفرت للشخص حالة التوبة عن العمل السيّىء وتسمىٰ « العمل الحالي » . ثانيها : العزم والتصميم على ترك ذلك العمل ، وتسمىٰ « بالعمل المقبل » . ثالثها : الأعمال الماضية وهي تدارك ما فات وجبرانه . ونقول باختصار أن جميع المعاصي لا تخلو من ثلاثة حقوق : أولها حق الله ، وثانيها حق الناس ، وثالثها اجتماع حقوق الله وحق الناس .

أما حق الله تعالى فهو على قسمين :

١ ـ المعاصي التي ليس لها ما بإزائها فالتوبة عنها تكون بالإعراض عنها والندم على فعلها والتقرب إلى الله تعالى لمحو الحالة الكدرة في النفس

كشرب الخمر مثلاً كما ورد عن الرسول الأكرم (ص) « أتبع السيئة بالحسنة تمحها » .

٢ ـ الأعمال التي يمكن تداركها عن طريق القضاء كالصلاة والصيام فعليه قضاء كل ما فاته منهما حتى تتحقق لديه التوبة ، وإلا فإن مجرد تكرار قوله : أستغفر الله ربي وأتوب إليه لن ينفع .

وأما بالنسبة لحق الناس فإنه أيضاً ينقسم إلى قسمين ، إما حق مالي ، أو حق غير مالي . أما الحق المالي كالخمس والزكاة والديون وغيرها .

وأما بالنسبة للحقوق غير المالية كالغيبة والتهمة . فالتوبة من الغيبة باستحصال براءة الذمة من صاحبها إن وصلت إلى مسامعه أو الاستغفار له وعدم العودة لمثل ذلك أبداً ، وأن يبقىٰ على وجل مما حصل منه . أما التهمة فتحتاج إلى جهد أصعب في التحلل منها فإن ذكرها في جمع سعىٰ لنقضها أمامهم ، وإلا فإن الأمر عسير والتهاون خطير وأن يعزم على أن لا يعود إلى ذلك أبداً حتى بالتعريض بالآخرين كأن يقول : الحمد لله إني لست ممن كان يعمل كذا ، ويقصد من ذلك التعريض بالآخرين ﴿ **ومن يتوكل على الله فهو حسبه** ﴾[1] وأن نسعىٰ ولا يصبنا اليأس فإنه من الكبائر .

ويقسم التائبون إلى أربعة أقسام :

١ ـ أصحاب النفوس المطمئنة : وهم العباد الذين أغلقوا باب المعاصي وعاهدوا الله تعالى على أن لا يقترفوا معاصي مقبلة ، ولكن حياة البشر لا تخلو من اللمم كما قالت الآية الكريمة ﴿ **الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم** ﴾[2] وهم على قسمين :

(١) سورة الطلاق، الآية: ٣.
(٢) سورة النجم، الآية: ٣٢.

آ ـ الذين وصلوا إلى درجة النقاء والطهارة بواسطة الصبر والتحمل والمغالبة والجهاد الأكبر ، الذين زهدوا في الحياة الدنيا .

ب ـ الذين لم يزالوا في ميدان الجهاد الأكبر ولكن عدوهم يتربص بهم حالة الغفلة لكي تحيل موقعاً جديداً من أنفسهم ، فالحذر من الغفلة والكسل لازم لأمثالهم .

فنزعات النفس الشريرة لا تموت ولا تتلاشىٰ بل إنها في انتظار الفرصة ، لذا فإن الشخص مثلاً يفني دهراً من عمره في عمل الخير ثم يتبين في لحظة واحدة أن كل ما عمله لم يكن كما ينبغي ، وأنه مشمول بالآية الشريفة : ﴿ **الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً** ﴾[1] .

٢ ـ أصحاب النفس اللوّامة : وهم التائبون الذين غلبتهم شهواتهم فصدرت المعصية منهم لذلك ، ولكنهم خائفون ونادمون أثناء العمل وبعد المعصية يتوبون عنها ويؤكدون العزم على تركها ويتداركون ما فات منها . وهؤلاء يأتون بالمرتبة الثانية بعد المرتبة الأولىٰ السالفة الذكر فكأن قلوبهم قد شطرت شطرين ، خوفاً من الماضي وخشية من الآتي ، يقول علماء النفس : إن الروح تجعل من الجسد مركباً لها ، لأن الروح لا تستطيع العمل أو ممارسة نشاطها إلا بهذا الجسد ، مثلها كمثل النجار الذي لا يملك أدوات النجارة ، فإنه لا يستطيع عمل شيء يذكر . فمن كان صالحاً ختم عمله بخير وقد جاء في الحديث : « من كان آخر كلمته لا إله إلا الله وجبت له الجنة » .

ولانتزاع الروح من البدن صور عديدة فمن تنتزع روحه بسهولة

(١) سورة الكهف، الآية: ١٠٤ .

كالشهيد الذي يقتل في سبيل الله تعالى أو موت المرأة في النفاس فلها أجر كالشهيد ومنهم من تنتزع روحه بشدة وألم والشهادة تعني المشاهدة والحضور وهي درجة رفيعة يهبها الله تعالى لمن يشاء من عباده الذين قدموا أرواحهم في سبيل العقيدة والمبدأ الحق ، وأصحاب النفوس اللوامة يمكن أن يرتفعوا إلى هذا المقام أو يرتفعوا إلى منزلة أصحاب النفوس المطمئنة بعد جهد وجهاد .

والقسم الثالث : (أصحاب النفس المسوفة والمسولة) وفي الرواية (أكثر أهل جهنم أهل التسويف) وهم الذين يؤخرون توبتهم ، مع أنهم يشعرون بالذنب والمعصية ويندمون عليها ، إلا أن عدم توبتهم عن قريب ستكون سبباً في تماديهم ويتحولون إلى حالة أخرىٰ فيتملكهم السرور بالمعصية وسبب تسميتهم بالتسويف لأنهم يقولون سوف نتوب ولا يتوجهون إلى التوبة مباشرة فيقعون في شراك حبائل الشيطان ويموتون على حالة المعصية وهذا من الآثار السلبية لطول الأمل ولنا في رسول الله (ص) إسوةٍ حسنة ، حيث كان يقول ما معناه : في كل غمضة عين لي لا أنتظر أن أعود وأفتحها .

القسم الرابع : الذين عملوا الصالحات في بداية حياتهم ، ثم انقلبوا علىٰ أعقابهم وانغمسوا في الشهوات . فهؤلاء هم أصحاب النفس الأمّارة بالسوء والتي ذكرها الله تعالى في كتابه العزيز ﴿ **إن النفس لأمّارة بالسوء إلا ما رحم ربي** ﴾[1] .

هذه المجموعة معاكسة تماماً للمجموعة الأولى من التائبين ، وبعيدة بمراتب عن المجموعتين الثانية والثالثة ، فلذلك يكون أمرها وخيماً ،

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٥٣ .

فنعوذ بالله أن نكون من هذه المجموعة .

وإلى هذا الحد من البحث في « التوبة الحاليّة » نفهم أن العمل يكون مترتباً عليها . وعليك أن تتعلم كيف تعثر على حالة الندم وبأي دواء تعالج مرضك ولا بد من تعميقها في القلب كي تترك أثراً إيجابياً في أعماق الروح وفي تهذيب النفس . إلا أن الإنسان البصير هو الذي يتعب نفسه في دنياه كي يرتاح في أخراه ، ويخرج من هذه الدنيا طاهراً نقياً ولا بد من الإشارة إلى أن مجالسة العلماء والتزود منهم له بالغ الأثر في حياتنا ، فقد ورد في الحديث « أن النظر إلى وجه العالم عبادة » ومعناه الحثّ علىٰ مجالستهم والتزوّد منهم والاقتداء بسيرتهم والابتعاد عن مجالس اللهو والبطالين فإنها ثغرات للشيطان عدونا الذي حذّرنا الله تعالى منه حيث قال جلّ وعلا : ﴿ **ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا** ﴾[1] ومما ورد من الحديث القائل « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يشرب الشارب حين يشرب وهو مؤمن » حيث أن الإيمان يحجب الإنسان عن الوقوع في المعصية ، لذا فإنه حينما يرتكب المعصية يسلب منه الإيمان وإن عاوده فيما بعد إلا أنه على قدر ضعيف . ولارتكاب المعاصي أسباب أخرى غير ضعف الإيمان منها :

أولها : الشعور بلذة المعصية الآنية والتغافل عن الجزاء الأخروي الذي يراه بعيداً وربما يستدرجه الشيطان بمكائده وفي النتيجة فإنه يتعجل نيل اللذة وكما أقدم عمرو بن سعد على قتل الحسين (ع) وهو يعلم بمنزلته وخسر بعد ذلك الدنيا والآخرة .

ثانيها : النفس المسوفة التي سبق ذكرها .

ثالثها : الأمل بالعفو من الله تعالىٰ ، بدون الاستعداد للقائه تعالى

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٦.

ودون الارتداع عن المعصية .

ولكن أياً من تلك الأسباب ليس موجباً لسلب الايمان كله بل أن روح الإيمان ستسلب منه أثناء ارتكاب المعصية ، لأن مثل هذه المعصية وظروفها لا تجتمع مع الايمان .

أما الأول : وهو الالتذاذ بالمعصية ونسيان الجزاء المترتّب عليها فيمكن علاجه بالتفكير في عواقب الأمور فقد ورد (فكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة) فتفكر ساعة بحصافة خير من عبادة سبعين عاماً بصورة غير واعية . والعقل يقول : إن اللذائذ والمنافع في الدنيا محدودة وزائلة ، ولكن مضارها خالدة ، وتكون نتيجتها وخيمة حيث العذاب الأخروي وعندما يفكر الإنسان بجدية ينتهي إلى نتيجة إيجابية يرتدع على أثرها عن اقتراف المعصية التي تبقىٰ تبعاتها تلاحقه وتسلب منه الإيمان وتسمح لعدوه الشيطان أن يتلاعب به حيث يشاء ، عندما تغلبه عواطفه وأهواؤه فيقع في المعصية ، وطرد تلك الأهواء بالتفكير والتعقل والتأمل الصحيح وغلق مسارب الشيطان .

وخلاصة ذلك أن بعض العلماء والمحققين في هذا المجال قالوا بإمكان اجتماع المعصية والإيمان بدليل النقل والعقل ، وأنكر ذلك آخرون ، لأن الشخص إذا كان يعلم بأن المعصية ستمنعه من الوصول إلى السعادة الأبدية فكيف يقترفها ؟ أليس هو عارفاً بالسعادة الأبدية ، وهي عبارة عن سلب الإيمان ؟ فلا يمكن أن يجتمع الإيمان مع المعصية .

والقائلون لإمكانية الجمع بينهما مستندهم في ذلك العقل والنقل . أما عن طريق النقل فالآيات والأخبار الكثيرة الواردة تدل على إمكان صدور المعصية حال الإيمان . وهنالك أسباب عديدة للجمع بين المعصية

والإيمـان ، أولهـا اللـذة العـاجلـة والضـرر الآجـل ، فـإن كـان الشخص يـرىٰ الضرر أثناء المعصية فإنه سوف لن يقترفها . وربما يكون هذا الكلام باطلاً ، نظراً لأن مستقبل كل امرىءٍ هو مثل ماضيه الذي لم تبق منه إلا الذكريات أما اللذائذ فهي مؤقتة بحينها . إن أعمال الإنسان يوم القيامة تعرض عليه وكأنها تحدث في تلك اللحظة فنقول : إن الشخص الذي يرىٰ مستقبله بهذا الشكل من الوضوح عليه أن يتحرز بشدة عن المعصية . إن يوم القيامة قريب حسب الآية الشريفة ﴿ **اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون** ﴾[1] . وإن على العاقل أن يرىٰ هل أن الضرر المقبل أكثر أم النفع الحالي الآني .

الثالث : أن يعد نفسه بالتوبة بعد اقتراف المعصية . وهذه الحالة غير إيمانية كذلك ، نظراً لأنه يعتقد بضرر المعصية فيعد نفسه بالتوبة ولا يبادر إليها مباشرة ، ولربما لن ينال الفرصة للتوبة فيموت وهو محمل بالمعاصي والذنوب .

ثانياً : إن التسويف بالتوبة سوف يشكل مانعاً وحاجباً يحجب الإنسان عن التوبة نتيجة تراكم المعاصي التي تحجب النور ، وهي أشبه بالأشواك التي تحيط بالنبتة اليافعة ، فإن لم تقتلع مباشرة فإنها ستأتي على تلك النبتة وتقضي عليها .

ثـالثهـا : أن ارتكـاب المعصيـة نفسـه يكـون بـاعثـاً علـى الامتنـاع عـن التوبة ، فالذنب يجلب الذنب وترك التوبة معصية أخرىٰ .

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١ .

الفصل الثاني

ـ في الصبر ـ

نحتاج لعدة أمور لتوضيح الصبر :

الأول : فضيلة الصبر والصابر .

الثاني ـ ماهية الصبر وحقيقته .

الثالث : في بيان أن الصبر نصف الإيمان .

الرابع : في أقسام الصبر من حيث الشدة والضعف .

الخامس : في بيان اختلاف الصبر حسب توابعه من الطاعة والمعصية ، أو الغنىٰ والفقر أو السرَّاء والضرّاء .

السادس : مواضع أعمال الصبر .

السابع : كيفية الحصول على صفة الصبر .

● **فضيلة الصبر :**

ورد في الآيات والأخبار أن الأشياء التي يدركها العقل علىٰ ثلاث

صفات :

١ ـ صفات الخير المحمودة .
٢ ـ صفات الشر المذمومة .
٣ ـ الصفات المحايدة التي ليست بمحمودة ولا مذمومة .

وقد ورد في فضيلة الصبر والصابر آيات من القرآن الكريم تقرب من ثمانين آية ، منها قوله تعالى ﴿ **وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون** ﴾[١] وقوله تعالى ﴿ **ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** ﴾[٢] وقوله : ﴿ **أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا** ﴾[٣] وقوله : ﴿ **إنما يوفىٰ الصابرون أجرهم بغير حساب** ﴾[٤] ، أما من جهة الروايات والأخبار الواردة في هذا الشأن فإنها كثيرة نذكر بعضاً منها :

من جملة ذلك الرواية القائلة « الصبر نصف الإيمان » وسيأتي شرحه في ما بعد ، والرواية الأخرى في ـ أصول الكافي ـ « من أفضل ما أُوتيتم اليقين وعزيمة الصبر » وقوله « ومن أعطي حظه منها لم يبال ما فاته من قيام الليل وصيام النهار ولئن تصبروا على ما أنتم عليه أحب من أن يوافيني كل امرء منكم بمثل عمل جميعكم ، ولكني أخاف أن يفتح عليكم الدنيا بعدي فينكر بعضكم بعضاً ، وينكركم أهل السماء عند ذلك ، فمن صبر واحتسب ظفر بكمال ثوابه . ثم قرأ : ﴿ **ما عندكم ينفد وما عند الله باقٍ** ﴾[٥] .

---

(١) سورة السجدة، الآية: ٢٤.
(٢) سورة النحل، الآية: ٩٦.
(٣) سورة القصص، الآية: ٥٤.
(٤) سورة الزمر، الآية: ١٠.
(٥) سورة النحل، الآية: ٩٦.

ورواية أخرىٰ مفادها أن العبد حين يلقىٰ في قبره تكون الصلاة عن يمينه والزكاة عن يساره وإحسانه بوالديه يظلل رأسه ، أما الصبر فإنه يجلس في أحد الأركان ويقول : اعملوا ما بوسعكم من أجله فإن نفعتموه ، فنعم المطلوب وإلا فإني سأقوم بوظيفتي .

● الثاني : معنىٰ الصبر :

قدمنا أن الموجودات المدركة تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

١ ـ الملائكة ، ٢ ـ البهائم ، ٣ ـ الإنسان . فالمخلوقات الثلاثة السالفة الذكر ذات إدراك وشعور ، ويتميز الإنسان عنهما بامتلاكه الصبر لحاجته إليه واستغنائها عنه . وسبق القول : إن الإنسان يولد وفي فطرته قوّتا الشهوة والغضب ، وتكون قوة العقل كامنة ، ثم تنمو رويداً رويداً حتى تصل إلى حد التميز والرشد ، فالقوة العاقلة تظهر بالتدريج ، وهي عبارة عن قوة تعمل على توجيه الفرد إلى طريق الخير وتجنبه الشر .

فالغرائز تجذب الإنسان إلى الانحراف وإشباعها بأي وسيلة ، والقوة العقلية تقف حيال تلك الغرائز لتدفع الإنسان نحو الخير والهدىٰ ، وتمنحه الصبر وتعطيه الأسلوب الناجح لتوجيه وتهذيب الغرائز ومنحه الاستقامة التي هي أسمىٰ منزلة وقد أشار القرآن الكريم لذلك حيث قال تعالى : ﴿ **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألاّ تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون** ﴾[1] .

إن أفضل أنواع الصبر ما يعصم الإنسان من الوقوع في المعصية ، فالصبر عبارة عن ثبات القوة العاقلة بوجه قوتي الشهوة والغضب .

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٠.

٣ ـ في بيان « الصبر نصف الإيمان»

تقدم علماء الأخلاق بتفسيرين لتوضيح هذه الرواية ، ومن أجل توضيح ذلك نحتاج إلى مقدمة في معنىٰ الإيمان وماهيته . فالإيمان يطلق علىٰ ثلاثة أشياء :

١ ـ جملة من الاعتقادات والتصديقات القلبية كالإيمان بالله ومعرفة صفاته ومعرفة الأنبياء والاعتقاد بالمعاد .

٢ ـ الأعمال المترتبة على تلك الاعتقادات كالصلاة والصيام والخمس والزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحج والجهاد .

٣ ـ وبمجموع الأمرين السابقين يكون الإيمان اعتقاداً بالجِنان (القلب) وإقراراً باللسان وعملاً بالأركان .

إن الصبر عبارة عن الثبات ورسوخ القدم في مقام العمل ضد قوىٰ الهوىٰ ، ولهذا قال (ع) : « الصبر نصف الإيمان » ، وفي رواية أخرىٰ : الصوم نصف الصبر ، نظراً إلى ما نلمسه من أن الصوم يحدّ من الشهوة ويلجمها . ولكنه لا يفعل ذلك مع الغضب ، وبهذا الدليل يكون الصوم نصف الصبر . إذن يمكن أن نقول : أن الصيام ربع الإيمان . ويمكن أن نقول : إن هنالك حالتين للعمل لدىٰ الإنسان ، إما عمل موافق لميله وطبعه ، أو عمل مخالف لهما ، مثال ذلك أن الشخص المريض أحياناً يعالج بعلاج يرغبه ويحبه فيتلذذ بطعمه ويشفي علّته في الوقت نفسه وتارة أخرىٰ يُعالج بعلاج لا يرغبه ولا يحبه ولا يلتذ بطعمه إلا أنه يشفي علته والفرق كبير بين هذين العلاجين . والصبر عبارة عن الثبات في مقام العمل المخالف للهوىٰ ، إذن فهو نصف الإيمان ، وبهذا المعنىٰ تصبح رواية (الصبر نصف الإيمان) صحيحة . وهناك رواية أخرى عن

رسول الله (ص) « قيل : ما هو الإيمان ؟ قال : الصبر هو الإيمان) . إذاً فقد اختلفت هذه الرواية عن سابقتها ، ومن لم يكن لديه اطّلاع على مثل هذه الأمور فهو إمّا سيردهما معاً أو يرد واحدة منهما ، ولكن نحن نقول أنهما صحيحتان معاً . فلقد أوضحنا معنىٰ الصبر نصف الإيمان سابقاً . أما الرواية القائلة : « إن الصبر هو الإيمان » فنقول : إن الإيمان عبارة عن شعبتين ، علمي وعملي . أما العلمي فهو عبارة عن الاعتقادات ، وأما العملي فهو عبارة عن الصبر على أداء الطاعات والانتهاء عن المنكرات .

ويقسم العملي إلى قسمين :

الأول : الصبر على أداء الطاعات كالصلاة في الليالي الباردة والصوم في الأيام الحارّة ومثل هذا العمل يحتاج إلى الصبر على تحمل المشقّة والمعاناة الجسدية والنفسية .

الثاني : الصبر على تحمل تبعات المرض والأذىٰ والمشقة وما هو من هذا القبيل . وكلا النوعين من الصبر مفيد ، ولكنهما لن يصلا إلى مستوىٰ الصبر النفسي . وللصبر النفسي عدة أقسام :

الأول : الاستقامة والثبات قبال ميول الشهوة وتسويلاتها وهذا القسم من الصبر نسميه العفة ، وهي القابلية التي يمتلكها الإنسان لالجام الشهوات (شهوة البطن وشهوة الفرج) . والشره ضد العفّة إذ يفتقد الإنسان الوازع الديني الكافي لكبح جماح الشهوات فتغلبه ويصبح صريعاً لأهوائه وأسيراً لرغباته المنحرفة .

الثاني : الصبر على المكروهات والمصائب ، ففي الروح قوة بواسطتها يستطيع الإنسان بها مقاومة نوائب الدهر وفجائعه . وهذا نوع خاص من الصبر إذا افتقده الإنسان أصابه اليأس والقنوط واعترته حالة

الجزع المفرط .

القسم الثالث : الصبر على النعمة وأن لا يصاب بالغرور والتكبر عندما يكون مقتدراً . وينفعه الصبر في ضبط نفسه وأن لا يصاب بالطغيان والبطر وقد جاء في القرآن الكريم ﴿ **إن الإنسان ليطغىٰ * ان رآه استغنىٰ** ﴾(١) .

الرابع : الصبر عند مواجهة العدو ويسمىٰ عند ذلك بالشجاعة وافتقاد الصبر في المعركة أو عند مواجهة العدو تسمىٰ جبناً .

الخامس : السيطرة على النفس عند الغضب وكظم الغيظ الذي ينشب في أعماقها ، وهذه القوة أو القابلية تسمىٰ « الحلم » ، وفاقدها لا يستطيع كظم غيظه .

السادس : الكتمان وحفظ الأسرار وعدم البوح بها .

السابع : إمتلاك القوة التي تمنع النفس من السعي وراء أطماع الدنيا ، فيتعفف القلب عن متاع الدنيا التي لا ينالها ، وهذه حالة « الزهد » ويسمىٰ صاحبها زاهداً ، وفاقد هذه القوة يكون راغباً في الدنيا فيكون طالباً لها .

الثامن : الصبر على صعوبة العيش وهو القناعة .

إذن لا يمكن أن يكون الإيمان خالياً من هذه الفروع المذكورة ، فرواية « الصبر هو الإيمان » تكون صحيحة على هذا الأساس ، وكذلك رواية « الصبر نصف الإيمان » . والشخص الذي يمتلك تلك الصفات يكون مؤمناً متكاملاً .

وهنالك تقسيم آخر للصبر وهو قياس الصبر بقوة الصابر وله ثلاثة

---

(١) سورة العلق، الآيات: ٦ و ٧.

أقسام :

١ ـ صبر الظافرين : وهو عبارة عن باعث ديني شديد يحطم كل هواجس الهوىٰ وينتصر عليها ، بحيث لا تؤثر فيه ، وهذا مقام شامخ لن يصل إليه إلا القليل ويسمّون بالصديقين .

٢ ـ صبر الهالكين : وهو تغلب دافع الهوىٰ على دافع الدين ، فلا ينفعه دافعه الديني ، وهذا الصبر مخالف تماماً لصبر الظافرين .

٣ ـ الصبر المحايد : وهو الصبر الذي لا غالب فيه ولا مغلوب للدافعين السابقين ، ولعل أحدهما يغلب ويعود الآخر فيغلبه ، وتكون تلك الحرب لا نهاية لها . فعلىٰ الإنسان أن يكون يقظاً فطناً ليتمكن من السيطرة . وبذلك قال رسول الله (ص) : « لكل نفس شيطان يغويها ، قيل : حتى أنت ؟ قال : بلىٰ ، إلا أن شيطاني أسلم على يدي » .

إذن فإن غلب الإنسان شيطانه في الدنيا فإنه سيعبر الصراط في الآخرة وإلا فلا .

وتقسيم آخر للصبر وهو أن الإنسان لا يخلو من ثلاثة أحوال :

الأول : الصبر على أمور لا توافق هواه ولا تخالفه ، وهذا نادر الحدوث للناس .

الثاني : الصبر على أمور توافق ميل المرء وهواه وهو الصبر في السرّاء .

الثالث : الصبر على أمور لا توافق ميل المرء بل تخالفه ، وهو الصبر في الضرّاء .

ولأن الإنسان لا يكون آمناً من الضرّاء والسرّاء حتى لحظة موته فعليه

الصبر حتى تلك اللحظة . وهناك بحثٌ في أنه هل الصبر أكثر مشقة وصعوبة في السَّرّاء أم في الضراء ؟

بناءً على أقوال بعض العلماء : إن الصبر في الضرّاء هو عهد في ذمّة كل عارف لله عليه تحمله وأداؤه ، ولكن الصبر في السرّاء هو صبر الصديقين ، ولا يتهيّأ لكل شخص ، خصوصاً وأن الصبر في أمور توافق الهوىٰ يكلف مشقة أكبر مما يكلفه الصبر في أمور تخالف الهوىٰ ، نظراً لأن الأمور المخالفة للهوىٰ غالباً ما تكون خارجة عن إرادة الإنسان . وبالطبع فالإنسان يحتاج إلى قوة كبيرة وقدرة ليستطيع إلجام تلك الظروف وإخضاعها وذلك لا يتأتى إلا لأصحاب العصمة . لذا يكون الصبر من موقع الإرادة أفضل مما يكون من موقع خارج عن إرادة الشخص .

وأحياناً يكون سلوك الإنسان موافقاً لهواه وموافقاً لرضىٰ الله تعالى ، كما جاء في الرواية أن الرسول (ص) كان جالساً على المنبر عندما دخل الإمام الحسن (ع) المجلس ، وتعثّر بذيل ثوبه ، فسقط على الأرض ، فنزل النبي (ص) من المنبر وأنهضه وهو يتلو هذه الآية الكريمة ﴿ **واعلموا انما أموالكم وأولادكم فتنة** ﴾[1] .

وأما القسم الثاني فهو السلوك المخالف للنفس ، وهذا أيضاً يقسم إلى ثلاثة أقسام :

١ ـ في أمور تكون خاضعة لاختيار الإنسان .

٢ ـ في أمور ليست تحت اختياره حالياً وفيما مضىٰ .

٣ ـ في أمور ليس حدوثها اختيارياً ولكن سلوكه اختياري .

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٨.

أما الأولى فعلىٰ قسمين : إما في الطاعات أو في المعاصي ، ونحتاج إلى الصبر في مثل هذه الأمور ، ويجب أن نمتلك القوة الكافية لحمل عبء الطاعة الثقيل . ومخالفة هوىٰ النفس وتحتاج للصبر في ثلاث أحوال :

١ ـ قبل أداء العمل ، ٢ ـ حال العمل ، ٣ ـ بعد أداء العمل .

أما الصبر قبل أداء العمل ، فهو اجتناب الشرك الخفي والإخلاص في النية ، وذلك معناه أن يكون العمل خالياً من الرياء ، وربما تكون هذه المرحلة من الصبر أشد المراحل صعوبة ، نظراً لأن المطلوب هنا هو الإخلاص في النية وليس في أداء الأعمال فقط فتكون نيته هي نيل رضا الله تعالىٰ ، لا غير ، والأعمال من حيث النية على ثلاثة أقسام :

١ ـ افتقاد العمل لنية القربة ويكون العمل لذات الشخص ليس فيه لله تعالىٰ رضىٰ .

٢ ـ العمل الخالص لوجه الله تعالىٰ ، ومن مصاديقه ما فعله الإمام علي (ع) وفاطمة (ع) وولديهما (ع) من إطعام الطعام لثلاث ليال متتالية لوجه الله تعالى ، كما أشار لذلك القرآن الكريم بقوله : ﴿ **ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً * إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكورا** ﴾[1] .

٣ ـ إشتراك العمل بين الله تعالى وغيره .

فمعنىٰ الصبر قبل العمل هو خلوص النية في أدائه ، وهو عمل صعب ، والطريق لتيسيره هو أن يقدم الإنسان الله تعالى في أعماله في كل مكان وزمان ، وأول ما يفعله في جميع الأحوال أن يطرق أبواب الله تعالى

(١) سورة الدهر، الآيات: ٨ و ٩.

ومنافذ المحبة إليه ، وواضح جداً أنه كلما ازدادت محبة الإنسان لخالقه ازداد إخلاصه في أداء ما يرضيه . وإن أشرك في محبة الله في أعماله غير الله فلن يكون ذلكم العمل خالصاً لله أبداً .

وأما الصبر في حال العمل فهو أيضاً إخلاص النية وإتيان العمل بصورة صحيحة في محله وبقصد إرضاء الله وإحضار القلب في المواطن التي تعتمد على حضور القلب .

وأما الصبر بعد العمل فهو أن لا يأتي الإنسان بأعمال تسبب إحباط أعماله السابقة كما ورد عن رسول الله (ص) أنه إذا قال : العبد « سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر » فإن له بكل واحدة شجرة في الجنة فقال له أحد الأصحاب : إذن ما أكثر الشجر يا رسول الله . فقال (ص) : بلىٰ ، ولكني أخشىٰ أن تمسّها نار الذنوب فتحرقها ، ثم تلا بعدها قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم** ﴾[1] . وإنما تبطل الأعمال إما بالمنة أو بالإيذاء كما يقول القرآن الكريم : ﴿ **لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذىٰ** ﴾[2] .

أضحىٰ معلوماً إذن أن الصبر يكون قبل العمل ، وحين العمل ، وبعد العمل . وبناء على هذا فإنا نحتاج الصبر في كل وقت ، ولا نستغني عنه .

والناس على أنحاء ثلاث من حيث المعصية :

الأول : الذين تسبب لهم المعصية المشقة ولا يستأنسون بممارستها خصوصاً بالنسبة لمن يقترف المعصية لأول مرة ، فالصبر يحجز الإنسان عن الوقوع في المعصية ويخلصه من تلك المشقة والمعاناة .

---

(١) سورة محمد، الآية: ٣٣.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦٤.

الثاني : الذين يستأنسون بالمعصية وإن كان في العمل نوع من المشقة إلا أنهم قد اعتادوا على اقتراف المعصية ، والصبر في هذه المرحلة أقل فاعلية وتأثيراً مما عليه في القسم الأول ، فهنا أمران يدفعان الإنسان لاقتراف المعصية : الشهوة والاستئناس بارتكاب المعصية .

الثالث : الذين يمارسون المعصية بشغفٍ واستئناس ولا يجدون رادعاً فيكون أثر الصبر هنا ضعيفاً .

ثاني المسائل التي تحتاج فيها إلى الصبر : ما يقع من الحوادث بغير اختيار وإن كان بدافع اختياري ، ففي حالات الاعتداء نحن مأذونون برد الاعتداء بالمثل وإلا فإننا ظالمون كما أشار لذلك القرآن الكريم في قوله تعالىٰ : ﴿ **فمن اعتدىٰ عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدىٰ عليكم** ﴾[١] وقوله تعالىٰ : ﴿ **وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين** ﴾[٢] .

إذن فعلينا في مثل هذه الأمور النظر أولاً في ما أجازه الشرع وفي ما لم يجزه ، لأننا إذا لم نرجع للشرع وقمنا بما يخالفه فسينالنا العقاب الأخروي . وإذا تطلّب موقف منّا أن نقتص لكي يرتدع المعتدي ثم صبرنا وعفونا فقد يكون الصبر غير محمود في هذا الموطن ، وأحياناً يكون الصبر ممدوحاً وخاصة في القضايا الشخصية التي لا تمس المجتمع ولا تنال من العقيدة .

وثالث موارد الصبر هو الصبر في النوائب وعوادي الدهر والمصائب التي تخرج عن الاختيار ، كفقد شخص عزيز أو أموال وغير ذلك . فنكون

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٤ .

(٢) سورة النحل، الآية: ١٢٦ .

عندئذ بحاجة شديدة للصبر ولنا هنا سؤالان : أولهما هل أن الصبر هنا أفضل من قسميه الأول والثاني ؟ ما هو معنى الصبر هنا وكيف يكون؟

وبشأن الإجابة على السؤال الأول نقول : أما من ناحية الأفضلية قد ورد في الرواية « من صبر على أداء الفرائض لله فله ثلاثمائة درجة ، ومن صبر عن محارم الله فله ستمائة درجة ، ومن صبر في المصيبة فله تسعمائة درجة » .

ورواية أخرىٰ عن رسول الله (ص) أنه قال : « الصبر على ثلاثة : صبر في المصيبة ، وصبر على الطاعة ، وصبر عن المعصية ، فمن صبر على المصيبة كتب الله له ثلاثمائة درجة ، ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين السماء والأرض ، ومن صبر علىٰ الطاعة كتب الله له ستمائة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى العرش ومن صبر عن المعصية كتب الله له تسعمائة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى منتهىٰ العرش » .

ويلاحظ وجود اختلاف بين الروايتين ، وذلك لأنه قد ورد في الرواية الأولى أن الصبر على المصيبة أفضل من الصبر على الطاعات ، بينما ورد في الرواية الثانية أن الصبر على الطاعات أفضل من الصبر على المصائب ، والآن نريد أن نوضح أفضل الطرق إلى الصبر .

إذن ، نقول أولاً : إن معيار الأفضلية هو مقدار التأثير والأثر لموجبات الصبر ، ويكون الأثر بالمعاناة التي يبذلها الشخص لغرض الوصول إلى الهدف ، وقوة وضعف دافع الهوىٰ ، وهذا يعني أنه كلّما كان الدافع الديني قوياً يضعف دافع الهوى ، وكلما كان دافع الهوىٰ قويّاً يكون الدافع الديني ضعيفاً .

وأما في الحوادث والمكروهات التي لا يكون حدوثها وانتهاؤها إختيارياً ، فماذا يعني الصبر ، وهي أمور غير اختيارية ؟ هل يفقد أثره هنا ؟ أم أنه يعني عدم الجزع والشعور بالطمأنينة والتسليم لأمر المولى تعالى ؟ ويمكن القول : إن للصبر في هذه المرحلة له صورتين ، ليستا خارجتين عن إرادتنا .

أولاهما : أن يسيطر الشخص على أعضائه وجوارحه عند وقوع الحوادث والمصائب بنحو لا يطلع أحد على ما أصابه من موت أحد أعزائه مثلاً .

الثانية : أن تظهر عليه آثار المصيبة ، ولكنه لا يقول ما يغضب الرب فيظهر الحزن ولكن لا يجزع . فيصبح معلوماً أن الأول أفضل من الثاني ، ووسيلة الصبر بالنسبة للمصائب تنحصر بقوة إيمان الشخص .

والنتيجة هي أن الإنسان محتاج إلى الصبر على الدوام ، وإن أصعب درجات الصبر هي أن يهب القلب نفسه لله وحده ولا يدع مجالاً أبداً لأي أحد غيره .

إن للشيطان منفذين ، الشهوة والوساوس النفسية ، وبالاستقامة والتقوىٰ ، نكبح جماح الشهوة ونوجهها وجهة إيجابية نافعة ، وبذكر الله تعالى كما أشار في قوله تعالىٰ : **﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ﴾**[1] فأيّ مكان شاغر في القلب خال من الله وذِكْره ليشغله الهوىٰ ؟ وما الإيمان إلا عبارة عن ملء القلب بذكر الله ، والكفر عبارة عن خلو القلب من ذكره وامتلائه بالهوىٰ ، ولا تجتمع محبتان في قلب واحد : **﴿ ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ﴾** .

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٣٦.

ويمكن معالجة جميع الأمراض القلبية بمركّب من العلم والعمل ، وسبق أن ذكرنا أن العلم ينقسم إلى قسمين : العلم الإبداعي ، والعلم التطبيقي ، وينقسم أيضاً إلى قسمين آخرين : النفسي والعضوي ، وهو الذي يسمىٰ بعلم الأخلاق ، وإذا لم يترتب على دراسة تلك العلوم تطبيق لها ، فالجهل بها أفضل .

وعليك أن تعلم أن لكل مرض دواءً يُعالج به ، فمثلاً إذا أريد علاج الحسد يجب أولاً معالجة البخل والكبر ، وقد بيّنا ذلك في فصل استحواذ الصبر أن علاجه بالعلم والعمل ، وغالباً ما تعالج الأمراض بأضدادها كالشخص الحاد الطبع يكون علاجه بالمهدءات ، والبارد الطبع يكون علاجه بالمثيرات .

وقد أمر رسول الله الأكرم (ص) بالصيام من أجل إضعاف الشهوة الجنسية ، وسبق أن ذكرنا أن شهوة الفرج لها علاقة بشهوة البطن لأن الحد من تناول الطعام يضعفها لذا فالصائم يدفع شهوته بصيامه . إذن فأحد أسباب إضعاف الشهوة هو الصيام .

والأمر الثاني للحد من مقويات الشهوة يكون في الحد من القوة الخيالية للإنسان التي يثيرها الاستماع إلى صوت المرأة الأجنبية والنظر المباشر ونتيجة لذلك تتولد لدى الرجل صور خيالية تسبب له الإثارة الجنسية ، والابتعاد عن مواطن الاختلاط أو عن كل ما من شأنه إثارة ذلك خير وقاية من الانزلاق في وادي الرذيلة ومعالجة ذلك بتقوية الإيمان والروادع النفسية وإيجاد المجالات العملية المناسبة لامتصاص طاقة وفراغ الشباب ، والوسيلة العملية الأخرىٰ هي تسهيل عملية الزواج وإشاعة الفضيلة في المجتمع ورفع القيود أمام الشباب لبناء أسرة تقوم على أساس

الإيمان والتفاهم بعيداً عن قيود العصر المادية التي ترهق الشباب وتجعلهم يعزفون عن الزواج فيقعون فريسة لأهوائهم وشهواتهم .

وأما تقوية الدافع الديني فإنه يتم بإحدىٰ الطريقتين أدناه :

فأولاهما : النظر في حياة الصالحين والصابرين والاقتداء بهم والقصص القرآنية معين لا ينضب لمن أراد الارتواء من منهله .

والثانية : اتباع المنهج الصحيح في التربية والتعليم في الأسرة والمدرسة والمجتمع وإشاعة الفضيلة في المجتمع عن طريق وسائل الإعلام والصحف .

ومحصلة لما مر يمكن القول إن الإنسان السالك إلى الله تعالى عليه أولاً إزالة الأشواك من مزرعة القلب من أجل بنائه ، وأن يحفظه من الآفات ليكون مستعداً لاستقبال الرحمة الإلهية ، كما جاء «إن لربكم في أيام دهركم نفحات ، ألا فتعرضوا لها» وهذه الرحمة الإلهية دائمة لا تنقطع وتزداد في بعض الأوقات وبعض الأمكنة ، كيوم الجمعة ، ويوم عرفة ، وشهر رمضان المبارك وأيام الأعياد والمناسبات وفي بيوت الله تعالى كالمساجد وهي تتفاوت في فضلها أيضاً وأماكن تجمع المؤمنين الذاكرين .

الفصل الثالث

« في الشكر »

كما أسلفنا في باب الصبر أنه نصف الإيمان فسنقول أن الشكر نصفه الآخر . وسيكون بحثنا في أمور عديدة :

الأول : في فضيلة الشكر .

الثاني : في حقيقة الشكر .

الثالث : في أقسام الشكر .

الرابع : في حقيقة النعمة .

الخامس : في أقسام النعمة .

السادس : المقارنة بين الصبر والشكر وأيهما أفضل من الآخر ؟

الأمر الأول : في فضيلة الشكر

ليست هناك نسبة بين الذات العليا ذات الكبرياء وبين مخلوقاته تعالىٰ ولذا جاء قوله (ع) : « لا تفكروا في ذات الله وتفكروا في آلاء الله » ولذلك فالتفكر يكون في نعمه وصفاته . وهي على ثلاثة أنواع :

١ ـ صفات لا يمكن نسبتها إلى الله تعالى ، كالفقر والتذلل ، والمسكنة ، والخضوع ، والخشوع .

٢ ـ صفات خاصة بالله تعالى فقط كالعزة ، والعظمة ، والربوبية ، والكبرياء ، والجبروت ، والقهر .

٣ ـ صفات مشتركة بين الخالق والمخلوق مثل العلم والقدرة والحياة والإرادة ، والإدراك والمحبة والشكر ، فمن أسماءه تعالى الشاكر والشكور ، والعبد كذلك يكون شاكراً وشكوراً ، إذن نستطيع القول أن الشكر صفة شريفة لأن الله شاكر .

ويجب عليك أن تعلم أن كل ما في العالم من كمال ونعمة وثروة وغنىً لن توصلك إلى الجنة ولن يخلصك من النار إن لم يكن يرافقها ذكر الله ، قال تعالى : ﴿ **فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون** ﴾[1] وهنا يتبين أن الشكر قرين الذكر ولا يوجد شيء أعلى من الذكر ولا أرفع من الشكر ويكون الشكر قريناً للإيمان أيضاً كما يقول تعالى : ﴿ **ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم** ﴾[2] . ولما أصبح الشكر قريناً للإيمان أصبح من أعظم الفضائل ، وقد توعد الشيطان الرجيم الناس بالغواية فقال : ﴿ **لأقعدن لهم صراطك المستقيم** ﴾[3] . وفسر بعض الصراط المستقيم بالشكر بدليل أنه تعالى يختم الآية بقوله ﴿ **ولا تجد أكثرهم شاكرين** ﴾[4] وقال تعالى : ﴿ **وقليل من عبادي الشكور** ﴾[5] ، وامتدح تعالى نوحاً حيث قال : ﴿ **ذرية**

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٢ .
(٢) سورة النساء، الآية: ١٤٧ .
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٦ .
(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٧ .
(٥) سورة سبأ، الآية: ١٣ .

من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكورا ﴾[1]

وفي رواية أن نبياً من الأنبياء قال مررت بحجر ينبع الماء من داخله فرحت أنظر في داخله متسائلاً عن علّة خروجه منه فأنطقه الله تعالىٰ قائلاً : إنما بكائي هذا عندما سمعت الآية ﴿ وقودها الناس والحجارة ﴾ ، فتملكني الخوف لأنني سأكون من تلك الحجارة في جهنم ، فدعا النبي ربه أن لا يعذب ذلك الحجر بتلك الآية فاستجاب الله له وأطلق له حريته من النار . ومضت مدة مرّ بعدها النبي فرأىٰ الحجر نفسه والماء يخرج من داخله فقال له : والآن ما بالك تبكي ؟ قال : هذا بكاء الشكر وسروره ، فعندما سمعت أني قد تحررت من عذاب النار فمن ذلك الحين أخذت أشكر الله وهذا البكاء بكاء شكر هذه النعمة .

وهذا البكاء يعد بكاء شكر لأن قلب العبد فيه من القساوة ما يشبه الحجر وهذه القساوة لن تزول من القلب إلا في حالة الخوف وفي حالة الشكر فالخالدين في حياتهم يطأون قلوبهم بأقدامهم كما قال الشاعر :

الأمر الثاني : في حقيقة الشكر

حقيقة الصفات الإنسانية تتألف من التوبة والصبر والشكر والخوف والرجاء والمحبة وغيرها ، وكلها من علم واحد وحال واحدة وعمل واحد . وقد ذكرنا في المباحث السابقة أن الأصل في الثلاثة المذكورة هو الحال ، ولكن الحال تتولد من العلم ويتولد منها العمل ، وبينّا أيضاً ذلك في مبحث الصبر والتوبة . ومثلنا له بأن العلم بمنزلة البذرة والحال بمنزلة الشجرة والعمل بمنزلة الثمرة .

قلنا وفي باب الشكر : أن العلم المعتبر على ثلاثة أقسام :

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣.

١ ـ العلم بعين النعمة .

٢ ـ العلم بماهية النعمة .

٣ ـ العلم بذات المنعم وصفاته وبأنه هو المغدق .

أما العلم بالنعمة والعلم بماهيتها فسوف نوضحه في أقسام النعمة إن شاء الله . وأما العلم بالمنعم فقد قلنا : إن لمنبر المعرفة ثلاثة درجات ، وهي :

ألف : تسبيح وتنزيه وتقديس الله تعالىٰ عن كل شيء مذموم ، وتبرئة ساحته من الصفات غير الحسنىٰ ، وتجريده عن كل نقص ، وهذا المعنىٰ ينطوي في عبارة (سبحان الله) ، بمعنىٰ أنه تعالىٰ منزّه عن جميع العيوب والنواقص ، ولقائلها عشر درجات من الثواب .

ب ـ معرفة منزلة التوحيد ، ومعنىٰ ذلك أن الله تعالىٰ منزّه ومبرّأ من جميع الأضداد والأنداد ، فهو وحيد فريد في سلطته ، وهذا المعنىٰ ينطوي في عبارة « لا إله إلا الله » ولها عشرون درجة من الثواب .

ج ـ معرفة منزلة التحميد ، فبعد أن عرفنا أن الله واحدٌ ، وأنه مصدر جميع النعم ، فهي من فيض كرمه ، فلذلك نحن لا نعرف معطياً ومنعماً حقيقياً غيره ، فلا حمد إلا له . وهذا المعنىٰ تتضمنه عبارة عند « الحمد لله » ولها من الثواب ثلاثون درجة .

ومنبع هذا الذكر لا يكون في اللسان وحده بل يجب أن ينبع من صميم القلب بالقصد والنية . وقد ورد عن الإمام الباقر (ع) وقد فقد بغلته يوماً [redacted] (ع): لو عثرت عليها لأحمدنّ الله حمداً لم يأت به الأولون ولا الآخرون فلمّا عثر عليها قال: الحمد لله . وقال الإمام الصادق (ع) بهذا الشأن : أن الحمد يلفظه كل الناس ، ولكن هذا الحمد يختلف لأنه نابع من

صميم القلب .

وقد ورد أن « الحمد لله » أفضل من لا إله إلا الله ، ولا إله إلا الله أفضل من « سبحان الله » ومنشأ هذا التفاوت يكمن في معرفة نسبة معانيها .

وعلماء الأخلاق يعبرون عن الأخلاق الحميدة بمنازل السائرين . والمرحلة الأولىٰ منها هي : تخلية النفس من الأخلاق الرذيلة كالحقد والغل والحسد والبخل والحرص والطمع والتكبر وغير ذلك من الرذائل .

والمرحلة الثانية : هي التحلي بالأخلاق الطاهرة الحميدة ، كالتوبة والصبر والشكر والمحبة والتوكل والرضا وغيرها من الأخلاق الفاضلة التي ترفع الإنسان من مرتبة النقص إلى أقصىٰ حدود الكمال .

والأشخاص يتفاوتون في سفرهم فمنهم من ينتهي عمره في أثناء الطريق ومنهم من يصل إلى محطة من محطات التوقف ، ومنهم من يوفق في سفره فيطوي كل مراحل الطريق ويصل إلى مراده ولا بد من الإشارة إلى أن كل واحدة من هذه المراحل تنطوي على ثلاثة أشياء :

- العلم .
- الحال .
- العمل .

فالعلم ذو ثلاث شعب :

أولها العلم بالمنعم : أي العلم بأن الله منعم بصورة مطلقة ، والحمد والشكر لذاته المقدسة ، لأن الإنعام مختص بذاته العليا والتصديق بنعمته يكون بثلاثة وسائل :

أولاها : نفي التفويض (لا جبر ولا تفويض بل أمر بين الأمرين) .

وفي النتيجة يثبت أن العبد ليس مستقلاً بأفعاله ، بخلاف الله تعالىٰ ، إذ تكون أفعاله استقلالية ، ولا يشاركه العبد فيها أبداً . أما الله تعالى فإنه شريك للعبد بأفعاله ، وباستبطان ذلك يكون الله تعالىٰ شريكاً في أفعال كل منعم ينعم علينا بنعمة ، وأية نعمة يمنحها الله لنا فلا يشاركه فيها أحد .

والوسيلة الثانية : أن كثيراً من النعم الإلهية متوقفة على السعي والكدح لكي تصل إلينا ، وإذا دقّقنا في هذا وجدنا أن كل المنعمين يحملون هذه الصفة مجازاً ، لا حقيقة ، وهم يقسمون إلىٰ قسمين :

القسم الأول : ذوو الشعور والإدراك ، كالإنس والملائكة .

والقسم الثاني : من لا شعور لديهم ولا إدراك ، وأفعالهم غير اختيارية كالسحاب والهواء والماء والشمس والأرض . فمن أجل قرص من الخبز تعمل الملائكة والبشر والسحاب والهواء والماء والشمس وكل يقوم بأداء وظيفته من أجل إنبات ورعاية سنبلة قمح فيها سبعمائة حبة ، بعد ذلك تأتي الحاجة لأدوات أخرىٰ لحصد وطحن القمح ، ثم لأدوات خبز الطحين من تنور وسيخ وحطب وإلى عجّان وخبّاز وغير ذلك ، ولكن من المُسَلَّمْ به والمُبَرْهَنْ عليه أنه لا يخطر في بالنا أن أحد أولئك منعم علينا ، وربما يشتبه البعض فيتوهم أن بائع الخبز أو صانعه هو صاحب النعمة علينا ، فإن حدثت مثل هذه الشبهة في أذهاننا فعلينا أن نتذكر شيئاً مشابهاً وهو أن نعلم أن هذا الإنعام ليس حقيقياً ، لأننا وبقليل من التأمل نرىٰ أن ثدي الأم يمتلىء بالحليب قبل مجيء الطفل إلى الدنيا ، وما ذلك إلا من صنع المنعم الحقيقي الأول .

فالثابت إذاً أن المنعم الحقيقي الأوحد هو الله تعالىٰ ، وإنما تطلق صفة المنعم على غيره مجازاً ، لذلك فإن أي حمد على أية نعمة أو لأيّ

منعم يجب أن يكون لله تعالى ومختصاً به .

الوسيلة الثالثة : إنّ هناك من يدعىٰ منعماً وهناك من يدعىٰ مستعوضاً (أي طالباً للتعويض) وحين يعطي أحدهم إيانا شيئاً ثم يطلب عوضاً عنه كالثمن ، فلن يكون أي من الطرفين هنا منعماً . فعندما نشتري الخبز وندفع ثمنه ، فنحن بحاجة إلى الخبز والبائع بحاجة إلى الثمن ، فمثل هذا الشخص ندعوه طالباً للعوض وليس منعماً ، ولا يصح أن نسميه منعماً . ونطلق على من تبرع بالمال عنوان المتصدق ، ولا نطلق عليه عنوان المنعم إلا مجازاً ، ذلك لأن المنعم الحقيقي هو الله جلّ جلاله ، حيث لا يطلب ولا يرجو أي عوضٍ وغيره إنما يطلب أو يرجو عوضاً بشكل من الأشكال ، فمثلاً من يتصدق بماله إنما يطلب الأجر منه تعالىٰ في الآخرة لأنه قد ورد في القرآن الكريم : ﴿ **مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم** ﴾[1] .

وهكذا فإن الذي ينفق أمواله في سبيل الله إنما يضاعفها الله له سبعمائه ضعف أو أكثر ، وهو يأمل النجاة من النار أو يرجو دفع البلاء عنه ، إذن فهو يدفع هذا المال مقابل سلامة بدنه ، أو أنه يدفع المال بدافع إنساني أو شعور نفسي أو لدافع إجتماعي فيحترق قلبه ويرق لرؤية المحتاج فيدفع المال من أجل إزالة الحرقة من قلبه وحتى أهل الكساء عندما تصدقوا بإفطارهم لثلاث ليال متواليات لليتيم والمسكين والأسير فإنهم يرجون ثواب الله تعالىٰ بدليل الآية الشريفة ﴿ **إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا** ﴾[2] .

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦١.

(٢) سورة الدهر، الآية: ٩.

وبناء على هذا فإن المنعم هو من لا يطلب عوضاً عما يعطيه وليس هو إلاَّ الله تعالىٰ وحده « لا يزيده كثرة العطاء إلا جوداً وكرماً » .

وقد ذكرنا أن معنىٰ الشكر يكون « بالعلم والحال والعمل » .

وتفاوت أنبياء الله (ع) في الفضل يكمن في تفاوت إدراكهم لتلك الأسباب وأنهم يدركون أن الأسباب بيد الله جل جلاله . فلوط (ع) لما جاءته رسل ربه وضاق بهم ذرعاً ، وقال لقومه الذين كانوا يأتون الفاحشة :

﴿ يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزونِ في ضيفي أليس منكم رجل رشيد ﴾[1] ، فأجابوه **﴿ لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما تريد ﴾**[2] .

فقال لهم مستاءً **﴿ لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد ﴾**[3] . وقد قال الإمام الصادق (ع) في ذلك « والله كان يأوي إلى ركن شديد » وهو الله تعالى .

ويوسف (ع) إذ قال لرفيقه في السجن **﴿ اذكرني عند ربك ﴾**[4] فقد اعترض عليه جبرائيل (ع) قائلاً : إنك قد نجوت من كل المخاطر والمهالك بإذن ربك ، فلماذا نسيته هنا ؟ إن عليك أن تقضي سنوات عديدة أخرىٰ في السجن بسبب هذه الغفلة . وكذلك إبراهيم خليل الله (ع) حين أُلقي في النار فكانت الملائكة تتنزّل عليه زمراً زمراً تعرض عليه إطفاء النار بالماء والهواء ، فكان يقول لا حاجة لي بكم حتى إذا أحاطت به النار ، وأوشكت

---

(١) سورة هود، الآية: ٧٨.
(٢) سورة هود، الآية: ٧٩.
(٣) سورة هود، الآية: ٨٠.
(٤) سورة يوسف، الآية: ٤٢.

أن تحرقه ، نزل عليه جبرائيل قائلاً : أليس لديك حاجة لدي ؟ فقال (ع) : إن كان لي حاجة فإنّ الله أعلم بها ، وهو العالم بحال عبيده والمطّلع عليهم ، فجعلها الله تعالى عليه برداً وسلاماً . إذن فتفاوت أحوال الأنبياء يكون في تفاوتهم في درجات معرفة الله ، فكلما ازدادت معرفة الإنسان ويقينه بربه ازداد إيمانه واطمئنانه وكفى بالله وكيلاً .

وللإيمان درجات متفاوتة بحسب مراتب المعرفة ، ويجب علينا بعد معرفة المنعم الشكر الدائم وسيكون سبباً للسرور والاطمئنان في قلب الإنسان ، وإنما شُرِّع الشكر لإيجاد مثل هذه الحال ، وذلك لا يخلو من ثلاثة أقسام : ـ

الأول : السرور بالنعمة ، فحصول الإنسان على ملابس فاخرة أو غذاء لذيذ أو أشياء أخرىٰ تبعث فيه الفرح والسرور بالنعمة وليس بالمنعم ، وهذا السرور تمتلكه الحيوانات جميعاً ، فالحمار مثلاً حين يرىٰ العلف تمتلكه حالة من نشوة البثوق إلى تناوله فتصدر منه حركات تعبّر عن شوق ورغبة ، وتلك الحركات تعبر عن السرور بالنعمة وليس بالمنعم لذا لا تعد شكراً ، والإنسان الذي لا يرقىٰ عما يخالج الحيوان يعد جاهلاً ومقصراً عن أداء ما يجب عليه تجاه المنعم .

القسم الثاني : إن النعمة أثر من لطف المنعم نشاهد بسببها وجه المنعم ، فمثلاً حين تصل شخصاً تفاحة من يد الملك ، يتعاظم سروره وشوقه للنظر إليه ، ولعل سروره ليس من أجل التفاحة ، بل لأنها وصلت إليه من يد الملك ، فلها قيمة خاصة ، ونظره للملك ليس بسبب النعمة بل لأنه منعم ولذا قال الشاعر (قليلك لا يقال له قليل) نظراً لأن أي شيء تعطيه هو عطاء ، وإذا أردنا نعد مجموع النعم الربانية على الإنسان في هذه الدنيا فسنغرق في خضم أمواجها ، وليس هنالك وجه للمقايسة بين تلك النعم

الإلهية وبين الأمراض والبلايا والشدائد ، فأنعامه وألطافه قد فاقت حد التصور .

وما أرأف الله بنا وما أشفقه علينا وما أكرمه ، وما أشد تقصيرنا عما وجب الله تعالىٰ علينا ؟ قال تعالى في القرآن الكريم ﴿ **وما قدّروا الله حق قدره** ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ **وقليل من عبادي الشكور** ﴾[2] .

القسم الثالث : من الشكر يعد من الدرجة الأولىٰ وفيه فضيلة ، وأفضل منه أن يتصرف الإنسان في أنعم الله بقصد القربة إليه ، بسروره بنعمته ، وهذه الحالة من السرور يعبّر عنها بالشكر بالقلب واللسان ، ويترتب عليها العمل بأن يصرف هذه النعمة في استحصال رضىٰ الله تعالى ، ويجب أن نعلم أن كل ما خلقه الله لم يكن عبثاً واعتباطاً ، بل من أجل حكمة ومصلحة ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿ **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً** ﴾[3] . وللإنسان حالة واحدة من ثلاث حالات :

الحالة الأولىٰ : أن يتصرف بالنعمة خلافاً لما خلقت من أجله ، كتحويل العنب خمراً فهذا تصرف محرم لا يرضاه خالق النعمة ، وهو كفران بها .

الحالة الثانية : أن لا يتصرف بالنعمة في السبيل الذي خلقت من أجله ، ولا بخلاف ما خلقت من أجله ، كأن لا يأكل الخبز من أجل سد الجوع ، ولا يستخدمه في أعمال محرمة ، بل لعله يخزنه في كيس ويحتفظ به في إحدىٰ زوايا البيت . فهذا أيضاً كفران بالنعمة ، لكن الكفران الأول أشد .

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٩١.
(٢) سورة سبأ، الآية: ١٣.
(٣) سورة المؤمنون، الآية: ١١٥.

الحالة الثالثة : أن يتصرف بالنعمة في ما خلقت من أجله ، كأن يأكل الخبز بالمقدار الذي يحتاجه بدنه لسد الجوع ويستعين به في أداء مهمته في الحياة الدنيا والوصول إلى الأهداف السامية ، وهذا النوع من العمل يسمىٰ « الشكر على النعمة » .

والعمل يكون على ثلاثة أقسام :

١ ـ قلبي .
٢ ـ لساني .
٣ ـ وعمل عضوي جوارحي .

يقول علماء الأخلاق : إن العمل القلبي : هو امتلاك نية الخير السليمة تجاه كل عباد الله ، وهذه مرتبة من الشكر أيضاً ، باعتبار أن جميع مخلوقات الله نعمة ، فحسن النية تجاه تلك النعمة نوع من الشكر .

أما عمل اللسان : فهو عبارة عن شكر وحمد المنعم به والإقرار والاعتراف بألطافه وفضله كأن تقول (الحمد لله) أو تقول (الحمد لله على كل نعمة) أو أن تقول (الحمد لله كما هو أهله) .

أما عمل الأعضاء والجوارح فهو : استخدامها في سبيل الذي خلقت من أجله . فالشكر لأي نعمة من النعم الإلهية بما يناسبها في استخدامنا لها وتصرفنا بها بما يرضي المنعم تعالىٰ ، لأن النعمة إنما خلقت لنا لنتصرف بها ، فحسن استخدام النعمة هو الشكر لها ، فمثلاً إحدى النعم الإلهية هي التنفس واذكر مقولة الشاعر سعدي حيث يقول : « إن كل نفس يخرج يمد الحياة وعندما يعود نفرح به » ، إذن ففي كل نفس نعمتان إلهيتان فيجب أن نشكر الله على كل واحدة من هاتين النعمتين ، ويجب أن تعلم أن شكر كل واحدة من النعم بحاجة إلى شكر آخر ، لأن التوفيق إلى نعمة الشكر أيضاً من

نعم الله تعالىٰ . وبناءً على ما تقدم فإنه لا يمكن لمخلوق في الكون أداء حق الله تعالى من الشكر ، فقد قال النبي موسى (ع) : يا إلهي أنا عاجز عن أداء حقك في الشكر إليك ، فيجيبه الله تعالى : يا موسى ما دمت عاجزاً عن شكري فقد أديت واجب الشكر .

ويقول علماء الأخلاق ، إننا قد فهمنا كلام موسىٰ (ع) ، أما جوابه تعالىٰ فليس مفهوماً لأنه كيف يمكن اعتبار العجز عن الشكر شكراً ؟

فأولاً : إن كنّا عاجزين عن الطيران إلى السماء ، فهل يعدّ علمنا بهذا العجز طيراناً ؟

وثانياً : إن القناعة التي لو حصلت عندنا بأن العجز عن الشكر هو الشكر فهي عن طريق العلم بهذا الحديث وهي نعمة أخرىٰ تحتاج إلى شكر .

لقد خلقنا الله وخلق الكون وسخّره لنا حيث يقول (عزّ وجلّ) : ﴿ **هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً** ﴾[1] إذن فبعد أن سخّر الله لنا ما في الأرض جميعاً ازدادت مسؤوليتنا في أداء ما وجب شكره علينا للمنعم عزّ شأنه ، وهناك قصة رمزية خلاصتها :

أن ملكاً ذا عطف ورحمة برعيته العزيزة وذا عدل بها ، كان كريماً سمحاً يصفح عن المسيء ويعفو عن المذنب ويذب عنهم في الشدائد ويدفع عنهم كيد الأعداء مع ذلك فهو بصير ﴿ **لا يعزب عنه مثقال ذرة** ﴾[2] خبير بضمائرهم ﴿ **يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور** ﴾[3] وهو صاحب

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٩.
(٢) سورة سبأ، الآية: ٣.
(٣) سورة غافر، الآية: ١٩.

القيمومة على حفظ البلاد ﴿ **هو الحي القيوم** ﴾[1] ويسعىٰ في تمشية أمور كل واحد من رعيته بلا نصب لا يشغله شأن عن شأن لا فضل لأحد على أحد عنده إلا بالتقوىٰ .

ولأن لطفه يصل لكل فرد ، كان واحد منهم يقول هو ربي أنا ، كان مقره في النجف الأشرف وكان غنياً عن الآخرين والرعية مفتقرة إليه ﴿ **والله هو الغني الحميد** ﴾[2] فأمرهم إشارة إلى الآية ﴿ **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم** ﴾[3] فأطاعوه إلاّ واحد منهم فقد تمرد على أمره فاستحق عقوبة الطرد من حضور مجلس الملك وأضحىٰ محروماً من سعادة نيل اللطف وأخرج من تعداد المقربين وحكم بالتعذيب فدافع عن نفسه قائلاً للملك : لقد شمل عدلك ورحمتك وعطفك جميع الرعية بلا تفاوت ولم تعاقب أياً من رعيتك إلا بذنب ، وفضلك الواسع لا يخفىٰ على رؤوس الرعية ، فانظرني إلى يوم موعود حيث يثاب المحسن ويعاقب المسيء ﴿ **فانظرني إلىٰ يوم يبعثون** ﴾[4] وأنا لا أستطيع الفرار من حكومتك ، فأمهله الملك ، وحذره من العقاب الشديد الذي سينتظره بما اقترفت يداه .

لم يستمع إلى موعظة الملك وذهب في غيه سادراً يخدع بعض الرعية ليحرفهم عن الملك المحسن . أبلغ الملكُ رعيته بضلال هذا المتمرد وطرده من المجلس الملكي ، وأبلغهم دعوته لحضور المجلس الملكي وأنها شاملة لمن أطاع ولم يتبع الهوىٰ . سبعة أشخاص وصلتهم دعوة الملك ، في حين اعتزل واحد في بيته وتردىٰ آخر باتباع المتمرد فأزاله عن الهدىٰ ، ركب

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٢.
(٢) سورة فاطر، الآية: ١٥.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٣٤.
(٤) سورة الحجر، الآية: ٣٦.

الخمسة الآخرون دوابهم التي أرسلها الملك إليهم وتوجهوا للقاء الملك العطوف الغني عنهم ، ولم تزل دعوة الملك تمنحهم العزم والنشاط « إنكم بكل قدم تخطونه لمجلسي تبتعدون أقداماً عن الحارث الضال وكل قدم تقتربون به من الحارث تبتعدون عني أميالاً » .

وإذ هم يتناجون فيما بينهم قال عبد القهار : إني أخاف الملك إن عصيت ولا طاقة لي بعذابه يوم الجزاء فإن النجاة في الحضور عند الملك بخ بخ لك يا عبد القهار قالها عبد الجواد مربتاً على كتف عبد القهار : إن رجائي لما أعد لنا الملك هو الذي يدفعني للحضور في مجلسه فما أجمل الهدايا والعطايا من يد الملك وإني لا أرجو الفوز بها .

عبد الرحمن يأمل أن يكون وزيراً للملك وتصبح له وجاهة في الدولة يأمر وينهىٰ ويحظى بقرب الملك ، فأجابه صاحبه عبد الرحيم إني لا أرجو ما ترجو لأن الوزارة تستدعي الابتعاد عن مجلس الملك ولكني أريد الاختصاص بمجلس الملك .

عبد الله الذي كان آخرهم قال أنا أريد الملك نفسه وأريد أن يطلبني وأفوز برضاه فهو بغيتي وهو معشوقي الذي أصبوا إليه لا يشغلني عنه شاغل آخر .

أعجب حديث عبد الله أصحابه وهم على بوابة حيث الملك المحبوب ، دخلوها وهم ينتظرون ما أحلوا في سفرهم ، وسيشهدون الحارث الذي سيُفْتَضَحُ على رؤوس الأشهاد وينادىٰ عليه باللعن والطرد الأبدي ويخلد في العذاب مهاناً يتبعه الغاوون الذين أضلهم عن الهدىٰ ، ولم تنفعهم شفاعة وكانت حجتهم داحضة . ألم تذكروا نعمي عليكم فلم كفرتم بها ؟ آمنتم بالباطل وكفرتم بنعمتي وجحدتم بها فانتظروا العذاب

الشديد .

أحضر عبد القهار وبنظرة مشوبة بالعطف جاءه الخطاب : لقد أحسنت التصرف في نعمتي والتقرب إليّ بالخوف والرهبة ، وقد ابتعدت عن معصيتي فلك الأمان من سخطي .

ثم أحضر عبد الجواد وعبد الرحيم وعبد الرحمن وعبد الله ، لكم البشرىٰ اليوم فلكم ما طلبتم ونعم ما كنتم تأملون .

كان عبد الله أوفرهم حظاً وأكرمهم منزلاً « لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإن أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به ويديه التي يبطش بها » .

إن أشرف مراتب الإيمان المعرفة « من عرفني طلبني » ثم السلوك المرضي الذي يوصل إلى المطلوب « من طلبني وجدني » وينقطع السير عند ذلك وهذه المنزلة لا تحصل إلا بفناء هوية الطالب واقتناعه الهوية المطلوبة « من وجدني عشقني ومن عشقني عشقته ومن عشقته قتلته ومن قتلته فأنا ديته » .

فاعلم أيها العارف اللبيب أنّ الشكر : هو استخدام النعمة في السلوك المستقيم باتجاه الخالق ، وضده الكفران وهو على مرتبتين :

أولاهما : استخدام النعمة في طريق يبعد الإنسان عن المنعم .

والثانية : تضييع النعمة والتصرف فيها بغير ما خلقت لأجله ، ثم الوصول إلى نتيجة سلبية بسبب سوء الاستفادة .

ويجب أن تعلم أن الشكر بعد كل هذه المراتب يكون نعمة في مكانها الصحيح ، ويبقى شكر النعم الباقية بحاجة إلى الأداء ، وبناءً على هذا فإن

عمر نوح (ع) لا يكفي لشكر بعض نعم الله تعالى ، وأضحىٰ معلوماً أن النعم الإلهية لا يحصيها العادون فلذلك يجب أن نلهج بالشكر على الدوام ، واجعل لساني بذكرك لهجاً .

وهنالك موضوع آخر وهو ، أن الأمور جميعاً مرتبطة ببعضها فهي تشبه آلات المصنع المترابطة مع بعضها ، فالعطب الذي يصيب بعضها يؤثر تأثيراً سلبياً في توقف حركة المصنع ، فإذا كفرنا بنعمة واحدة فقد كفرنا بجميع النعم ، إن شكرنا نعمة واحدة فقد شكرنا جميع النعم . فالنظر مثلاً إحدىٰ النعم الإلهية نبصر بها ما حولنا وننظر إلى ما خلق الله حتى نتفكر فيه كما قال تعالى ﴿ **فانظروا إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها** ﴾[1] أو النظر إلى الرسول (ص) وأولاده (ع) أو النظر إلى الأب والأم ففي ذلك أجر وثواب عظيم والنظر إلى الأشياء المباحة لاستحصال العبرة منها ﴿ **فاعتبروا يا أُولي الأبصار** ﴾[2] .

وأن هناك شروط لا بد من توفرها كي تتحقق الرؤية الصحيحة كوجود الفاصلة المناسبة بين العين والجسم المنظور ، فلا يلتصق بها ولا يخرج عن مدىٰ الرؤية لبعده ، ووجود الضوء والنور ووجود الضياء والنور كالشمس مثلاً ، وهي مرتبطة بنظام فلكي دقيق ، وهكذا فإن نعمة واحدة من النعم الإلهية ترتبط مع غيرها من النعم ارتباطاً وثيقاً كي تتحقق الفائدة منها .

فالتفكر والتدبر بها أولاً وشكرها ثانياً ، ونسيان الشكر والكفران بنعمة واحدة كفران بجميع النعم التي لا يعدها العادون قال تعالى ﴿ **وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها** ﴾[3] .

---

(١) سورة الروم، الآية: ٥٠.
(٢) سورة الحشر، الآية: ٢.
(٣) سورة النحل، الآية: ١٨.

فنحن بحاجة إلى مرحلتين :

الأولىٰ : أن نتفكّر في ما خلق الله تعالىٰ فنسير في أرضه وسماواته لنرىٰ أنه لم يخلق شيئاً عبثاً واعتباطاً .

الثانية : عندما يدرك العقل هذه النعم فإنه سوف يبحث ويستقصي الأسباب والنتائج ، وأفضل التفكر في هذه النعم هو التفكر في ذات الإنسان نفسه ، فإن عرف الإنسان ذاته فقد اقترب من الحقيقة أكثر « من عرف نفسه فقد عرف ربه » ، والتفكر في نعم الله جلّ جلاله في بدن الإنسان عندها نصل إلى حقائق وأسرار عجيبة في تركيب الإنسان وسندرك عجز الكائنات وجليل قدرة الله تعالىٰ .

إن مطالعة الإنسان في كتاب نفسه توصله للتعرف على خالقه سبحانه ما أمكن ، وتبقى أسرار خافية علينا لا نهتدي لفهمهما ولا نعرف عنها إلا ظواهر بسيطة مشيرة إلى عجزنا في ميدان المعرفة .

أتــزعــم أنــك جــرم صغيــر ... وفيـك انطـوىٰ العــالــم الأكبــر
وأنــت الكتــاب المبنــي الــذي ... بــأحــرفــه يظهــر المضمــر

واستيعاب هذه المصالح يتم عن طريقين تقليدي وتحقيقي :

أما التقليدي فهو عبارة عن متابعة الشريعة المقدسة في ما أمر الله تعالى به في وقته وموضعه الصحيحين ، والورع عن نواهيه ومحرماته .

ومن الواضح أن ما فيه فائدة ونفع للإنسان فقد أحله الله تعالى ، ولم يحرم إلا ما فيه ضرر وإفساد .

وأمـا التحقيقي فليس ميسراً لكل أحد ، إنما يتوقف على مقدار ما يتعلمه الإنسان في حياته متناسباً مع جهده في كسب العلوم وأعمال فكره

وتدبره في آيات الله تعالىٰ لتنعكس على واقعه العلمي كسلوك إسلامي على ضوء ما أنعم الله تعالىٰ عليه بهدايته وحكمته وقد قال تعالى : ﴿ **ومن يؤتَ الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً** ﴾[1] . وهذا الطريق ينفتح بالدرس والمطالعة والتفكر بالله تعالى .

فلو نظرنا بلا تفكر إلى ما حولنا كالسجادة مثلاً فلا تعدو كونها قطعة منسوجة ولكن إذا عمقنا النظر لوجدنا سلسلة جديدة متشابكة من مكونات هذه السجادة ، أيادي ومستلزمات وجهود وطبيعة وكلها نعم إلهية ، وهذه النظرة العميقة هي سر الارتقاء الحضاري للمجتمع ، وبها يزداد الإنسان معرفة وإيماناً وارتباطاً بالخالق المبدع تعالىٰ شأنه ، وتكون سبباً للمسرة والبهجة والاطمئنان .

إن الإنسان اجتماعي بالطبع يألف الحياة الجماعية المنتظمة في حياته وإدارة معيشته بخلاف غيره من الحيوانات التي سخّرها الله تعالى لبني الإنسان ، فهو يوفر لها طعامها ومسكنها البسيط لتستفيد منها ، أو تعيش واحد منهم يستطيع العيش بمفرده لأن معيشته منحصرة بثلاثة أشياء في أماكن مختلفة كالجبال والكهوف والمياه والصحاري مجتمعة أو منفردة . وأما الإنسان فإنه لا يستطيع العيش منفرداً ، بل يحتاج إلى مدينة كاملة أو مجتمع يخدم بعضهم بعضاً ، فالقصاب والحداد والخباز وغيرهم يحتاج بعضهم بعضاً ، وتبرز الحاجة إلى تبادل وتجارة وإلى حاكم يفصل في المنازعات فأحل الله الطيبات وحرم الخبائث ونهىٰ عن كنز الذهب والفضة فقال تعالى ﴿ **والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب إليم** ﴾[2] . ونهىٰ عن استعمالهما في الأمور المحرمة

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٩.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٣٤.

كاستخدامهما أواني وكؤوساً للأكل والشرب . ويتميز الذهب والفضة عن غيرهما من المعادن الأخرىٰ التي تتآكل بمرور الزمن إذ لا يتآكل الذهب والفضة، ولذا فهما يصلحان للتبادل التجاري الرمزي فلولا تلك الصفة لما تميز عن سائر المعادن الأخرىٰ . والعدل يقتضي استعمالهما في ما يراه الشارع المقدس حيث وضع الشيء في محله والابتعاد عن مواطن الظلم والأضرار أو تجميد الأموال الذي يسبب الغلاء .

إذا نظرنا إلى الأحكام التكليفية بدقة أمكن تقسيمها إلى قسمين : واجب وحرام ، نظراً لأن أفعال الواجب أو المستحب أو المباح ما هي إلا وضع الشيء في محله ، ولهذا السبب قلنا أن الإتيان بالواجبات والمستحبات يجلب الصفاء والنور إلى قلب الإنسان ، وارتكاب المعاصي والمكروهات يدخل الظلام في القلب ، وعامة البشر لا يدركون أن الواجبات تدخل النور إلى النفس والمحرمات تجلب الظلام إليها ، لذا فإن كل المستحبات واجبة وكل المكروهات حرام ، نظراً لما ذكرناه من أن الأولىٰ (وضع للشيء في محله) والثانية وضع الشيء في غير محله .

وللسائل أن يسأل : لم عدت الأحكام التكليفية خمساً ؟ (يعني الواجبات والمستحبات والمباحات والمكروهات والمحرمات)؟

والجواب أن سبب ذلك هو التفاوت في الحب والبغض والمصالح والمفاسد ، فاقدام الخادم على قتل ابن سيده بسكين ليس كحيازته السكين المحظورة .

ولذا قيل إن (حسنات الأبرار سيئات المقربين) .

ويقال بهذا الشأن أن شخصاً من المقربين دخل جُنَيْنَة لطيفاً هواؤها ، يرافقه مطر ممتع فاستأنس بذلك وقال : يا له من مطر نزل في وقته فندم على

ما قال واستغفر ربه تعالى مؤنباً نفسه ، ومتىٰ نزل المطر في غير وقته ؟ فالكلام كان معصية منه لمقامه ومنزلته ، ولنا حسنة وله تعالى شأنه مدح وثناء يمنحنا به الأجر والثواب .

~~فالإنسان~~ قال تعالى : ﴿ **إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً** ﴾[1] وهذه المعادلة تعرض على الإنسان فتختلف باختلاف الأشخاص في درجات الإيمان فما كان لشخص كفراً يكون للآخر شكراً . وأن بعض الواصلين في سيرهم يفترضون أن ملكية الإنسان لا حقيقة لها ، ويقولون : إن للملكية معنىٰ واحد وهو أن المالك المطلق الوحيد هو الله تعالى وللإنسان حق التصرف والانتفاع ، قال تعالى : ﴿ **لله ملك السموات والأرض** ﴾[2] و ﴿ **ولله ميراث السموات والأرض** ﴾[3] و ﴿ **لله ما في السموات وما في الأرض** ﴾[4] فهو تعالىٰ المالك الحقيقي ولن نستطيع إدراك ماهية المالكية لأننا كلما حاولنا تعريفها نكون قد أثبتنا شبيهاً ونظيراً لها . ومالكية الله تعالىٰ في الكون لا شبيه ولا نظير لها ، ولذا نصرح بالخيبة والعجز ، فالروح الإنسانية تمتلك صوراً علمية وأخرىٰ ذهنية مرتبطة بها ، تنمحي تلك الصور عند سلبها من الحياة ، وجميع الموجودات كذلك جميع الموجودات فهي تعتمد في قيمومتها وثبوت ذاتها على الله الحق تعالىٰ ومع ذلك فهذه ليست حقيقة الملكية ، وأن هذه الصور الذهنية والقابلية على إثبات الذات هي في الحقيقة مملوكة للغير . وتصوراتنا مملوكة لله جل جلاله هو المولىٰ الحق ، لأن (العبد وما في يده لمولاه) . وبناء على هذه الحقيقة فإن الملكية تنحصر بالخالق والمخلوق . وهو الذي يقدر العطايا للمملوكين فإن شاء

(١) سورة الدهر، الآية: ٣.
(٢) سورة المائدة، الآية: ١٢٠ .
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٨٠ .
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٨٤ .

وسع وإن شاء ضيق .

وأول تلك النعم هو الخلق الذي أبدعه وسخّره لنا (كالشمس والقمر والنجوم والمطر) وغير ذلك ، وقد أذعن الناس لمالكيته تعالى ولم نسمع بمنع لذلك أو حصل نزاع بشأن عائدية شيء ما لبني البشر من المشاعات بين الناس غالباً . وفي موارد التصنيف في النعمة ، فللشارع طرق خاصة في التوزيع والابتعاد عن الفوضىٰ والاستئثار وتحقيق العدالة الاجتماعية .

مسألة أخرىٰ : إننا لا نستطيع الانتفاع بأملاك الآخرين إلا بإذنهم ، والذي يرىٰ الله تعالىٰ مالكاً لكل شيء فعليه استحصال الإذن بالتصرف بأملاكه ، وعليه أن يتصرف بالمقدار الذي يكفيه دون ما إسراف ، وانفاق ما فضل على الآخرين ، وأن لا يحتكر فيحرم غيره من النعم العائدة للمالك جل شأنه ، والتصرف بما ليس من حقه يعد تجاوزاً وكفراً بالنعمة والتوقف عن حدود الله تعالىٰ وبذل ما فضل عن الحاجة يعد شكراً للنعمة ، وأن التفكر في نعم الله تعالى وعدها يعتبر شكراً منّا وإن عجزنا عن الإحصاء ﴿ **وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها** ﴾[1] . وإحدى نعم الله تعالىٰ علينا هي نعمة الأكل والطعام ، والنعمة عبارة عن الخير والسعادة والحصول على شيء يسبب البهجة والسرور ، أما حالة الانزعاج والانقباض وضيق الصدر فمصدرها البلاء والنقمة . وفي المأكل والمشرب أسباب للاستلذاذ والمتعة للبشر ، تسبقها نعم أخرىٰ كي نتمكن من تلك النعمة ونستمتع بها فمنها : ـ

أولاً : علم الإنسان بالمأكول فلولا ذلك لا يسعىٰ للحصول عليه ، وهذا العلم بكل مقدماته يكون نعمة .

ثانياً : القدرة ، وبدونها لا نصل إلى هذه النعمة .

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٤.

ثالثاً : الإرادة والعزم ، فهي التي تحرك الإنسان وتدفعه للوصول للنعمة ، وهذه الإرادة ومقدماتها نعم أخرىٰ خلقها الله تعالى لنا لإدامة الحياة البشرية . ولو نظرنا إلى ما خلق الله تعالى من كائنات أخرىٰ وكيف فضلنا الله تعالىٰ على ما خلق ، فالجماد والنبات والحيوان من مخلوقات الله تعالىٰ العجيبة والتي أودع فيها أسراره المذهلة ، وجعل بينها تفاوتاً ، فالجماد قد استغنىٰ عن الغذاء وافتقد النمو والإحساس والحركة ، والنبات ينمو ويتغذى ويصنع الغذاء بطريقة معقدة ولكنه يفتقد الحركة التي يتميز بها الحيوان وأشرفها الإنسان الذي يتميز بالإدراك والتطور . وهناك قوى مشتركة بين النبات والحيوان ، وهي : ـ

أولاً ـ القابلية على التغذي ، وبواسطة هذه القوة يتغذىٰ النبات والحيوان ، إذ بدون الغذاء فإنهما سيفنيان .

ثانياً ـ القابلية على النمو ، وهي القوة التي تضاعف الحجم والشكل .

ثالثاً : القابلية على التولد : للمحافظة على النسل والنوع . وللحيوان قوىٰ أخرىٰ يفتقدها النبات كالشم ، واللمس ، والبصر ، والسمع ، والذوق . والإحساس باللمس منتشر في كافة أعضاء بدن الحيوان عدا كيس الصفراء . والحيوانات التي ليس لها إلا القوة اللامسة يكون سكنها في التراب وتتغذىٰ عليه ، والإنسان والحيوان أفضل من غيرهما لامتلاكهما للحواس الخمس الضرورية لاستمراره في الحياة .

وأما قوة الحركة (المحركة) فهي ضرورية للبشر كي يستطيع بلوغ أهدافه ، فبواسطة العضلات والمفاصل تتم الحركة عن طريق التقلص والانبساط ، وتصدر الأوامر عبر الجهاز العصبي فتستجيب العضلات والمفاصل وما له دخل بالحركة لذلك ، وقد أحصىٰ العلماء خمسمائة إلى

ستمائة عضلة تشترك عند كل حركة للبدن ، ولكل عضلة حركة معينة ، ولكل عضو غذاء خاص به ، للمحافظة عليه من الضمور والتلف ، ويمر الغذاء الذي نتناوله بعمليات هضم وتحليل معقدة تجعله قابلاً للامتثال فيستفيد منه الجسم بأجمعه .

X وعلى الإنسان الوصول إلى معرفة الله تعالىٰ ، وأفضل سبل المعرفة لله تعالىٰ معرفة الإنسان لنفسه (من عرف نفسه فقد عرف ربه) ، وعليه التفكر في النعم الإلهية التي أغدقها عليه تعالى والتي أصبح شكرها أحد مشخصات البشر ، ودون هذه الخصوصية لا ينال الشرف الإنساني ولا يتفوق على جميع المخلوقات الأخرىٰ بل سيكون أضل منها كما قال تعالىٰ ﴿ **إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً** ﴾[1] .

ومن أعظم النعم على البشر أن الله تعالىٰ جعله أشرف المخلوقات جميعاً ، وميّزه بالعقل والتفكر وبه يصل إلى التوحيد لله تعالى .

واليد نعمة إلهية أخرىٰ فقد كيّفها بطريقة يستفيد الإنسان منها في إنجاز أعماله وتناول غذائه ، وأصلحها بمرفق متحرك ولولاه لما امتاز في غذائه عن البهائم ذوات الأربع في نكس رأسه وتناول طعامه فله الحمد والثناء كما قال إمامنا السجاد (ع) في صحيفته « الحمد لله الذي ركب فينا آلات البسط وجعل لنا أدوات القبض » .

ويروىٰ أن القاضي أبا يوسف كان يوماً جالساً في مجلس هارون الرشيد على الطعام فشاهد هارون الرشيد يأكل بالملعقة فقال له : لماذا تأكل بالملعقة ؟ فقال : كيف آكل إذن ؟ فقال له : روىٰ جدك عن النبي (ص) أن الله تعالىٰ أنعم على الإنسان باليد رحمة به حتى يأكل بها ولم يعط ذلك

(١) سورة الفرقان، الآية: ٤٤.

للحيوان ، فاستحسن هارون هذا الحديث وأمر برفع الملاعق من السفرة وأن يأكل الجميع بأيديهم .

وقد جعل لليد كفاً وللكف أصابع وركز فيها حاسة اللمس حتىٰ يدرك الملموسات بيسر ، فلو فرضنا أن قوة اللمس كانت مرتكزة في جبهة الوجه وحدها ، وأراد الإنسان أن يتحسس سخونة المصباح فإنه سيضطر إلى أن يدني وجهه ويلصقه به ليدرك ذلك ، ولو أن الأعضاء الأخرى لم تكن فيها القابلية على الإحساس لدخلت في النار واحترقت فيها لعدم إحساسها بها ، فهذه نعمة مركبة من نعم الله تعالىٰ أن يجعل اللمس في أطراف الأصابع ولذا خلق الله تعالى باطن الكف بلا شعر وبدون الأصابع لا نستطيع جمع اللقمة للأكل بل نحتاج إلى آلة مصنوعة لالتقاط الطعام لكي تقوم بوظيفة الأصابع ، ولولا المفاصل المتحركة في الأصابع لتعطلت حركتها في الأكل والكتابة وحمل الأثقال وغير ذلك . والأصابع خمسة متفاوتة في الحجم أحدها صغير وقصير وآخر غليظ وقصير وآخر أطول من الجميع وإصبعين متوسطين أحدهما فيه تفاوت قليل من حيث الطول والقصر ، وأي نقص في عدد الأصابع يسبب خللاً في عمل الإنسان ، وعند انبساط الكف يظهر التباين واضحاً ، ويختفي عند إغلاق الكف . وللأصابع قدرة على قبض الأشياء بإحكام ، ولها فائدة أخرى في الدفاع عن النفس وحمل السلاح ، وهي في عين الوقت زينة لليد .

وبعد مضغ الطعام تجري عليه عمليات الهضم والتحليل والتوزيع فيتحول إلى مواد لحمية وعظمية ودموية وعصبية تنفصل عن بعضها ، وكل عضو يحصل على حصته من الغذاء الخاص به وحده . وأول مراحل هضم الطعام في الفم أن يقطع إرباً إرباً بواسطة القواطع التي تعد كالسكاكين ، ثم تذهب إلى عمق الفم حيث تمضغها الطواحن وتلوكها حتى تصل إلى

الأضراس بواسطة اللسان الذي يقوم بوظيفته في تدوير الغذاء ودفعه ، ثم تفرز الغدد الحلقية عصاراتها الصافية والحلوة حتىٰ يصبح الطعام عجينة يسهل بلعها ولعاب الفم له أثره الفعال كذلك . ثم تدفع اللقمة إلى داخل المعدة ، وهناك ممران في الحلق ممر المريء وممر القصبة الهواسية ، وفي كل نفس يدق القلب خمس مرات وللتنفس فتحتا الأنف والفم حيث يدخل الهواء الرئتين كي يكون عاملاً مساعداً في عملية احتراق الطعام . وهاتان الفتحتان متقاربتان ولسان المزمار في أعلى الحلق يغلق فوهة القصبة الهوائية عند ابتلاع اللقمة ثم يفتحها ليتيح للرئتين التنفس في عملية دقيقة مذهلة . وهذه القوىٰ الجاذبة والهاضمة والماسكة والدافعة كلها تعود للقوة المغذية ، أما الجاذبة فقلنا : إن لها القابلية على جذب الغذاء من فضاء الفم وإيصاله إلى المعدة عند انفتاحها لاستقبال الغذاء ، ثم ينغلق بعده ، وللمعدة جدار خشن يحتوي على زغابات وغشاء وخلف المعدة القلب والرئتان وهما يتحركان للشهيق والزفير ، ويسمحان للغذاء الذي في الداخل بالحركة في أثناء ذلك ، ليتغير شكله إلى عصارة تسمى الكيلوس ، فيكون جاهزاً لاستقبال عصارة الصفراء ، ثم يصفىٰ بواسطة الشرايين والأوردة التي تتصل بالأمعاء والمعدة ، وهذه هي المرتبة الثالثة حيث يُمتص الغذاء حسب احتياج الخلايا والجسد ، ويكون أول ذلك عصارة الصفراء التي تنطلق من كيسها ، والثاني البلغم ، والثالث الدم الذي يتصل بالقلب ويتصل بواسطة الأوردة والشرايين بالأوعية الشعرية التي يترسخ منها العرق خارج الجسد ومن جميع أعماقه وأطرافه خلال المسامات . وأما الرابع فالماء المتصل بواسطة الأنابيب بالكلية ثم يصل المثانة من المحالب حيث تطرح الفضلات . أما ما في المعدة فإنه يخرج من خلال بوابة الاثني عشري التي تنفتح لخروج الغذاء ثم تنغلق بإحكام لخاصيتها المطاطية ولا تسمح بخروج

الغذاء ، وتفتح في وقت الحاجة بواسطة القوة الدافقة ، تساعدها عصارة الصفراء ولتعجل باندفاع الكيلوس ، لذا يكون لون الخروج أصفر في الغالب .

وللإنسان ستة أنواع من الأمعاء لكل منهما خاصية :

١ ـ معي الاثنا عشري .
٢ ـ الصائم أو الجاف .
٣ ـ الأمعاء الدقيقة .
٤ ـ الزائدة الدودية .
٥ ـ معي القولون الذي يكون طويلاً ومستقيماً .
٦ ـ معي المستقيم .

ثم تكون تحت الأخير حلقة بسعته تخرج منها الفضلات إلى الخارج . وقد قال الإمام الصادق (ع) : إن من النعم المغدقة على الإنسان الثقبين في أسفله فإن لم يكونا فإن الإنسان يجد مشقة كبيرة في التخلص من الفضلات .

وهذا غيض من فيض النعمة الإلهية كشفنا عنه بهذه الطريقة . فعلىٰ الإنسان التفكر الدائم في أنعم الله تعالى حتى تتعمق معرفته بالله تعالى ونعمه ، ليكون محسوباً من زمرة الشاكرين ، ومن النعم ما هو ظاهر وما هو باطن ومنها ما هو خاص وما هو عام .

أما النعم الظاهرية فهي التي نراها ونحس بها بحواسنا الخمسة وأما النعم الباطنية فإنها التي تدرك بالحواس الباطنية .

وأما النعم الخاصة فإنها خاصة مَنَّ الله تعالى بها على البعض ، وأما النعم العامة فهي التي مَنَّ الله تعالىٰ بها على الخلق كافة ، وهي لا تعد ولا

تحصىٰ .

وكل نعمة ربانية على حدة يمكن تذكرها وأداء الشكر عنها ، فكما ذكرنا سابقاً أنه ورد في الحديث : أن الإنسان إذا قام بالمعصية فإن جميع الملائكة تلعنه ومتى شكر الله تعالىٰ صلّت عليه الملائكة جميعاً ، والحديث عن نعم الله تعالىٰ لا نهاية له ، قال تعالى في القرآن الكريم ﴿ **فلينظر الإنسان إلى طعامه * أنّا صببنا الماء صباً * ثم شققنا الأرض شقاً * فأنبتنا فيها حباً * وعنباً وقضْباً * وزيتوناً ونخلاً * وحدائق غلباً * وفاكهة وأبّاً * متاعاً لكم ولأنعامكم** ﴾[1] لذا يجدر بنا أن نبحث ولو قدراً يسيراً في واحدة من النعم كحبة القمح مثلاً التي أودع الله تعالىٰ فيها من أسراره ما جعلها قادرة على التكاثر والنمو .

فحبة القمح إنما تستفيد من قوتها المغذية ومن الماء والتراب والشمس ، فيظهر الساق والجذور والأوراق ثم السنابل فتصبح حبة القمح الواحدة سبعة سنابل مثلاً . ولولا تلك القوة الإلهية المودعة فيها لنفدت أكداس الحنطة واجتاحت العالم مجاعة مهلكة . وباختلاط الهواء والماء والتربة ، لتصبح صالحة لإنبات بذرة الحنطة ، وبعد خروجها تحتاج لأشعة الشمس ولا بد من إصلاح التربة وتنظيم كمية الماء مع جهود وأتعاب ومراحل حتى تصل لقمة الخبز لأيادينا كما قال الشاعر :

« الغيم والريح والشمس كل في فلكه يعمل حتى تأكل رغيفك بكفك فلا تغفل » هذا ونحن غافلون عما أغرق المولىٰ علينا من جليل نعمه الزاخرة .

وانظر إلى العناصر الأربعة الأساسية في حياتنا يُحيط أحدها بالآخر

(١) سورة عبس، الآيات: ٢٤ ـ ٣٢.

حيث يكون فوق التراب ، والهواء فوق الماء والنار فوق الهواء . أن المخ يكون بمنزلة التراب ، والجلد الرقيق بمنزلة الماء ، والجلد السميك بمنزلة الهواء والجلد الأسمر بمنزلة النار .

أرضنا كانت بهذا الشكل ومجال الساكنين على ظهرها على ثلاثة أقسام : يعيش بعضهم في التراب فقط وبعضهم في الماء وبعضهم في الماء والتراب معاً ، فالحكمة الطبيعية من الأرض والعناصر المذكورة بهذا النحو الذي ذكرناه . وحكمة الله تعالىٰ اقتضت أن يبرز قسم من الأرض إلى الخارج ، كي يعيش عليه قسم من المخلوقات .

وهنا أقوال مختلفة لتفسير هذا الأمر : منها أن الأرض قامت بحركة برزت خلالها من المياه وأن ربع الأرض اليابسة خرجت من الماء وسكنت . والبعض الآخر يقول أن الماء انحسر عنها فبرزت الأرض ، ولكن الاكتشافات الجديدة تقول أن الماء يحيط بالكرة الأرضية إحاطة تامة وأن اليابسة هي في طرفها العلوي والسفلي .

وما عدا العناصر الأربعة هناك النجوم التي نراها في الليل والتي يفوق عددها الحصر وهي لها تأثير في الأشياء من حولنا كما أنّ للقمر بعض التأثيرات فحين يكون بدراً فإن هيجاناً عظيماً يحدث في مياه البحار وهي ظاهرة المد والجزر ، ويوجد نور القمر رطوبة في الأشياء على خلاف الشمس ، ويظهر الندىٰ من قبل القمر . وإن وقف شخص عادي عاري الرأس أمامه أصيب بالزكام ، وإن وقف أمام الشمس فربما يصاب بالجنون لأنها تجفف رطوبة الدماغ ، وهكذا بالنسبة للكواكب فإن وقع نور النجم « سهيل » مثلاً على التفاح فإنه سيمنحه اللون الأحمر ، وما يخفىٰ علينا أكثر مما انكشف لنا .

إن مصدر حرارة النبات هي أشعة الشمس حيث ترسل أشعتها قليلاً قليلاً في « برج الجدي » حتى أول « برج السرطان » ثم يدور قليلاً قليلاً حتى أول برج الجدي ، وطوال هذه المدة فإن الله تعالىٰ يمنح الحنطة الحرارة المناسبة لنموها .

وإذا لاحظنا شروق الشمس وغروبها نشاهد أنها تشرق من نقطة معينة وتغرب من أُخرىٰ مقابلة لها ، وتشرق في كل يوم من أيام السنة من نقطة خاصة فلها في السنة الواحدة ثلاثمائة وستون نقطة شروق وثلاثمائة وستون نقطة غروب ، ولذا قال الله تعالى ﴿ **فلا أقسم برب المشارق والمغارب** ﴾[1] . والعناية الأخرىٰ التي منحها تعالىٰ للقمح ، هي موازنة الحرارة بين الليل والنهار ففي أول برج السرطان ترتفع الحرارة درجة واحدة تكون موجبة لتلفها ، لولا ذلك التوازن الإلهي ، فتتزود بنصف الحرارة نهاراً من الشمس ثم تتزود بالنصف الآخر من القمر والكواكب ليلاً . ويحصل التوازن بزيادة ونقصان الرطوبة حيث تنضج النبتة بصورة طبيعية .

فكيف يتجرأ المرء على إهانة نعمة الخبز بوطئها بقدمه متعمداً ، فهو إنما يطأ بقدمه كل هذه الأجهزة والمصانع ويستهين بكل الجهود التي بذلت من أجل لقمة الخبز هذه في جميع مراحلها وهو كفران بالنعمة ، وشكره إنما هو احترام ، وعلى عكس ذلك إن لكل ما بذل من جهود ، وشكر لله المنعم العظيم ، وعلى المرء أن يبذل الجهد الكبير لدراسة ما حوله بفكره فيتعرف على عظمة الله جل جلاله ، وقصدنا هو فتح السبل للتفكر والتدبر والإثبات إن نعم الله لا متناهية .

ومن النعم الإلهية الأخرىٰ : الماء الذي جعل الله منه كل شيء حي ،

---

(١) سورة المعارج، الآية: ٤٠ .

يقول العلماء المعاصرون : إن جوهر الماء يتألف من ثمانين جزءاً وهذا الموضوع يحتاج إلى خطوط بيانية ومعادلات وإلى معرفة كافية ومثابرة حتى يتضح الأمر ، وليس لنا القابلية على توضيح ذلك ، المهم أن المزرعة محتاجة للماء فتكون الحاجة لجريان الماء على الأرض من المنبع إلى المصب فتتشكل البحيرات ، ثم تسيل منها الأنهار ، ثم تتفرع منها الجداول والقنوات التي تتصل بالمزارع فتسقيها بالمياه ، ومن الأراضي ما تحضر لها الآبار لتعذر وصول مياه الأنهار إليها ، فتكون الزراعة على قسمين : ديم وسيح ، فأما الديم فهي الزراعة التي تعتمد على الأمطار في إروائها ، وأما السيح ، فهي الزراعة التي تعتمد على الأنهار وقنواتها . ومصدر المطر هو السحاب فإذا التقىٰ المطر عند نزوله بطبقة هواء باردة فإنه سيصبح برداً ، وإن التقت قطرات البرد إحداها بالأخرى وتصادمت عند نزولها أصبحت جليداً . وتجول السحب والغيوم في الفيافي والوديان طبق الأمر الذي يسيرها ، وترشق الأرض بزخاتها حتى تشبعها . وقد جعل الله جل جلاله مخازن هائلة للمياه صيفاً حيث تنقطع الأمطار وما هي إلا الجبال والثلاجات الهائلة التي تخزن فيها المياه على شكل جليد .

وبما أن كل منطقة وكل إقليم يختص بزراعة محاصيل تلائم مناخه فستظهر الحاجة لوسائل النقل والشحن لسد حاجة كل إقليم مما تنتجه الأقاليم الأخرىٰ وبواسطة التجار والكسبة الذين يبذلون الجهود والأموال ويجنون الأرباح والرفاه لبلادهم .

عرفنا أن أنعم الله تعالى خارجة عن حد الإحصاء ، ونريد أن نعرف ما هو سبب غفلة البشر عن شكر هذه النعم الإلهية ؟ ولم لا يحسون بالسرور لوجود مثل هذه النعم ؟ فنقول أن سبب انصرافهم عن شكر الأنعم الإلهية سببه عدم شيئين :

الأول : معرفة النعمة . والثاني : المعرفة بشكر النعمة ، وهذا يعني أن الشخص إن لم يكن عارفاً بالنعمة فإنه لن يشكرها .

وتطرقنا سابقاً إلى معرفة النعمة وتقسيماتها وقلنا أن النعمة ظاهرة وباطنة وعامة وخاصة ، وعلمنا أن هذا يحصل بواسطة التفكر بآلاء الله .

وأما المعرفة بشكر النعمة : فهي معرفة التصرف بالنعمة في الموضع الذي خلقت لأجله .

وعدم الشكر للنعمة : إما من ناحية الجهل بها أو الجهل بشكرها وإما من موقع الغفلة عنها ، أو لوجود موانع لشكر النعمة كالشهوة مثلاً . هذه هي موجبات الكفر بالنعمة أو عدم الشكر لها .

١ ـ الغفلة تكون بسبب عدم استيعابنا للنعم العامة .

٢ ـ دوام النعمة .

ولو أن الإنسان حرم من نعمة البصر ثم عادت إليه ثانية فكم سيكون مسروراً بذلك ، ولكنه غير ملتفت غالباً إلى تلك النعمة حتىٰ تسلب منه فيشعر بقيمتها وينفق أموالاً لاستعادتها ، وإذا أجلنا النظر في كافة النعم الباقية نرىٰ أننا غارقين للأذقان فيها . ونروي بهذا الصدد حكاية لواحد من حفظة القرآن أصابه الفقر المدقع الشديد فاشتكىٰ مبدياً فقره فجاءه أحدهم قائلاً : أُعطيك عشرة آلاف دينار على أن تنسىٰ مثلاً سورة ياسين ، قال الحافظ : لن أفعل وإن أعطيت ذلك . قال الرجل : أُعطيك المبلغ على أن تنسىٰ أو تمحو سورة الأنعام من ذهنك . قال : لن تنال ذلك ، وكلما ذكر له سورة مباركة قال له : لن تنال ولن أعطيك . فقال له الرجل : فإن كنت مالكاً لكل هذه النعم والثروات فلماذا تظهر الفقر وتشتكي للناس ؟

والنعم الخاصة هي التي تعود لذات الشخص ، ذكرنا سابقاً أنها ثلاثة أشياء :

الأولى العقل : ولو أن العقل صفة مشتركة ، نظرياً ، ولكن الله تعالىٰ قد أنعم برحمته على كل فرد بمقدار من العقل حتى نصل إلى أعقل كل الناس ، ولا نجد أحداً يقول أن في عقله نقصاً عدا عدد قليل من الناس ، وقليل من الناس من يطلب في دعائه من الله تعالى أن يمنحهم عقلاً أكمل ، وليتنا ندرك قيمة العقل لنطلب عقلاً مثل عقل النبي (ص) ؟ ، ولكننا نتمنىٰ ثروة فلان من الناس ، فهل نحن راضون بعقولنا ؟

ونريد أن نعلم هل أن لأولوية العقل ورجحانه مصداقية أم لا ؟ ويجب الشكر لتلك النعمة التي تعد كالكنز الذي يدخره الشخص ويتفحصه في كل ليلة ثم يضعه تحت رأسه وينام خوفاً من سرقة اللصوص له ، وإن سرق منه الكنز فإن ذات الإنسان ستبقى ولن يحدث فيها اختلاف ، إلا أن فقدان العقل خسارة عظمىٰ لا تعوض ولا تجبر حيث هو المائز بين الإنسان وما سواه من كائنات سخرها تعالىٰ له وجعله سيداً بعقله عليها .

الثانية : العلم ـ فكل شخص يختص بشيء معين من العلم ربما يفتقر إليه الآخرون ، ولكل مساوىء أخلاقية وممارسات غير محمودة سترها الله تعالى بلطفه عن غيره ، إذ لو شاعت بين الناس لكان وقعها فاضحاً مخجلاً ، وستكون سبباً لشيوع الرذيلة في المجتمع الإنساني وتؤدي إلى انهيار البشرية . إذن فإن هذا العلم نعمة خاصة بكل فرد من أفراد البشر ، تستحق الشكر .

الثالثة : الأخلاق الحميدة ـ يتمتع بعض الناس بأخلاق حسنة يفتقدها غيرهم ، وهي نعمة إلهية ، وعلينا بتزكية أنفسنا ، لنصلح ما فسد من

أمرنا ، دون أن نفتش عن عيوب الآخرين ، وأن لا نستخدم الفم الذي هو من النعم الجليلة في إفشاء عيوب الناس .

يقول الشاعر سعدي الشيرازي :

« ليس من المروءة والرجولة أن ترىٰ عيوب الآخرين بل انظر إلى كل عيوبك فسوف تحاسب عليها أنت لا سعدي فلا تتباه ببضاعة القيامة في هذه الدنيا) .

فعلى من يرىٰ نفسه عارية من العيوب أن يشكر هذه النعمة بغض النظر عن صدق ظنّه أو كذبه ، لأن الشكر واجب هنا .

ونريد أن نبين ما هو العلاج لأكثرية الناس التي تنصرف عن شكر النعمة .

إن علاج ذلك يتفاوت بالنسبة للأشخاص ، فهم على صنفين :

الأول : أهل البصيرة : أولئك المهتدون الذين انتفعوا بما تفضل به الله تعالىٰ عليهم من التوفيق والعناية ، فلديهم النعم وهم يعرفونها ويصرفونها في رضا الله سبحانه بسرور وارتياح ، لأنه أراد ذلك .

وهناك ثلاث طرق لتهذيب النفس :

١ ـ الأستاذ الخاص الذي يقتدي به ويحضر عنده كي يتعلم منه نظرياً وعملياً ، ويبدأ بتخلية نفسه من الأخلاق الذميمة .

٢ ـ التفكر الدائم في نعم الله تعالىٰ ، وتنظيم أوقات دورية للمباحثة مع غيرنا كي تترسخ في قلوبنا معرفة النعم ووجوب شكرها ، ولكن الغفلة والمعصية سبب مانع من حصول ذلك .

٣ ـ تشكيل مجالس الوعظ والإرشاد باستمرار والإكثار منها ، وإلا

فإن الفائدة ستكون محدودة وضئيلة . وسينتفع أهل البصيرة بذلك كثيراً ، أما غيرهم فإن التعامل معهم بهذه الوسائل لا يجدي كثيراً وكأنما في آذانهم وقراً .

وعلاج هؤلاء بالانتهاء عما هم فيه والبدء بتغيير أنفسهم من الداخل تدريجياً وسوف تتغير أخلاقهم نتيجة ذلك وتتهذب ، لأن الشخص إذا نظر إلى ما أنعم الله تعالى عليه فإنه سوف يحصل على السرور ويكون راضياً . وزيارة القبور من البواعث على الزهد في الدنيا ، والاتعاظ بزيارة المرضىٰ في المستشفيات للاستشعار بنعمة الصحة ، وانظر إلى أهل الابتلاء واحمد الله تعالىٰ ليحصل لك السرور والاطمئنان .

وعلىٰ الإنسان أن ينظر إلى من هو خير منه في الأمور الأخروية ، فإنه سيرىٰ نفسه مقصّراً ويكون ذلك سبباً لانتباهه من الغفلة ، ودافعاً لتهذيب أخلاقه ، وأن ينظر إلى من هو دونه في الأمور الدنيوية وعندها سيكون قانعاً شاكراً لما وهبه الله ، ويكون ذلك داعياً لازدياد النعمة ، لأنه جاء في الرواية « من نظر في الدنيا إلى من دونه ، ونظر في الدين إلى من فوقه كتب صابراً وشاكراً ، ومن نظر في الدنيا إلى من فوقه ونظر في الدين إلى من دونه لم يكتب صابراً ولا شاكراً » لكي لا يبقىٰ غارقاً في دوامة من الغم والهم نادباً حظه ، ولن يكون راضياً عن نعمته في أي وقت من الأوقات ، فلا تشكر ولا يصبر .

من شاء عيشاً رحيباً يستظل به ... في دينه ثم في دنياه إقبالاً
فلينظرن إلى من فوقه ورعاً ... ولينظرن إلى من دونه مالاً

وجاء في بعض كتب الحديث « إن عبداً أغنيته عن ثلاثة فقد أتممت عليه نعمتي ، عن سلطان يأتيه ، وعن طبيب يداويه ، وعن ما في يد

أخيه » .

قال الشاعر :

إذا ما القوت يأتيك كذا الصحة والأمن وأصبحت أخا حزن فلا فارقك الحزن

وروىٰ عن رسول الله (ص) أنه قال : « من أصبح آمناً في سربه معافىٰ في بدنه ، عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها » .

وتبرز هنا نتيجة علمية تترتب عليها نتيجة عملية : وهي أن كل الموجودات من الثرىٰ حتى الثريا ، هي نعمة ، وكل واحدة مرتبطة ومتعلقة بالأخرىٰ فيبدو عندنا سؤال عن البلاء الذي أمرنا بالصبر عند نزوله فكيف يمكن تصوره كنعمة وهو بلاء ؟

والجواب : للنعمة أقسام ، من جملتها النعمة المطلقة والنعمة المقيدة يقابلهما البلاء المطلق والبلاء المقيد ، والنعمة المطلقة حسنها ذاتي ، والنعمة المقيدة حسنها عرضي ، وكذلك البلاء المطلق قبحه ذاتي ، والبلاء المقيد يكون قبحه عرضياً ، إن النعمة المطلقة هي النعمة التي لا يمكن تصور أي نوع أو أدنىٰ قدر من البلاء معها ، وتلك تكون في الدار الآخرة عبارة عن القرب من الله تعالىٰ وفي أحضان الجنة القدسية ، وأما في دار الدنيا فهي عبارة عن الايمان كمقدمة للنعمة المطلقة في الآخرة ، والبلاء المطلق هو البلاء الذي ليس فيه أدنىٰ أثر للنعمة ، وهو في الدار الآخرة عبارة عن البعد عن الله سبحانه ومآله جهنم وبئس المصير ، وهو في الدنيا عبارة عن الكفر ، ولا يسعنا إيصال معنىٰ هذه الحيثية للذهن ، ولكننا نستطيع استشفافه من درجة الحب والعشق التي نعيها دوماً تجاه حبيبنا ومعشوقنا الخالق الأعظم ، فكلما أحسسنا بحائل بيننا وبينه أدركنا ابتعادنا عنه سبحانه وتعالىٰ . إذن فلا نعمة أعظم من القرب إلى الله ، وكذلك لا بلاء أعظم عن

البعد عنه تعالىٰ .

وتكون النعمة المقيدة نعمة بالنسبة لنا ولكنها قد تكون بلاء ، كالمال والثروة التي يكون إنفاقها والتصرف بها في أوجه الخير جيداً كالانفاق في سبيل الله ورفع غائلة الفقراء والضعفاء ، ومن جانب آخر تكون سبباً في طغيان وعناد البشر لخالقهم الكريم وموجباً للانحراف عن الصراط المستقيم .

وأما واجبنا تجاه البلاء المقيد فهو الصبر وتجاه النعمة فهو الشكر ، ولا معنىٰ للصبر تجاه البلاء المطلق ، حيث لا أثر ولا جدوىٰ فيه كما لا أجر عليه .

وقد قسم علماء الأخلاق ، النعمة الموجبة للشكر والبلاء الموجب للصبر ، حسب قوة شهوة الغضب والعقل ، إلى أربعة أمور :

الأول : الموافقة لقوة الشهوة والمنافرة لقوة العقل كالسرقة والزنا والقمار وسائر المحرمات .

الثاني : الأعمال المنافرة لقوة الشهوة والموافقة لقوة العقل ، كالوضوء والعبادة في الليالي الشتائية الباردة ، والصيام في أيام القيض الطويلة .

الثالث : الأمور المنافرة للشهوة والعقل كالجهل مثلاً فهو مبغوض للغاية وليس مرغوباً به من قبل الشهوة فضلاً عن العقل .

الرابع : الأمور التي تكون مقبولة من قبل الشهوة والعقل كالعلم ، فهو موجب للرفعة والكمال ، ومع ذلك فهو نعمة من ناحية وبلاء من ناحية أخرىٰ ، وكذلك الجهل في بعض الأحيان .

والمسألة الأخرىٰ التي يكون فيها الجهل نعمة هي الحالات التي يخفف فيها العقاب عن الإنسان بسبب جهله فلو كان عالماً كان عقابه أشد « من أهان ولياً لي فقد أهانني » .

ونتيجة لما تقدم فعلىٰ الإنسان واجبان ، أولها الشكر وثانيها الصبر ، والإشكال الوارد هنا هو : أن الإنسان إذا كان صابراً فكيف لا يتجرع الحزن والأسىٰ وكيف يكون مسروراً بأنعم الله تعالى ؟ وإن كان مسروراً بأنعم الله تعالىٰ فكيف يكون صابراً ؟

وللجواب عن هذا الإشكال : أنه يمكن للشخص أن يكون مسروراً وحزيناً بالنسبة لشيء معين في آن واحد ، ونضرب لذلك مثالاً :

وهو أنه عندما يصف الطبيب لنا دواءً كعلاج ويكون مراً ذا رائحة مزعجة فسوف ننزعج ونستاء حين نتناوله لأن طبعنا ينفر منه ، ولكننا مسرورون رغم ذلك لاستعادة صحّتنا به وزوال المرض .

وأخيراً فإن النعمة والبلاء لا يقفان عند حدّ . ولنفترض أن للبلاء عشر درجات وقد أصابت شخصاً ما فإنه سيكون مستاءً ، لإصابته بالبلاء ، ولكنه سيكون مسروراً عندما يعي أنه لم يصب ببلاء أعظم ممَّا أصابه .

والنتيجة أن الوصول إلى هذا الحد من البلاء يكون مدعاة للسرور ومدعاة للحزن ، ومن ناحية أخرىٰ أصبح معلوماً أن لكل بلاء شكر لأن فيه سروراً ، ومعنىٰ البلاء المقيد هو أنه يصبح طريقاً للوصول إلى السرور ، وإن وصلت حالة المرء إلى الحد الذي يغلب فيه السرور على الحزن فإنه قد اجتثت جذور البلاء من قلبه وأضحىٰ شاكراً على الدوام ، وأفضل أشكال الشكر هو أن يرىٰ الإنسان البلاء نعمة يشكر الله تعالى عليها .

يقول الشاعر :

(أنا عاشق حال اللطف وحال الإساءة ! فمـا أعجبنـي مـن عـاشـق لضـديـن)

وللابتلاءات المقيدة عدة وجوه :

أولها : أن الإنسان كان يمكن أن يصاب ببلاء أعظم من الذي هو فيه في الدار الدنيا ، ولذلك قيل : إنه مسرور ومستاء في آن واحد .

ثانيها : أنه من الممكن أن يصاب فجأة بالبلاء الديني بدلاً من البلاء الدنيوي ، وبالطبع فإن أصغر بلاء ديني يكون أشد من أكبر بلاء دنيوي بأضعاف ، لأن البلاء الدنيوي ينتهي ويزول كما أن الإنسان يثاب عليه ، أما البلاء الديني فأثره لا يزول أبداً ويكون سبباً للشقاء والعذاب .

وبهذا الصدد ننقل هذه الحكاية قال شخص : لقد دخل اللص دارنا وسرق كل ما لدينا من مال ، فأجابه صاحبه عليك أن تكون سعيداً لأنه لم يسرق ما في قلبك من إيمان .

وحكاية أخرىٰ عن شخص أعمىٰ ومقطوع اليدين فهاجمته الزنابير يوماً تلسع بدنه حيث تشاء فحمد الله وشكره على ذلك ، فسخر منه بعض المغفلين قائلاً : ما الذي مَنَّ الله تعالىٰ به عليك حتى تشكره ، فأجابه واثقاً : إنها نعمة الإيمان في قلبي ، فيتبين لنا أن أعظم الابتلاءات الدنيوية ترد الإنسان عن طريق بدنه ثم تتناول روحه فيما بعد ، لكن الابتلاءات الدينية ترد الروح وتكتسحها أولاً ثم تتناول الجسد بالتحريب ، والبلاء الذي ينزل بالروح يكون أشد وأعظم قطعاً ، والإحساس بألمه يكون أشد وطأة من البلاء الدنيوي .

والأمر الثالث : أننا سوف نعجز عن تقييم مقدار الحب الذي يكنه الله

تعالىٰ لعباده الذين أسبغ نعمه عليهم ، ومثال ذلك لو أن شخصاً فقد حاسة تذوق الحلاوة ، فإن أعطيناه قطعة سكر فإنه لن يجد لها طعماً ولن يشعر بذلك مهما أجهدنا أنفسنا بتصوير حلاوتها له ، فإن عادت إليه حاسة تذوق السكر ، فإنه سيحس بها دون أدنى عناء وبهذا نكتشف مقدار الكرم والنعمة والرحمة الإلهية بالعباد . فحاشا ذلك الرحيم الكريم أن يبتلي عباده بما لا طاقة لهم به ابتداءً ، ولعل الابتلاءات التي تنزل بالعباد إنما هي لتلافْي ما فات من ذنب وتقصير ، وذلك يعني أن الذي ينال العقوبة الدنيوية ، ستكون زكاة للإنسان وتطهيراً من أدران الذنوب ، فيذهب نقياً طاهراً .

قال الرسول الأكرم (ص) : « ملعون من مر عليه أربعون يوماً ولم يبتل فيها » . فضج أصحابه قائلين : « ما لنا لم نبتل يا رسول الله ؟ فقال (ص) : حتى الخدش أو وخزة الشوك هي بلاء لكم وتحسب لكم » . وبناء على هذا يكون التعجيل بالعقوبة ذاتها نعمة من نعم الله تعالىٰ .

الأمر الرابع : أن كل الابتلاءات الدنيوية ما لها للزوال ، ويقع الإنسان في نعمة مفرحة عقب زوالها ، كشخص ابتلي بمرض يتوقف شفاؤه على إجراء عملية جراحية له فسوف يبقى في دوامة من الجزع والأسىٰ حتى تجري تلك العملية فينسىٰ الألم والجزع ولا يذكره إلا كخاطرة للتندر .

الأمر الخامس : أن البلاء ذاته طريق للوصول إلى الله تعالى ، وبابٌ للسعادة الأبدية ، وما السعادة إلا طهارة القلب وسلامة الفكر ونزاهته تجاه الله تعالى ، وتنزيهه عمن سواه ، ولن يحصل ذلك إلا بإخلاص النية في العمل ، فإن وصل إلى هذه الدرجة يكون حاله كمثل الذهب والفضة التي تذاب بالنار وتصهر لتصفىٰ من الشوائب وتخلو البودقة إلا منهما .

والإخلاص في العمل خلوّه من الشرك والرياء ، وأن يكون لله وحده ،

فكلما ابتعد الإنسان عن الله تعالى ، فذلك لعدم إخلاصه له وحده ، وكلما اقترب منه فلأنه عبده بما يليق بشأنه تعالى . ويمكن أن تبعد بعض العبادات المعوجة الإنسان عن عبادة الله تعالىٰ وتكون سبباً للآلام والأسقام الروحية ، ويتم الشفاء منها بقطع دابر العلاقة بغير الله تعالى ، وهي السعادة الحقيقية ، وبناء على ذلك فإن كل الآلام والمعاناة التي سينالها الشخص في مراحل علاجه هذا سوف توصله إلى النقاهة الدائمة من المرض ، لذا فإن كل ما يمر على الإنسان من كوارث يكون في صالحه لأنها ستوصله إلى مطلوبه والأسباب تكون حياة الأولياء والصالحين كلها محن وابتلاءات ، كي يزهدوا بحب الدنيا وزخرفها . ولا نتوهم من كلامنا أن كل من يتوجه بكيانه لحب الله تعالى فإنه سيحرم نفسه من اللذائذ الوهمية .

وقد قال الله تعالى في كتابه العزيز ﴿ **ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي** ﴾[1] يعني أنها من عالم الطهر والتجرد ، ولضيق المجال نقول في المسألة : إن الروح تتنزل من عالم الأمر ، وهذا معناه أن كنه الأرواح يتناسب مع الذات الإلهية المقدسة ، وهذه الكنهية حجزت عن الذات الإلهية بأستار وحجب البدن ، وبهذا المعنىٰ فإن الجسد يكون مانعاً للروح من الانطلاق لأداء فعالياتها الخاصة بها، ولأن الجسد يكون عائقاً للروح من التزود بلذائذها الخاصة فإنها حين تنفصل عن الجسد عائدة إلىٰ منابعها تنال ما لا يوصف ولا يتناهىٰ من اللذة ، ورفع العائق يستعصي فهمه في بعض الأحيان ويصعب تصوره . وإنما يمكن رفع العائق لدى الشخص في حالة الاضطرار القصوىٰ حين يكون كل توجهه وانتباهه منشداً إلى الله تعالى وحده ، فالحسين (ع) قال عند شهادة علي الأكبر (رض) قال : « على الدنيا من بعدك العفا » ، ولكن ليس من اللائق بنا أن نطلب البلاء من الله تعالى ،

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

بهدف الوصول إلى ظل الله تعالى والتفيؤ به فهذا خطأ فاضح ، لأننا لم نعثر على مثل هذا الطلب والالتماس في كافة سير وأحاديث الأئمة المعصومين ، بل على العكس من ذلك إنما يجب مناجاة الله تعالى بالقول الطيب وكلمات اللين لطلب العافية وطول العمر بخير وعافية ، وهكذا ورد في (زاد المعاد) دعاء عن المعصوم (ع) ، وبذلك الأسلوب عرض كل الأنبياء رغباتهم على الله تعالى :

«اللهم فلا تبتلني ، فإن ابتليتني فصبرني ، ولكن العافية أحب إلي » فالإمام (ع) لم يطلب وقوع البلاء من الله تعالى ، ولكن بعض الناس تصل بهم الجرأة إلى رواية تقصيرهم فقط كالذي يقول : « ربي لشدة محبتي لك فإني راض لأن يعبر الناس جميعاً على جسدي ثم أسقط في نار جهنم » . إذن فهذه صفة نقص ، فلو كانت كمالاً لقالها الأئمة الأطهار (ع) أيضاً ، ولكن الواقع أنهم يطلبون العافية . والدليل الآخر على هذا الحديث ، أنه يقع في باب المجاز حين يكون المحب في حالة وجد تدفعه إلى التضحية بحياته من أجل محبوبة ، ومثل هذه الكلمات ليس فيها تأسف وأسىٰ لأن قائلها سوف يتخلى عنها بعد حين أو برهة . وهذه الحالة نادرة بين الناس ، ولعلها تحدث في العمر مرة واحدة ، وهي مثل البرق سريعة الظهور وسريعة الزوال ، إن هذه الصفة صفة كمال وصفة نقص في آن واحد ، إذ لا يمكن تصور لذة فوق تلك اللذة ، وأما كونها نقصاً فلأنها سريعة الزوال ، عندما يصل المرء إلى هذه المرتبة ، فكل ما يقوله يكون عن لسان المحبوب ، وكلما يسمعه يكون بإذن المحبوب ، وكل ما يفعله يكون بإرادة المحبوب ، وهذا هو معنىٰ الانجذاب ومعنىٰ الفناء والمس الإلهي .

يقول الشاعر : « ذهل الريم أمام الأسد فنسي نفسه وألقاها في أحضانه » وفي الواقع أن ذلك السلوك لم يكن باختياره بل كان بإرادة الأسد

كالمغناطيس الذي يجذب الحديد إليه بشدة دون اختيار الأخير ، ولأن إرادة الإنسان تكون تابعة لإرادة الله لذا تكون أفعاله إلهية وأعماله ربانية ، لأنها نابعة من عين المحبة الصافية .

ونتيجة لهذه المقدمات يكون من الممكن عندما يصل الشخص إلى هذا المستوىٰ فإنه سيشعر بلذة منقطعة النظير عند الابتلاء .

يحكىٰ أن الأحنف بن غيث اشتكىٰ من ألم بضرسه إلى عمه ثلاث مرات ، فقال له عمّه : ما أكثر شكايتك من ألم طارىء بضرسك ؟ وإني أعمىٰ منذ ثلاثين عاماً ولم أُظهر ذلك لأحد . إنه لم يشك همّه إلا لله تعالى وحده ، ولم يبث شكايته حتىٰ أمام ملائكة الله ، لكي لا يطلع على ذلك أحد غيره ، وهو يريد مقابل ذلك الصبر والمعاناة وعدم التشكي للناس أن لا يطلع أحد على ذنوبه غير الله تعالى ، فيستر الله تعالى عليه كما تحمل وصبر على فقدانه نعمة البصر .

في بيان أيهما أفضل الشكر أم الصبر

في الأبحاث السابقة ذكرنا أن كل مرتبة من مراتب السائرين إلى الله تعالىٰ ذات شعب . إحداها : العلم ، والثانية : العمل ، والثالثة : الحال . وقد شرحنا ذلك في باب الصبر والتوبة وقلنا أن الحال تتولد من العلم وهي تولد العمل ، ويحصل العلم إما بالاكتشاف أو بالمعاملة ، وعلوم التطبيق كذلك على قسمين : جوارحية وعضوية . وتكون الأولىٰ الفقه الأصغر والثانية الفقه الأكبر ، أو ما نسميه بالأخلاق ، وعلم المعاملات أفضل نظراً لأن من لا يقوم بأداء واجباته يفقد الفضيلة ، وإن لم يقترن علمه بعمل سيكون ذلك العلم خسراناً ووبالاً عليه . وبهذا يثبت أن العمل أفضل ، ولكن في العلوم الاكتشافية ، أي علم معرفة

الله (اللاهوت) تكون الأفضلية بالعلم ، وهو أيضاً على قسمين :

١ ـ المعرفة المطلقة .

٢ ـ المعرفة المقيدة .

أما المعرفة المطلقة فإن من يصل إليها لن يذهب إلى مكان آخر غيرها ، وهي ما يعبر عنها (بالمطلوب لذاته) ، وتعني المعرفة بالله جل جلاله وبصفاته الجلالية والكمالية ، ولا توجد مرتبة فوقها . وينطبق عليها حكم المرآة في تدرج البشر في مدارج المعرفة العلمية والتي تكون في القلب ، وبواسطتها تتكشف حقائق أخرىٰ ترىٰ في هوامشها عند إحالة النظر . ونضرب هنا مثالاً بالنظر إلى المرآة لا إلى الجدار والباب ، لأننا إذا نظرنا إلى الأخيرين فإننا لن نرىٰ سواهما شيئاً ، ولكن إذا نظرنا إلى المرآة فإننا إضافة إلى رؤية الباب والجدار فيها سنرىٰ أشياء أُخرىٰ تعكسها لنا لم تكن في الحسبان ، فالشجاعة ، والشهامة والبخل والحسد والصبر والتوكل ، جميع أولئك يكون حكمها حكم الجدار ، ولكن بالتعمق فيها عن طريق العلم النفساني تترتب عليها أشياء أخرىٰ كثيرة وتكون معلومة بواسطة إمعان النظر .

والنظر في المرآة يتخذ شكلين :

أولهما : النظر الاستقلالي ، وفيه تكون الغاية من النظر في المرآة هي رؤية ذات المرآة ، لاختبار جنس مادتها ، ولذا فإننا لا نرىٰ غيرها .

ثانيهما : النظر الإرادي ، وفيه يكون النظر في المرآة بوصفها وسيلة تتيح رؤية الأشياء ، فتكون مرآة القلب مرآة معرفة الله تعالىٰ .

فإذن يمكن أحياناً أن تكون الغاية من المشاهدة معرفة الله جلّ جلاله .

إذن ففي خضم هذه الفعالية لن يشاهد المعلوم ، أما حينما يكون الغرض من المشاهدة المعلوم ذاته فلن نرىٰ العلم أو المعرفة . وفي هذه الحالة حين ننظر في القلب نرىٰ الله جلّ جلاله ، وتكون هذه المرحلة آخر المراحل وأعلى المراحل .

والحاصل أن العلم التحصيلي الحر هو العلم الذي نريده لذاته ، وفي الوقت نفسه تكون فيه مقدمات للوصول إليه ، وفي بعض أقسامه لا توجد واسطة بينه وبين المعرفة ، وتوجد في أقسام أخرىٰ ، وتكون له واسطة واحدة أو واسطتان أو ثلاث أو أكثر . ومراتب السائرين كدرجات المنبر ، فالذي يريد ارتقاءه عليه أن يتخطى العتبات واحدة تلو الأخرىٰ حتى يصل إلى كرسي المعرفة . ومن البديهي أن العتبة العليا أفضل مما دونها من العتبات ، لأنها تكون أقرب إلى المطلوب لذاته .

وحصيلة ذلك أننا إن أمعنا النظر في علم المعاملات فبالطبع سيكون العمل أفضل من العلم ، وإن أجلنا النظر في العلوم التحصيلية يكون العلم أفضل من العمل بالطريقة التي بيّناها ، ونجد في العلم أيضاً شعباً متعددة ، فبعضها تدعىٰ بـ « عين الفضيلة » والآخر « صاحب الفضيلة » وأخرى« دون العمل » .

أما « الحال » فلأجلها توجد الروح الصافية فتصبح مرآة ، والحال يدور في فلك جمال الله تعالى ، فتصبح صورته في المرآة واضحة برّاقة ، وما القصد من الحالات الأخلاقية إلا هذه النتيجة . إذن فالعمل مقدمة للحصول على الحال ، والحال مقدمة لإيجاد العلم ، فتكون النتيجة أن العلم هو الأول وهو الآخر ، وبهذا يتأسىٰ بالله تعالىٰ حيث ورد في القرآن

الكريم ﴿ هو الأول والآخر ﴾[1] .

إذن فالحال يكون من أجل صفاء وصقل الروح من أجل محاكاة صفات الجمال والكمال الإلهية ، وإنما يحدث هذا لأنه سيقع مقابل عالم الغيب وبذلك تنعكس فيه صورة ذلك العالم الغيبي ، فما أن يزول صدأ المرآة التي اتّسخت برماد الأعمال ، حتى تصبح صافية ومستوية وصقيلة مؤهلة لتجلي المحبوب فيها .

وأما العمل الذي سبق ذكره كمقدمة للحال الذي يطهر صفحة القلب من غبار وكثافات المعصية لتتأهب المرآة لاستقبال نور شمس عالم الغيب ، فيجب أن تعلم أن أي شيء يوجد أثراً في القلب حتى الخواطر القلبية ولو أن أثرها لا يدرك ، وإن وجد ذلك الأثر فإنه سيتخذ شكل ظلمة في القلب تسمىٰ المعصية ، والعمل الصالح كالطاعة والعبادة يوجد نوراً وصفاءً ، وهذه الآثار تتفاوت في ضعفها وشدتها كشدة وضعف الطاعة والمعصية .

إذن فلأجل اجتثاث جذور ظلمة المعصية من القلب نكون بحاجة إلى العمل ، ويجب أن يكون ذلك العمل من نفس صنف المعصية ويوازيه ، فالبخيل إذا أراد أن يتخلص من رذيلة البخل لن ينفعه إقامة الصلاة الكثيرة ولا الصيام ولا الجهاد في رفع أدنى أثر للبخل ، إنما يكون رفع تلك الصفة الذميمة بأداء الخمس والزكاة والإنفاق في سبيل الله تعالى ورفع عوائل الضعفاء والفقراء ، نظراً لأن هذا هو العمل الذي يتفق مع رفع صفة البخل ، كمثل الذي أصابه الصداع ، فإنه لن ينفعه دواء ألم المعدة ، بل ستظهر آثار جانبية نتيجة لذلك الدواء الذي ليس في محله .

وعليه فإن التفاوت في الأعمال من حيث الشرف في المنزلة يترك في

---

(١) سورة الحديد، الآية : ٣.

القلب أثراً متفاوتاً في الشدة والضعف ، وذلك يعني أنه كلما كانت دواعي التعلق بالله تعالى أشد كان العمل أفضل ، وكلما كانت أضعف كان العمل أقل فضيلة ، وبناء على هذا فإن أفضل الأعمال وأحسنها هو أداء الصلاة في وقتها وبشروطها حيث ورد (فريضته خير من عشرين حجة) . وكل تشريع أو فريضة أمر بها الشارع المقدس تكون صحيحة في موضعها ولكن إن لم تكن في موضعها فإن الإنسان سيواجه الهلاك . فمثلاً ورد في القرآن الكريم أن العسل ﴿ فيه شفاء للناس ﴾[1] ، ولكن إن أصابت شخص الحمىٰ وتناول العسل فإنه سيتعرض للخطر الشديد . فتبعاً لاختلاف الأحوال تختلف الأعمال أيضاً ، فإن طرح سؤال : أيما أفضل الماء أم الخبز ؟ نقول هذا السؤال ليس وجيهاً ، لأن الشخص إذا جاع فإن الخبز سيشبعه ، ومتى ما كان عطشان فإن الماء سيروي ظمأه ، ولا يمكن وضع ميزان أو مقياس ثابت للأفضلية ، حيث أن الحاجة لها دخل في المراد ، ولذا فإن على الشخص البخيل أن يسعىٰ كي يتجرأ على بذل المال من أجل القضاء على صفة البخل ، ويبذل ما له في ما أراد الله تعالىٰ ، وهذا هو دواء البخل ، ولكنه لا يجدي في إزالة التكبر فلو أنفق المتكبر جميع أمواله لما زالت عنه صفة التكبر ، بل علاجه بالتواضع لإزالة هذه الصفة الذميمة .

وقد علل بعض الأكابر انحطاط البشرية وعدم قدرتها على الترقي الأخلاقي بعدم استيعابهم لذلك الميزان الأخلاقي بين المرض والعلاج . ويروىٰ أن أحد الأكابر قصد عالماً في الأخلاق كي يتخلق على يديه ، وبعد عام من حضوره لديه قال له : لقد مضىٰ عليّ عام كامل في خدمتك ولم أتعلم شيئاً منك ؟ فقال له العالم : هل تأذن لي بأن أقول لك شيئاً ؟ فقال له تفضل ، فقال : إن علاجك أن تضع كيساً مليئاً بالجوز وتكشف عن رأسك

(١) سورة النحل، الآية: ٦٩.

وتقف في تقاطع طريق السوق وتطلب من الناس أن من يصفعك على خدك فإنك ستعطيه جوزة واحدة لكل صفعة ، وهذا هو دواؤك ، وسوف تنال الشفاء به .

سؤال :

لماذا يحرض الشارع المقدس على العمل ؟ بينما تكون الأعمال مقدمة للحال والحال أفضل من العمل ، وبناءً على ذلك فيجب أن نقول إذهبوا واحصلوا على الحال .

الجواب :

إن الأمراض الجسمانية تختلف عن الأمراض الروحية ، وذلك لأن الأمراض الجسمانية ذاتها تكون دافعاً للإنسان لمراجعة الطبيب ، أما الأمراض الروحية ، فلا يكتشف أثرها بسهولة من قبل المريض ، فلا تدفعه لمراجعة الطبيب النفساني ، لأنها ليست كتلك التي تسبب الألم فلا بد من مراقبة النفس ومحاسبتها . فلأجل رفع مرض التكبر يجب أن نضع كيساً في الرقبة ونبذل لكل صافع جوزة مثلاً ، فمن المسلم أن أحداً لن يتبع هذا العلاج أبداً ، وقد نتوهم بأننا نمتلك زمام الشهوة والغضب متىٰ ما شئنا ، ونبتعد عنهما ، وسوف لا يكلفنا ذلك أدنىٰ مشقة ، ولكن الواقع هو غير هذا قطعاً ، بل إننا لا ندرك كوننا غارقين في الشهوة والغضب علىٰ الدوام ، ولذلك فحين يقال لنا : إن فلاناً استعمل علاجاً لإزالة مرض البخل وفلاناً استعمل علاجاً لإزالة مرض التكبر ، فإن غرورنا سيكون مانعاً من التأسي ، وقد نتوهم خلونا من العيوب .

فمثلاً : الوالد الذي يطلب من ابنه كتابة نص ما عشر مرات كي يتحسن خطه ، ويطلب من الآخر أن يقرأ القصيدة الشعرية عشر مرات كي يحفظها ،

فإن خالفا أمره ، فسوف تكون عاقبة أمرهما الندم والخسران ويكونان هما سبب ذلك .

وقد يتساءل شخص : ما فائدة أداء صلاتي لله ، وتبذير أموالي على الناس ؟ فإن أراد الله تعالى لأغناهم من الفقر ، فما أجهل هذا الشخص وما أشد سوء فهمه ؟ ألا يعلم أن الله أقدر القادرين ؟ وأنه يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، وقد أمره بالانفاق من المال في سبيله تعالىٰ ، ليتخلص من مساوىء البخل وينال رضىٰ الله تعالىٰ بأدائه للحق المفروض بذمته مع ما في ذلك من محاسن عظيمة .

ولكل عمل نتيجة إيجابية أو سلبية تنشأ منها حالة من الحالات بشرط الإتيان به في موضعه الصحيح طبقاً لشرائطه ومناسباته ، وقد شرع الشارع المقدس الثواب والعقاب لهذا السبب حتى يصل الناس بأعمالهم إلى الحالات ، وكل هذه الأعمال من أجل تطهير القلب من الأخلاق الرديئة .

ويتضح مما تقدم أن المعاملة الحالية في قسم العلوم إنما يوجدها العلم ، فتكون أفضل منه . والعلم الذي يُستحصل من ناحية الحال يكون أفضل منها ، ولكن في قسم العلوم التحصيلية فإن الحال التي تستحصل من العمل تكون أفضل من العمل ، والعلم المستحصل من قبل الحال يكون أشرف وأفضل من الحال ، إذن فقد أصبحت جميع الفضائل تنتهي إلى العلم ، وهو عبارة عن معرفة الله تعالى وصفات الجمال والجلال الإلهية ، التي نعبر عنها بالمطلوب لذاته .

ونريد الآن المقارنة بين الشكر والصبر حتى نعلم أيهما أفضل ، ولأجل ذلك نحتاج إلى الموازنة بين الشعبة الأولىٰ من العلم في الشكر مع الشعبة الأولىٰ من العلم في الصبر ، ثم شعبة الحال ، وبعدهما شعبة

العلم ، تتم المقارنة بينهن نظراً لكون شعبة العلم لازمة في العمل ، وهما شيئان يشتركان في ناحية واحدة ويتوازيان فيها ، وهذه الخصلة المشتركة ليست مبهمة ، وإنما يحدث الخلط من قبلنا ، كأن نقول مثلاً : هل السجاد اليدوي أفضل أم الخبز ؟ أو أن نقول أيما أفضل العالِم أم الصديق ؟ وهكذا فليس صحيحاً أن نوازن بين علم الشكر وعمل الصبر ، بل يجب مقارنة علم الشكر بعلم الصبر ، وحاله بحال الصبر ، وعمله بعمل الصبر .

وأما في معرض المقارنة بين علم الشكر وعلم الصبر ، فنقول : إن الصبر عبارة عن غلبة الدافع الديني على دافع الهوىٰ وله ثلاثة أقسام :

آ ـ الصبر على المصائب .

ب ـ الصبر على الطاعات .

جـ ـ الصبر عن المعاصي .

وعلم الصبر ، تبين أنه إن وجد في هذه الموارد الثلاثة فإنه يقربنا من الله تعالى ، وعدم وجوده يكون موجباً للبعد عنه تعالىٰ ، ويجب أن تعلم أن الابتلاء إنما يتنزل من قبل الله تعالى على عباده ، ولكن يجب مراعاة أصول الأدب والانقياد في ساحة الكبرياء الإلهي ، فليس من اللياقة إبراز أدنى أثر نفسي لذلك ، ولو في السر ، وأما من ناحية أنعم الله تعالى على عبده فعلىٰ العبد التحدث عن هذه النعم ، وإظهار آثارها للناس ، وتعريفهم به كما قال النبي إبراهيم (ع) : ﴿ وإذا مرضت فهو يشفين ﴾[1] فهنا ينسب (ع) المرض لنفسه احتراماً لخالقه وخجلاً منه باعتباره بلاءً ولم يقل (ع) فحين يمرضني الله تعالىٰ فإني أسأله الشفاء ، بل ينسب المرض إلى نفسه لتقصيره في الحمية وينسب الشفاء والخلاص من المرض لله تعالىٰ ، لأنه سيشفيه

---

(١) سورة الشعراء، الآية : ٨٠.

وتلك نعمة لا تنكر . أما حين نريد المقارنة من حيث التوحيد فنرىٰ أن كل شيء من الله سبحانه جلّ وعلا ﴿ **قل كل من عند الله** ﴾[1] .

وأما العلم في فصل الشكر فقد علمنا أن نعم الله تعالىٰ التي أغدقها علينا لا بد أن نتصرف بها بما يرضي الله سبحانه لكي تكون وسيلة للتقرب إلى الله تعالىٰ . ثم معرفة شكرها ، حيث نعلم أنها من الله تعالىٰ ، والمعرفة بالصبر تكون بالعلم بأن البلاء يكون من الله تعالىٰ ، فيكونان متساويين في الفضيلة .

وأما في فصل الموازنة عمل الشكر وعمل الصبر ، فنقول : إن مثل الصبر على البلاء بعدم الجزع والفزع والامتناع عن كل ما ينافي عظمة الخالق جلّ وعلا ، وأن لا يقول بلسانه ما يسخط الرب لحرمانه من نعمة البصر مثلاً وهذا هو الصبر في الجانب العملي . أما العمل المترتب على النعمة فهو الاستفادة من نعمة البصر في طاعات الله وعباداته ، كالنظر في وجه العالم والسيد ، والأم والأب ، وتجنب سخط الله بعدم النظر إلى وجه المرأة الأجنبية وآلات القمار والأشياء المحرّمة الأخرىٰ ، وبهذا فقد أدىٰ ما يترتب على النعمة ، وكان مخالفاً لدافع الهوىٰ وموافقاً لدافع الدين ، فإنه بتغلب الدافع الديني على دافع الهوىٰ يحصل الصبر ، وقد حصل الشكر لتصرفه بالنعمة وفقاً لمرضاة المنعم تعالىٰ ، فيكون قد حقق كلاً من الشكر والصبر في آن واحد .

أما الذي يفتقد نعمة من نعم الله تعالىٰ كالبصر مثلاً ، فإن دافعه الديني يقول له : لا تجزع واصبر ، ودافع الهوىٰ يدفعه للجزع ، فإن انتصر دافع الدين فقد حصل الصبر ، وبذلك يتضح أن عمل الشكر أفضل من عمل

---

(١) سورة النساء، الآية: ٧٨.

الصبر ، نظراً لأن الصبر يشترك مع الشكر هناك ولا أثر للشكر مع الصبر هنا .

وأما المقارنة بين حالة الشكر والصبر ، فقد تقدم في ما مضىٰ أن ثبات الدافع الديني أمام دافع الهوىٰ إنما هو عبارة عن الصبر ، وبما أن الدافع موجود من الموجودات ، فإنه يكون بذلك نعمة من الله تعالىٰ ، وقد ذكرنا أن شكر النعمة هو التصرف بها في محلها .

وأما في فصل الصبر على الطاعة والمعصية ، والشكر على تحقق الطاعة وعدم ارتكاب المعصية .

فنقول أن الشكر على النعم التي وهبها الله تعالىٰ لعباده على منزلتين :

أولاهما : التصرف في النعمة في سبيل الله تعالى ، والثانية : صرف النعمة في المباحات كالأكل والملبس . وللصبر أيضاً منزلتان : أولاهما : تغلب دافع الدين على دافع الهوىٰ في الطاعة ، وذلك يعني تحمل المشاق والصعوبات في سبيل الطاعة ، والثانية ثبات دافع الدين مقابل دافع الهوىٰ في ارتكاب المعصية . فالمال مثلاً إحدىٰ النعم الربانية إن حرمنا منه صبرنا ، وإن أعطانا الله تعالىٰ مالاً شكرناه وصرفناه في طاعة الله تعالىٰ وصبرنا على ذلك فاجتمع الشكر والصبر ولذا يكون أفضل من الصبر وحده .

ثم نقارن بين الصبر عند فقدان النعمة والتصرف بها في المباحات ، فالتصرف بنعمة الله تعالى في السبل المباحة ليس محبوباً من الله تعالىٰ وليس مبغوضاً ، وذلك لأن صرف النعمة في المباحات لا يوصل الإنسان إلى الله تعالى غالباً ، نظراً لأنه يكون موافقاً للهوىٰ ، ولكنه ليس الهوىٰ المبغوض . وأما عند فقدان المال فإن غلبة الدافع الديني على باعث الهوىٰ هو صبر

محض ، وبهذه الصورة يكون الصبر أفضل من الشكر ، والشاهد على ذلك آيات من القرآن الكريم وروايات مفادها أن للشكر والصبر درجات ، وهو يتحقق في أمور :

أولها : حياء العبد ، لتتابع النعم الربانية عليه ، فلأنه غارق في أنعم الله تعالىٰ لذا فهو يحس بالحياء من ذلك المنعم .

ثانيها : معرفة العبد بتقصيره بأداء واجب الشكر على النعمة ، وهذا يعد بذاته شكراً للنعمة ، وذلك لأن النبي موسىٰ (ع) ناجىٰ ربه قائلاً : يا إلهي كيف أستطيع أن أشكرك حين أكون محتاجاً للشكر على كل شكر أؤديه ؟ فقال الله تعالى : ما دمت قد أقررت بعجزك عن شكري فقد شكرتني .

ثالثها : الاعتذار للخالق عن قلة الشكر .

رابعها : المعرفة بالتقصير مقابل النعم الإلهية المتتالية ، وأنه تعالى لم يقطع فيضه عنّا مع تقصيرنا في أداء الشكر فهذا الشعور وهذه المعرفة شكر .

خامسها : العلم بأن شكر النعم الربانية نعمة .

سادسها : حسن تواضع العبد أمام النعمة الربانية . فإن كل نعمة مهما كانت ضئيلة هي من الله تعالىٰ . فعلينا النظر إلى المنعم بعين التعظيم والجلالة ، فإن أهدىٰ لنا الملك وساماً صغيراً وعلّقه على صدرنا فكم سنكون مسرورين بذلك ، ولكن حقيقة السرور ليس لقيمة الوسام الزهيدة بل بسبب النظرة الرحيمة والعطوفة وتقدير الملك لنا . فإذا وصل الإنسان إلىٰ هذه المرتبة تجاه الله تعالىٰ فإنه سيرىٰ الباريء (عزّ وجلّ) عند كل نعمة يسر بها فيصبح شاكراً على الدوام .

وفي هذا ترویٰ حكاية لمسافر التقىٰ في سفره برجل عجوز فسأله عن أحواله . فقال العجوز : إني شاكر لله تعالىٰ دائماً . فقال له الشاب : وكيف ذلك ؟ فقال أحببت في شبابي ابنة عمتي وأحبتني هي أيضاً ثم تزوّجنا ، وفي الليلة الأولىٰ لزواجنا قلنا لبعضنا ما أعظم هذه المنّة التي منّ الله تعالىٰ بها علينا حين اجتمعنا بالزواج فلننشغل بشكر الله تعالىٰ على ذلك في هذه الليلة فقضينا تلك الليلة بعبادة الشكر حتىٰ الصباح . ثم جاءت الليلة الثانية ففعلنا الشيء نفسه حتى انقضت علينا ثمانون سنة ، ونحن على هذه الحال ولم أفتض زوجتي للآن . ثم نادىٰ زوجته وقال لها تعالي اشهدي على ما أقول . فقالت : إنها لا زالت باكراً حتى ذلك الحين ، ولم تنشغل عن عبادة الشكر ليلة واحدة .

وبهذا نصل إلى آخر فصل الشكر ، ونختتم حديثنا بالكلمة المباركة (الحمد لله) لأن آخر دعاء أهل الجنة حمد لله تعالىٰ ، وذلك ما ورد في القرآن المجيد ﴿ **وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين** ﴾[1] وفي شكر اللسان إظهار لتمجيد الله المتعال وإظهار الرضا لله تعالىٰ فقد ورد في الخبر أن النبي الأكرم (ص) سأل شخصاً : كيف حالك ؟ فقال الشخص : بخير وعافية ثم أعاد الرسول (ص) سؤاله عن حاله مرة ثانية فأجابه بنفس المعنىٰ فأعاد رسول الله تعالىٰ سؤاله ثالثة فأجابه هذه المرة بأن قال « الحمد لله وله الشكر » فقالغ (ص) : هذا ما كنت أريده في جوابك منذ أول مرة أن تذكر الله تعالىٰ باسمه عند شكرك .

ويرویٰ أن قوماً قصدوا مجلس أحد الخلفاء فلما استقروا فيه قام أصغرهم للتحدث نيابة عنهم . فنهره الخليفة قائلاً : إن هنالك من هو أكبر

---

(١) سورة يونس، الآية: ١٠.

منك سنّاً ، وهو أولىٰ منك بالكلام ، ومع ذلك فدونك المجلس وأفصح عما تريد . فقال له الشاب : إننا لم نأت لرؤيتك طمعاً في عطاياك ، فإنها تصل إلينا منك في مواعيدها ، ولم نأت إليك خائفين منك ، لأن عدلك ملأ الخافقين ، بل أتينا إليك قاصدين لنؤدي واجب الشكر إليك بحضورنا وبألسنتنا .

ونحن كذلك نقول أنّا نسأل الله تعالىٰ ثواب الشاكرين ، اللهم اجعلنا لأنعمك من الشاكرين ولآلائك من الذاكرين ، والحمد لله رب العالمين ، والصلوات التامات الزاكيات على محمد وآله الطاهرين .

الفصل الرابع

في المحبة

المحبة إحدىٰ منازل السائرين إلى الله ويمكن اعتبارها المنزلة الرابعة والأخيرة .

إن إطلاق لفظ المحبة بين الخالق والمخلوق يكون بمعناه الحقيقي ، إذ وردت في ذلك أدلة كثيرة من الآيات الكريمة والأخبار الشريفة نذكر بعضاً منها على سبيل التمثيل :

١ ـ ﴿ قل إن كنتم تحبّون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾(١) .

٢ ـ ﴿ إن الله يحب التوّابين ويحب المتطهرين ﴾(٢) .

٣ ـ ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله ﴾(٣) .

٤ ـ ﴿ والذين آمنوا أشد حباً لله ﴾(٤) .

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣١.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٢٢.
(٣) سورة الصف، الآية: ٤.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٦٥.

وإن علينا أن نفهم كيف تكون محبة العبد لربه أو الرب لعبده ؟ وفي ذلك اختلاف بين العلماء ، وعلينا قبل كل شيء أن نبحث في مقامين من فصل المحبة .

أولها : محبة العبد لربه ، والثاني : محبة الله تعالى لعبده .

المقام الأول : محبة العبد لربه

يعتقد البعض أن محبة العبد للرب تكون بمعنىٰ الإطاعة لله تعالىٰ ، فمعنىٰ المحبة والإطاعة هنا واحد . ويرىٰ البعض الآخر أن معنىٰ المحبة ليس الطاعة ، وليس للمحبة معنيان . فينبغي أن نتفهم أصل معنى المحبة لنستطيع إطلاقها في مورد المحبة لله تعالىٰ أو لغير الله تعالى بمعنىٰ واحد أو بمعنيين .

المحبة تدور في فلك الإدراك ، وذلك يعني أن الشخص عندما يدرك شيئاً ما فسوف تحصل عنده إحدىٰ ثلاث حالات :

الأولىٰ : الحيادية تجاهه فلا ملاءمة ولا نفور ، كأن يقع نظره على حجر فلا يحس تجاهه بالارتياح أو الإنزعاج ، وهنا لا تجد نسبة للحب أو الكره .

الثانية : التأثر الإيجابي تجاه الشيء فيحصل على اللذة بإدراكه ، ويكون إدراكه إما بواسطة العين أو الأذن أو حاسة الذوق أو الشم أو إحدىٰ القوىٰ الباطنية الخمس التي هي عبارة عن الحس المشترك والتخيل والذاكرة والمتصرفة . إذن فالإحساس باللذة والابتهاج يحصل هنا لذا يحاول العودة للاستزادة من ذلك المحسوس ، وكل شيء يجذب الإنسان فيرتاح إليه فهو محبوب عنده .

الثالثة : التأثر السلبي بالشيء الذي يتنافر مع طبع الإنسان كحالة البكاء والعويل والصوت المزعج والرائحة الكريهة والطعم الرديء الذي تتولد بعد إدراكه حالة من النفرة عند الإنسان . ومثل هذه الحالة تدعىٰ « البغض » .

وللحب والبغض درجات حسب الشدة والضعف والدرجة القصوىٰ للمحبة تسمىٰ « العشق » ويقابلها في الشدة الحقد المفرط ويسمىٰ « المقت » ومثال ذلك أن الإنسان أحياناً يحس بالعطش بسبب جفاف جوفه فيميل لشرب الماء ، وأحياناً أخرىٰ يشتد به العطش لدرجة الهلاك كما لو نفذ ماؤه في الصحراء ، فما أن يسمع باسم الماء حتى يسعىٰ إليه على يديه ورجليه ، ففي كل تلك المراحل الثلاث كانت الرغبة بالماء موجودة ، ولكن ما أكبر الفرق في تلك الرغبة بين المرحلة الأولى والمرحلة الأخيرة .

ففي المرحلة الأولىٰ يمكن صرف النظر عن شرب الماء بسبب مانع بسيط . ولكن في المرحلة الأخيرة ، سيبذل الإنسان جهده لإزاحة كل مانع يحول دون وصوله لغايته ، ولذا لا يمكن إعطاء الماء دفعة واحدة لمثل هذا الشخص ليرتوي لأنه سيعرضه لمخاطر شديدة . والشاهد على تفاوت درجات المحبة في الضمير هو القرآن الكريم حيث يقول : ﴿ **والذين آمنوا أشدّ حباً لله** ﴾[1] .

ويدور بين علماء الأخلاق بحث مفاده : هل أن لكل موجود مقداراً محدداً من الإدراك ، أم لا ؟ فإن كان فيه ذلك فإن كل موجود تكون محبته بمقدار إدراكه ؟ ولربما ستتضح هذه المسألة ضمن ذكر أسرار المحبة .

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٦٥.

وقد ذكرنا أن إدراكاتنا إنما تكون عن طريق القوى الخمس الباطنية والظاهرية ، وحسب تقسيماتها تتحدد أنواع الإدراكات ، ويشترك كل من الإنسان والحيوان في الحواس العشر في الإدراك ، ولكن الإنسان يمتاز عن الحيوان في إدراك وهو القلب وإلى ذلك أشارت الآية الشريفة ﴿ **إن في ذلك لذكرىٰ لمن كان له قلب أو ألقىٰ السمع وهو شهيد** ﴾[1] وبواسطته يستطيع الإنسان إدراك المعاني المجردة مثل إدراكه لله تعالى وأسمائه الحسنىٰ وصفاته السامية وكل ذلك يكون ملائماً للروح بسبب إدراك حالاتها ، وبالطبع سيحصل الميل والرغبة إليها فتهيم الروح بتوحيد الله تعالى ، وللقلب أسماء أخر ، وهي :

١ ـ العقل ، ٢ ـ الروح ، ٣ ـ الرأس ، ٤ ـ الفؤاد ، ٥ ـ اللب ، ٦ ـ البصيرة ، ٧ ـ الضمير . وهو غير الحواس العشر الآنفة الذكر ، ويتميز الإنسان بهذا الحس عن الحيوان .

إذن فقد أصبح معلوماً معنىٰ المحبة ، وهي تابعة للإدراك وأن الإدراكات مختلفة .

فلنرَ ما هو سبب ملاءمة الأشياء للنفوس ؟ فمثلاً حين يكون شيء ما مجنداً لدىٰ شخص ما فإنه قد يكون في الوقت نفسه مسبباً للنفرة والانزعاج لشخص آخر .

ولأجل توضيح هذا المطلب نقول أن محبوبية الشيء للإنسان تكون بسبب التشابه والإلفة ثم الاتحاد بين الاثنين في وجه من الوجوه التي توجب الملاءمة ، نظراً لأن التشابه عبارة عن التوافق كما أن المغايرة والاختلاف تسببان النفرة . ومن هنا نكون محتاجين إلى أن نعدد أسباب المحبة

---

(١) سورة ق، الآية: ٣٧.

ومؤهلات المحبوب ، ثم نرىٰ هل أن هذه الأسباب والمؤهلات موجودة بيننا وبين الله سبحانه وتعالىٰ أم لا ؟ فإن لم تكن موجودة فإن طريقنا لن يوصلنا إلى محبة الله تعالى ، وإن كانت موجودة فنرىٰ ما مداها ، لنستطيع قياس تلك المحبة . فنقول أن موجبات المحبة أمور :

أولها : حب الإنسان لذاته ، فقد قلنا أن حبنا لشيء ما إنما ينشأ من ملاءمته لنا ، ولذاتنا مثل : رائحة الورد والأزهار ، والمنظر الخلاب ، والوجه الطيب الأسارير ، والصوت الشجي ، ولكن بين الملاءمات شيء أشد ملاءمة من ذاتنا فهو ليس مع ذاتنا ، يعني أن الملاءمة في عمق ذات الشخص تابعة لقابلية الإدراك في ذاته ، وإدراكنا لذاتنا يكون بسبب عدم غياب ذاتنا عن ذاتنا ، بل هي حاضرة دوماً .

لنفترض أن الله تعالى قد جعل الكون خالياً من الحرارة والبرودة ، وخلقنا بنحو لا نستطيع فيه رؤية شيء ولا سماع شيء ، ولا ندرك حلاوة الطعم ، وليس لنا القابلية على الشم ولا اللمس ، وكانت حواسنا الخمس الباطنة متعطلة عن عملها أيضاً ففي هذه الحال سنكون غافلين عن كل موجود ما عدا وجوده ، نظراً لأننا نعلم أننا حاضرون أمامه .

إذن فنحن ندرك ذاته باستمرار ، ولأن إدراك ذاته يلائم ذاتنا فمن الطبيعي أن يحصل التعلق به ، وهو عبارة عن محبتنا له ، ولذلك نكون راغبين بوجودنا ، وبديهي أن وجودنا يكون محبوباً لنا على عكس عدمه . ومن هنا يأتي نفورنا من الموت ، وبناء على هذه الأرضية فإنّا لا نجد شيئاً في الكون نحبه أكثر منه تعالى ، بل إننا نضحي بكل محبوب غيره لأجله يقول الشاعر :

« يا لهول سيل الخطر الذي ينصب على رؤوسنا فيدفعنا إلى أن يطأ

الابن ثدي أمه بقدمه فاحذر من ذلك اليوم الذي تضطر فيه إلى الحبيب ، فإن الحبيب ليقتلعن فروة الرأس » .

إن وجود أي شيء يكون سبباً لدورانه في فلك سببه ، والمحبة من الموجودات بالسبب ، وإن كان سبب المحبة فينا يتخذ الشدة تارة والضعف أخرىٰ ، وتبعاً لذلك تكون شدة المحبة وضعفها ، ويجب أن نقارن بين تلك الدرجات ، وسنجد أن ليس هنالك شيء يتلاءم مع طبعنا أفضل من الذات المقدسة لله جل جلاله ، وليس هنالك شيء أقرب منه إلينا ، ولذا يجب علينا أن نحب الله تعالى وحده . ولأجل إثبات هذه الأطروحة علينا بيان أسباب المحبة لنتبين إن كانت تلك الأسباب موجودة في الله تعالى بمقدار وجوده حتى يتملكنا حبه . وأحد أنواع المحبة إرادة ذاته ، لأن الإنسان عند إدراك ذاته سيكون مولعاً بكل قوته بها ، على خلاف كافة الموجودات التي لا يحصل الحب المطلق تجاهها ، حيث يكون وجه تناسبها مع طبعنا لوجود نوع معين من الاتحاد يكون نسبياً في سويداء الروح التي فينا مع ذلك الشيء ، مثل رائحة الورد الذي يتحد جزء يسير منه بذاتنا في الحقيقة ، ولكن من نواحي أخرىٰ لعله يكون متغايراً مع ذاتنا ، أما ذاتنا فإنها متحدة بصورة مطلقة مع ذاتنا ، وإدراك الذات للذات حضوري وليس حصولياً ، وهذا يعني أن ذاتنا حاضرة دائماً لذاتنا ، ولا تغيب عنها أبداً ، لئلا يكون الغياب مدعاة لانسلاب الذات عن الذات ، وهو محال . ونتيجة ذلك أن محبتنا للذات من أشد أنواع الحب . وإنما شدة المحبة ما هي إلا العشق ، فنحن إذن عاشقون لذاتنا ، ولأنها أصبحت محبوبة لنا فإننا نسعىٰ لدوامها قهراً ، وكذلك فنحن نحب كمالها بالتبعية ، من علم وقدرة وحياة بنحو لا يبقىٰ معه ميل في عدمها ، إذن ففقدان الوجود أو كمالاته يكون مبغوضاً لنا ، نظراً لأن كل نواقصه عائدة لعدم الكمال ، ونحن محتاجون لتوفير

أسباب المحافظة على وجودنا . فالدار والغرف تحفظ الإنسان من البرد والحر وكافة اللوازم الأخرىٰ التي فيها كذلك ، فإنها تسبب الراحة والرفاه ، فكل ذلك يكون محبوباً لنا ، وكذلك الثروة والقدرة والجاه والجيران والأصدقاء والعشيرة والقبيلة . فكل ذلك ضروري من أجل بقائنا ولكن كل ما نسعىٰ من أجل المحافظة عليه يكون مآله الموت والفناء ، وبناؤنا الشامخ يتهافت فجأة ، ولكن يحل محلهم محبوبو القلوب وهم الأولاد والأحفاد ، ونحن نحب الأولاد ليس من جهة أنهم رصيد لبقائنا ، إذ لعلهم يساهمون في عملية فنائنا ، ولكن حبنا لهم لأنهم ثمرة الأب والأم ، وطلب الأولاد لن يكون مقدمة لدوام الوجود ، على خلاف طلب اللوازم الأخرىٰ التي تكون مقدمة لإدامة الموجود والمحافظة على البقاء ، بل طلب الأولاد يكون نتيجة لليأس من دوام الوجود ، فلأن أيادينا قاصرة عن إدامة وجودنا فإننا نتوسل لإدامة هذا الوجود بالنسل باعتباره ذكرىٰ تبقىٰ بعدنا ، فنتوهم أننا سنكون مخلدين بوجودهم وبقائهم خلفنا ، فلو تملكنا من حفظ ذواتنا لما امتلكنا حب الأولاد والبنين ، كما أننا حين نعلم بزوال حياتنا الفردية لا نطمع بشيء مما في هذا العالم ، ولكن حاجتنا لذلك تضطرنا له كالدار يكون عشاً والتجارة للكسب والعمل والأقارب والعشيرة . ونريد من نتيجة ذلك كله أن نثبت أنه لا شيء أقرب لذاتنا من ذاتنا ولذا فنحن نحبها . ولكن الله سبحانه وتعالى يريد منّا أكثر من ذلك لأنه أقرب منها إلينا فكذلك قال ﴿ **ونحن أقرب إليه من حبل الوريد** ﴾[1] .

إذ فمحبتنا لله تعالى يجب أن يكون مقدارها أكثر بأضعاف من محبتنا للذات ، وسيرد بيان هذه المسألة في ما بعد إن شاء الله تعالىٰ .

والأمر الثاني من موجبات المحبة هو :

---

(١) سورة ق، الآية: ١٦.

إحسان المحسن ، فإن الإنسان المحسن يكون محبوباً إلى حد قيل فيه « الإنسان عبد الإحسان » . فإن تعمقنا في حب المحسن فسننتهي بحبنا لأنفسنا ، لأن الإحسان يكون موجباً لبقائنا وسلامة دوامنا ، وبإحسانه نحصل على كمال وجودنا ، ولهذا فنحن نحبه ، ولكن إذا بحثنا بدقة رأينا أنّا لا نحب المحسن إنما نحب إحسانه والدليل على ذلك أننا لا نرتبط مع غير المحسن برابطة من الحب ، وبعبارة أخرى نقول إن كان إحسان المحسن موجوداً فعلاً فإنه سوف يحظىٰ رضا رغباتنا ، وليس وجود المحسن ، ويكون حبنا متناسباً طردياً مع مقدار إحسانه إلينا . والفرق يظهر عند محبة المحسن لسلامة بدننا ، فسلامة كافة الجوارح والأعضاء محبوبة لدينا لأنها تمثل الكمال عينه ، وأما حبنا للمحسن فهو ليس عين الكمال لدينا ، وإنما لأن إحسانه يكون حافظاً ومبقياً للكمال كأن نحب سلامة بدننا ونحب الطبيب كذلك ، أما السلامة فإننا نحبها ذاتياً ، وأما الطبيب فلأنه يداوينا ويحافظ على سلامتنا .

وكذلك حبنا للعلم والمعلم ، فإن العلم محبوب لذاته ، وأما المعلم فحبه راجع إلى أنه يجلب العلم النافع المحبوب لنا .

ونحن نقول : إن البطيخة محبوبة لحصول اللذة عند التهامها ، فاللذة هي المحبوبة أساساً حيث تطلب لذاتها أما حبنا للبطيخة فلأجل جلبها للذة ، وهذا يعني أن كل ما أثار فينا أثراً حسناً فهو محبوب لدينا .

وحصيلة ذلك أنّ حبنا للبطيخة يكون عرضياً ، ولكن حبنا للذة يكون أمراً ذاتياً . وعلى هذا الأساس فإن طلب المال والجاه ورفقة الجيران وحب الناس تعتبر كلها محبة مجازية أي عرضية وقابلة للزوال ولا دوام لها على عكس المحبة للذات فهي ليست قابلة للزوال .

وتقسم المحبّة إلى قسمين :

١ ـ صورية .

٢ ـ حقيقية .

والمحبة التي ذكرناها بالنسبة للمحسن كانت مجازية وليست حقيقية .

والأمر الثالث: إدراك الإحسان فإننا نحب المحسن لإدراكنا لإحسانه وإن لم يصل إحسانه إلينا بالذات فحبّنا له لإحسانه للآخرين فالإحسان يبعث فينا الشعور بالاحترام والمحبة .

ورابع موجبات المحبة الجمال ، فكل جميل محبوب فلنرَ ما هو الجمال الذي انتزع منا الحب ؟

إن أول مرحلة من مراحل الجمال عبارة عن تناسب الأعضاء الجميلة بحيث تكون ملائمة للطبع وجذّابة للنفس كالعيون الصافية والأنف الدقيق والثغر الباسم ، بحيث تحصل اللذة برؤيته ، وهذا النوع من الجمال يتم إدراكه عن طريق العين وبواسطته تستحوذ اللذة على الروح وهنالك طرق أخرى لمعرفة الجمال غير طريق البصر تتلاءم مع الطبع أيضاً وتبعث في النفس لذة ، كالصوت الحسن مثلاً ، بينما الصوت القبيح يبعث في النفس نفوراً ، وكما أن العين والأذن يشعران بالجمال كذلك يمكن الإحساس به عن طريق الذوق أو حاسة الشم أو اللمس أحياناً .

وأما الجمال الذي نحصل عليه بالحواس الظاهرة والباطنة معاً فهو الجمال المطلق لله جلّ جلاله الذي أودعه في مخلوقاته وأودع فيها الكمالات الخفية والظاهرة . فبذرة البطيخ مثلاً تتحول إلى نبتة تخرج من باطن التراب ثم ساق يعطي الورد الذي يصبح ثمراً ثم ينضج ويصبح لذيذاً وبذلك يصل إلى مرحلته النهائية التي هي مرحلة الكمال ، وهذا ما يصطلح عليه بالكمال

المنتظر . وهكذا فإن كل شيء من الموجودات له كمال منتظر حيث يصل إلى أوج مراحله الكمالية وهي آخر درجات الجمال فيه ، وبعض الموجودات تصل إلى أوجها بثلاث مراحل وبست مراحل وبعضها لا تصل بأي وسيلة لأنها ناقصة تماماً .

والحصان مثلاً يكون جماله بتناسق ورشاقة أعضائه وعضلاته ويكون جمال صوته بصفاء صهيله مع خلوه من الرائحة الكريهة ، ونعومة ملمسه ، يؤدي وظائفه بأحسن وجه من ركض وكرّ وفر ، وإلا فهو ناقص الجمال .

وخلاصة ذلك أن كل شيء يصل إلى كمال منظره أو إمكانياته فهو جميل وإلا فلا .

وللحواس الباطنة إدراك آخر للجمال والكمال ينبعث منه الحب عند حصوله ، والبعض عند فقده ، فنحن نحب الإمام علياً (ع) ونكره أبا لهب ، وحبنا للإمام علي (ع) ليس لأجل حسنه الظاهر ووجاهته ، بل بسبب كمال وجمال آخر يمتلكه الإمام علي (ع) من عقل وعلم وشجاعة وسخاء وفتوة ومروءة وغير ذلك من صفات الكمال ، عند ذلك سينتزع الحب منّا انتزاعاً ، أما الآخر الذي جمع الخبائث في خلقه وسلوكه فسيحظىٰ بالبغض منا والخسران منه تعالىٰ .

فالجمال ليس أمراً مادياً شكلياً فقط ، بل إن قسماً منه يكون جمالاً معنوياً ، وهو عبارة عن العقل والعلم والقدرة والشجاعة وغيرها ، وفي العلم والقدرة تجتمع كل الصفات الحميدة والطيبة ، ولذا فإننا نحب الأنبياء والأوصياء والأولياء والصالحين ، لتمتعهم بهذين الوصفين .

ولما كان الله تعالى هو عين العلم والقدرة فهو الأليق بالمحبة ، وسيرد تفصيل هذا الموضوع بوجه أوفى إن شاء الله تعالىٰ ، وعندما لا ندرك جمال

الله تعالىٰ فإننا سنفتقد حبّه .

وخامس موجبات الحب : توافق خفي ، يمكن للإنسان أن يدركه رغم غموضه ، ولكنه يجهل الدافع لهذه المحبة وقد ورد في الأخبار « الأرواح جنود مجندة فما تآلف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » . وهذا يعني أن الأرواح الحاضرة التي تشعرنا بوجودها قد سبقت بإشعارات وجودية سابقة وهو (عالم الذر) فإن تآلفت في ذلك العالم فإنها ستتآلف في الحياة الدنيا أيضاً ، وإلا فلا . ولكن هذا ليس مقنعاً ، لأنه سيفتح باباً للسؤال عن سبب التآلف هناك ، وهذا ما يصطلح عليه بالتشابه المعنوي ، الذي يمكن إدراجه في باب التعبير عن بعض الأشياء بمنحها الصفات ، كأن تقول : نحن نحب الشخص الفلاني لعدالته ، ولكن هناك بعض المسميات غير قابلة للوصف ، كأن تقول : إن مرد ذلك إلىٰ التناسب أو التشابه الخفي .

وعلى أية حال ففي السبب الثاني ، تتناسب الزيادة والتفصال في المحبة ، مع الزيادة والنقصان في إحسان المحسن ، وفي السبب الثالث تعتمد شدة المحبة وضعفها على شدة وضعف إدراكنا لإحسان المحسن ، وإن لم يصل إحسانه إلينا . وفي السبب الرابع يكون الأساس في المحبة هو الجمال الظاهري ، وتختلف المحبة شدة وضعفاً باختلافه شدة وضعفاً . وكذلك الجمال المعنوي فإنه ليس على وتيرة واحدة في شدته وضعفه ، فحبنا لسلمان الفارسي (رض) ليس كحبنا لأمير المؤمنين علي (ع) للتفاوت الموجود بينهما .

يكون الأساس فيه التآلف الخفي ، وبما أن الموجودات تآلفت بسببه جل جلاله فلا بد أن تكون المحبة القصوىٰ لذاته تعالىٰ .

إن وجودنا ليس قائماً بذاته . فنحن كظل الشجرة الذي يقوم بذات الشجرة ، لأنه إنما ينعكس عنها ، فلو لم تكن الشجرة لما كان الظل ، وكذا جميع الموجودات فهي مرتبطة بمحور واحد يدور الجميع حوله ، وهو قائم بذاته وحده وما سواه مرتبط به ، فوجودهم من وجوده وجمالهم وكمالهم من كمال وجوده .

فيجب إذن أن يستولي على حبنا وعشقنا دون غيره ، لأنه الأقرب إلينا في هذا الكون حتى من أنفسنا ، ولتوضيح ذلك نفترض أن شعاعاً من النور ينبعث من مصباح ويسقط على سجادة ، فنحن إذن نرىٰ شيئين هما السجادة وضوء المصباح الساقط عليها ويمكن تصور حالتين لهذا النور :

الأولىٰ : رؤية النور منفصلاً عن المصباح .

الثانية : رؤية النور بسبب دوام اتصاله بالمصباح ، حيث ينبعث منه فيسقط على العين ، فعندما نراه منفصلاً عن المصباح فإنه محكوم عليه بالفناء ، لأنه لا يملك وجوداً مستقلاً لذاته ، وعليه فسوف يكون سبب دوام وجود كل شيء هو ارتباطه بمصدره الأول ، وإلا حكم عليه بالعدم ، كما ورد في الآية الشريفة ﴿ **ونحن أقرب إليه من حبل الوريد** ﴾[1] فوجودنا مرتبط بالاتصال بوجود الله تعالىٰ . فإن انقطع هذا الاتصال بيننا وبينه فلن يبقىٰ لنا أثر ، فلأجل بقاء ذواتنا لا بد من وجود الله ، ولا بد من الارتباط بهذا الوجود الذي يجب أن يكون أزلياً ، ويجب أن يحظىٰ بحبنا أكثر مما نحب ذاتنا ، وأن لا نغفل عنه أبداً ، لأن الغفلة تكشف عن جهلنا ، فقد قلنا : إن الذات كظل الشجرة وأنه تعالىٰ هو المالك الحقيقي وهو الأزلي سبحانه وتعالىٰ عما يصفون . ولنسيان لذات الله تعالىٰ يؤدي إلى نسيان

---

(١) سورة ق، الآية: ١٦ .

النفس كما قال تعالىٰ ﴿ **نسوا الله فأنساهم أنفسهم** ﴾[1] وقال رسول الله (ص) : « من عرف نفسه فقد عرف ربه » كما أن كل شيء هالك إلا الله (عزّ وجلّ) كما قال تعالىٰ ﴿ **كل شيء هالك إلا وجهه** ﴾[2] .

ولو دققنا النظر لما وجدنا محسناً غير الله سبحانه وتعالىٰ ، وإطلاق مصطلح محسن على غيره ليس إلا مجازاً وذلك لسببين :

أولهما : إذا اعتبرنا أنّ غير الله محسن فكأننا طرحنا الشجرة جانباً وتمسكنا بظلها ، والواقع الذي أثبتناه هو أن ظل الشجرة معتمد على ذات الشجرة ، إذن فإحسان أي محسن هو قبس من أشعة إحسان الله تعالىٰ ، فكل شيء لدينا هو من الله تعالىٰ مثل الوجود والعقل والعمل الصالح والمال والقدرة والتفكير . إذن فكل الإحسان في الواقع هو من الله تعالى ولذا فلا محسن حقاً غيره سبحانه . إذن فالإنصاف يقتضي أن تتوجه إلى منبع الفيض والإحسان ولا نعبأ بما عداه ، ولا نكون كمن يدير ظهره للسلطان الذي منحه الجائزة ويبدي شكره وامتنانه لمن أوصلها إليه . فهو سبحانه وتعالىٰ المحسن وما عداه أدوات ووسائل .

والثاني : أن الكريم المطلق في الكون هو الله تعالى ، نظراً لأن معنىٰ الجود هو (إعطاء ما ينبغي لا لعوض) وبناء على ذلك فليس هناك أحد غيره (عزّ وجلّ) يعطي شيئاً لغيره دون ما أخذ عوض أو غاية أو طمع . وإن أي جواد غيره إنما يعطي الأشياء لقصد وغرض مهما اختلفت تلك المقاصد والأغراض وتختلف المقاصد والغايات من البذل والعطاء باختلاف شدة دوافع الأشخاص لذلك فشخص يعطي أشياء لأجل الحصول على الأجر والثواب في الدنيا أو في الآخرة ، والآخر يبذل المال لإطفاء نار اللوعة التي

---

(١) سورة الحشر، الآية: ١٩ .

(٢) سورة القصص، الآية: ٨٨.

في قلبه على المساكين ، وآخرون يطعمون إفطارهم ثلاثة أيام متوالية للمستحقين قائلين ﴿ **إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكورا** ﴾[1] . إذن فالجوّاد الحقيقي هو الله تعالىٰ وهو المحسن الواقعي لا غير ومن المحال أن يجمع المخلوق بين كونه مخلوقاً وكونه جوّاداً محسناً بالمعنىٰ الحقيقي في آن واحد .

والثالث : أننا نحب المحسن وإن لم يصل إحسانه إلينا ، وكذلك نكره المسيء وإن لم يصبنا منه سوء وأن الله (عزّ وجلّ) محسن إلى عبيده على الإطلاق وأول إحسانه على عباده أنه خلقهم ثم أحسن صورهم ووفر أمور معيشتهم بإيجاد الوسائل الضرورية لبقائهم من أعضاء وجوارح ، وسخّر لنا ما في الكون جميعاً من أرض وسماء وهواء ونجوم ومن الدواب ما انتفع بلحمه أو لبنه أو صوفه وغير ذلك .

المرحلة الثالثة : أنه سبحانه مَنَّ على عباده وأسبغ عليهم نعمة ظاهرة وباطنة من ضروريات وغيرها كالعين مثلاً التي وجدت لرؤية الأشياء .

وهذه النعم قسمان : داخلية وخارجية ، أما الداخلية فكالعين والقدم واليد والأُذن والتي يستعين بها الإنسان في حياته ولولا ذلك لأصابه الشلل في حياته وإن لم يفقد حياته بفقدانها وأما الخارجية فهي كذلك لا يفقد الإنسان حياته بدونها كالملح الذي يمكن أن يطبخ الطعام بدونه ، فكلاهما ليس ضرورياً لبقاء الإنسان .

المرحلة الرابعة : هيأ الله تعالى أشياء جمالية وكمالية تضفي الزينة والجمال على الإنسان كالجفون المحيطة بالعيون والأهداب ، فقد زين الله تعالى بهما العيون كما جعلها حفاظاً لها من الغبار وأشعة الشمس القوية

---

(١) سورة الدهر، الآية: ٩.

والحاجبان يشكلان سداً لحماية العين من الماء والعرق . وكل ما في جسم الإنسان خلق بأحسن صورة وأجمل منظراً وغرض قال ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم** ﴾(١) وكل ما في الكون مظهر من مظاهر الحق تعالىٰ .

وفي هذه المراحل الأربع لا نجد لله تعالىٰ شريكاً ولهذا يكون واضحاً أنه ليس هناك من محسن غيره ، ولذلك يجب أن نحبه وحده .

والجمال والكمال على قسمين : صوري ومعنوي ، وقد تقدم ذكرهما .

وهناك جمال آخر هو جمال السلوك والصفة . وتعود صفة الجمال إلىٰ ثلاثة أشياء :

١ ـ العلم ، ٢ ـ القدرة ، ٣ ـ التنزه من العيوب .

وأي شخص يمتلك هذه الصفات الثلاث يكون محبوباً ، ولما كانت هذه الصفات هي عين ذات الله سبحانه ، فهو الجمال المطلق ، إذن فهو الذي يستحق منّا الحب الحقيقي فقط .

وكلما ازدادت درجة العلم ازدادت درجة المحبوبية وتتفاوت العلوم بحسب تفاوت المعلوم ، فأشرف علم يكون بأشرف معلوم ، وأشرف معلوم وأجل معلوم هو الذات المقدسة لله جلّ جلاله العظيم ، فيكون العلم بها أشرف وأجل من سائر العلوم الأخرىٰ ، ثم يأتي بعده ما يقرب إليه ، وهكذا ، فيكون هو ثم الأنبياء حسب تفاوتهم في المنزلة أولىٰ بالحب والإجلال ، ثم ما يقربنا منه تعالىٰ من أولياء وأئمة وصالحين .

ولكن يبقىٰ حبنا لله تعالىٰ وللأنبياء والصالحين في حدود معرفتنا

(١) سورة التين، الآية : ٤ .

القليلة وقد ورد في الرواية عن الرسول (ص) وهو يخاطب علي بن أبي طالب (ع) « يا علي لا يعرف الله تعالى إلا أنا وأنت ولا يعرفني إلا الله تعالى وأنت ولا يعرفك إلا الله تعالى وأنا » . ويقصد بذلك المعرفة الحقّة .

فإذا كانت زيادة العلم علّة لزيادة الحب ، فإن درجة حبّنا للعالم سوف يتفاوت بمقدار زيادة ونقصان علمه النافع ، فحبنا للتلميذ ليس كحبنا للأستاذ ، وليس هناك مقارنة بين علم الله تعالىٰ وعلم الإنسان فعلمه تعالىٰ عين ذاته وعلم الإنسان عارض على ذاته تلطف به الله تعالىٰ عليه . وهو محدود قابل للزيادة ﴿ **وقل ربِّ زدني علماً** ﴾[1] لا يرقىٰ به الإنسان إلا على نظائره من البشر ، وما جهلناه أكثر بكثير مما علمناه ﴿ **وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً** ﴾[2] ولما كان العلم حقيقة الجمال فهو تعالى الجمال المطلق وهو المحبوب المطلق وكل حب للأنبياء والأئمة والصالحين يعود إليه ليس غير .

يقول أحد الشعراء : « العالم جميل بنظري ، لأن جماله من الخالق ، فأصبحت عاشقاً لكل العالم ، لأن كل العالم منه » .

وأما صفة القدرة فهي محبوبة في حد ذاتها ، فالإنسان يعجب عندما يسمع بوجود شخص يتمتع بقدرة جسمية أو عقلية ، عمرو بن ود العامري من أبطال الجاهلية يتمتع بقدرة وشجاعة فائقة يقضي على البعير بضربة واحدة من يده ، يكون موضعاً للإعجاب بغض النظر عن كفره ، ونعجب أكثر من أمير المؤمنين علي (ع) الذي جند له في معركة الخندق الشهيرة ، ولكن أين ذلك من القدرة المطلقة لله تعالى ، فإن كل قدرة محدودة بحدود ، وهي نعمة من نعمه تعالىٰ ، ومن غرور الجهل أن يقول فرعون :

(١) سورة طه، الآية: ١١٤ .
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

﴿ وهـذه الأنهـار تجـري مـن تحتي ﴾[1] ﴿ أنـا ربكـم الأعلىٰ ﴾[2] ، فنحـن عاجزون أمام القدرة المطلقة لله تعالىٰ .

وقد ورد عن الإمام الحسين (ع) قوله : « إن الذي تكون قدرته نابعة من العجز فكيف لا يكون عجزه نابعاً من العجز » ، إذن فحبنا يكون لله القادر وحـده الـذي لا تصيَّر قـدرتـه إلـى زوال ، وليـس مـن قـادر مطلـق غيـر ذاتـه المقدسة .

وأما الصفة الثالثة ، التي هي التنزه من العيوب فهي بمعنى أن كل من كانت ذاته خالصة من العيب والنقص أكثر فهو أشرف وأفضل . والاختلاف في الشرف يكون طبقاً للاختلاف في التنزه من العيوب ، كتفاوت الأنبياء والأوصياء والأتقياء في الفضل ، فالتنزه من العيوب الذي كان لسلمان لم يمتلكه أبو ذر ، لأن إيمان سلمان كان من الدرجة التاسعة وإيمان أبي ذر كان من الدرجة الثامنة ومن ناحية القدرة هما يتفاوتان أيضاً ، فحين يضع سلمان قدمه تحت القدر بدلاً عن الحطب فيسخن ماء القدر فيتعجب أبو ذر لذلك . إذن فقد أضحىٰ معلوماً أن العيب عبارة عن نقص وهو عدم حيازة كمال ما ، فيتحقق لدينا أن الكمال لله تعالى وحده ، وأن كل ما عداه ناقص حتى الأنبياء جميعاً .

ولذا فإن الحب الحقيقي له وحده تعالى وحبنا لما عداه مجاز . فكل ممكن ناقص بنقص لا زوال له ، ولذا لا يمكن سلب الإمكان من الممكنات حال وجودها .

فتحصل إذن أن هذه الصفات الثلاث مختصة بالله تعالىٰ ، فهو الأوحد

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٥١.
(٢) سورة النازعات، الآية: ٢٤.

الذي ﴿ ليس كمثله شيء ﴾[1] ، الذي لا ضد له ، الصمد لا منازع له ، الغني الذي لا يحتاج أحداً ، القادر بلا عجز الذي ﴿ ويفعل الله ما يشاء ﴾[2] وهو القائل ﴿ إن الله يحكم ما يريد ﴾[3] . يعني أنه يفعل كل ما يريده من قضاء وقدر ، ولا حق لأحد بالاعتراض عليه ، عالم لا انفصام بينه وبين علمه ، قادر لا يفلت أحد من قدرته ، أزلي لا أول لوجوده ، وأبدي لا آخر له ، مقوّم الموجودات ، جبار السموات والأرضين ، متفرد بعزته وجبروته ، صاحب الفضل والجمال والكمال والبهاء والقدرة الذي احتارت العقول في كنهه وماهيته ، وبذلك أوحىٰ إلى داود (ع) قائلاً : « أوَدّ الأوِّداء إلى من عبدني بغير نوال » وقال « ومن أظلمُ ممن عبدني لجنة أو نار » .

والرواية الأخرىٰ عن عيسىٰ (ع) حين مر بثلاثة أقوام صفر الوجوه وأبدانهم نحيفة فسأل طائفة منهم أبالقوم مرض فقالوا : لا ولكننا نخاف من جهنم فأصبحنا هكذا ، وأجابت الطائفة الثانية إن شوقنا للجنة جعلنا كذلك أما الطائفة الثالثة فقالت : إن حب الله تعالى جعلنا كذلك . فقال عيسىٰ للطائفة الثالثة إذن أنتم أصدقائي وأحبائي لأنكم أحباء الله تعالىٰ ، وأنا عيسى ابن مريم مأمور برفقتكم .

وأما بالنسبة لعامل التشابه المعنوي الذي هو سبب في الانجذاب بين الناس وهو سبب مجهول يحصل عند الإنسان لما يخالجه من شعور بالاستئناس بإنسان قد لا يعرفه سابقه فقد قال علماء الأخلاق في تفسير ذلك : إنه تشابه معنوي بين المحب والمحبوب ، وهو لا يقتصر على المؤمنين فحسب بل قد يحصل لآخرين فاسقين نتيجة للتشابه المعنوي في

---

(١) سورة الشورىٰ، الآية: ١١.
(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٢٧.
(٣) سورة المائدة، الآية: ١.

جانب الشر بينهم . وقد قيل « شبيه الشيء منجذب إليه » .

ولنسأل هل يوجد بيننا وبين الخالق جلّ جلاله تشابه معنوي ؟ والجواب نعم ، إن بيننا وبين الله تعالىٰ تشابه معنوي . أو ما يعبر عنه بالسنخية . ولا نعبأ بالأقوال النافية ، لعدم ثباتها أمام الحجة في ميدان الاستدلال . وهذا التشابه أو السنخية تكون سبباً للاستئناس والانجذاب إليه تعالى ، إننا لو هذبنا أنفسنا كما يريد الله تعالى لاستولىٰ علينا حبّه تماماً ، وأن الله لرؤوف بعباده وهم معرضون عنه . ويتفاوت الناس في حبّهم لله تعالىٰ الذي يعتمد علىٰ درجة الإيمان عند كل واحد منهم **﴿ قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدىٰ سبيلاً ﴾**[1] .

وقد روي أن نبياً غضب على قومه لإعراضهم عنه وإيذائهم له وعدم اهتدائهم فطلب من الله تعالى أن يهلكهم المرة بعد الأخرىٰ ولما ألح بسؤاله أوحى الله تعالى إليه أن يحرث أرضاً ويزرعها ففعل النبي ذلك حتى إذا اشتد النبات وأينع ، طلب الله منه أن يحصده ويلقيه علفاً للحيوانات . فقال النبي : كيف يعقل أن أحصده ولم يبلغ حد الحصاد ، وقد بذلت الجهد الكبير في زراعته ، فأتلفه في غير وقته بالقطع وإلقائه للحيوانات علفاً ؟ فقال له تعالىٰ : فكيف إذن تطلب مني المرة بعد الأخرىٰ أن أهلك عبادي ولما يحن وقت حصادهم ؟ فعلم النبي من ذلك أن دعاءه كان في غير وقته فكف عن الطلب .

وفي رواية أخرىٰ أنَّ أحد الأنبياء دعا الله تعالى أن يهلك أُمّته . فأوحىٰ الله إليه أن يصنع كوزاً وبينما كان مشغولاً في صناعته جاءه جبرائيل (ع) بشكل إنسان واشترىٰ منه سلفاً عدداً من الأكواز ولما حان وقت استلامها

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٤.

أخذ جبرائيل (ع) يضرب بعضها ببعض فهشمها أمام ذلك النبي فجزع النبي لعمله وقال له : لم هشمتها وقد بذلت في صناعتها جهداً متواصلاً حتى أصبحت بهذه الهيئة اللطيفة ؟ فأُجيب : إنك لم ترضَ بتحطيم عدة أكواز صنعتها بيديك . فكيف تريدني أنا خالقك وخالق كل الموجودات ، أن أرضىٰ بهلاكهم ؟ فعلم النبي أنه ارتكب خطأ .

ويروىٰ أن نبينا خاتم الرسل والأنبياء (ص) يسأل الله تعالىٰ يوم القيامة أن يسلمه حساب أمته كي لا يطلع الملائكة على أحوالها ولا تنكشف سرائرها أمام الأمم الأخرىٰ ، فيأتيه الجواب : إنك حقاً نبي رحمة لا تريد أن تنكشف أعمال أُمّتك المنكرة للآخرين ، ولكن اعلم أني أنا كذلك أريد أن أتصرف بحساب عبادي من أُمتك كي لا تطّلع أنت على أحوال عبادي .

والنتيجة أن جميع هذه الروايات تحكي سعة رحمة الله تعالى ، وجميع المطالب المذكورة إنما تنشأ من السنخية بين الخالق والمخلوق ، ولهذا يجب أن تكون محبة الله الخالق تعالىٰ مستولية على كياننا وتلهج ألسنتنا بذكره بوعي وإدراك .

وقد قيل أن أجل العلوم هو العلم بالله تعالىٰ ، والعلم بصفاته وأفعاله . وكذلك العلم بالعوالم الوجودية ، كعالم الملك والملكوت ، فإن استطاع الإنسان أن يتوصل إلى معرفة الله تعالىٰ فلن يرىٰ لذةً توازيها أبداً ، وقد ذكرنا أن للإنسان حواس ظاهرة وباطنة وهي قوىٰ متعددة ، والالتذاذ بأي شيء يكون تابعاً لإدراكه . وجمال أي شيء يكون متعلقاً بكمالاته الذاتية . والجمال لا يكون منحصراً بالإدراكات الظاهرية بل إن إدراك بعض الأشياء يكون بواسطة قوىٰ أخرىٰ من قبيل القلب والفؤاد والبصيرة . فبالبصيرة ندرك الحسن والقبيح وهما خلاصة الجمال وبالعقل ندرك العلم والسخاء والجود والشجاعة وجميعها تعود إلى شعبتي العلم والقدرة ، حيث

ننال حقائق الأشياء بالعلم ونتصف بالقدرة التي فيه بالحقائق المستنتجة الخيّرة . ولهذه الأسباب يكون جميع الأنبياء والأولياء محبوبين لنا ، وكلما كانت قدرة النبي وعلمه أكثر أحببناه أكثر ، كما أن جميع الممكنات تكون علمها وقدرتها زائداً على ذاتها ، ولكن قدرة الله تعالى عين ذاته وكذلك جميع صفاته .

ونتيجة ذلك أن تكون المحبة الحقيقية منحصرة بالذات الإلهية المقدسة فقط ، وهي تحصل لدى الشخص الذي يمتلك البصيرة والنور الرباني ، ومن يفتقد البصيرة والنور الإلهي لا يشعر بهذا الحب ، وهو من الألطاف الإلهية وفي فطرة الإنسان كما قال تعالى : ﴿ **أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه** ﴾[1] .

وكلما أجال الإنسان نظره بهذا النور وأينما توجه رأىٰ الله تعالى كما قال الشاعر :

« كل ما أتخيله وأراه قد بثثت أنت الصحوة فيه وتتجلىٰ فيه قدرتك » .

وما هذا إلا من ظهور الآثار الخفية وهي نور البصيرة والنور الرباني ، وتتفاوت قيمة العلم تبعاً لقيمة المعلوم ، فإن أشرف العلوم ما كان موضوعه ومعلومه أشرف من غيره ، وتكون لذة العلم متفاوتة بذلك المقدار ، وبناء على ذلك فإن العام الذي يكون موضوعه الله تعالى يكون أفضل وأشرف العلوم جميعاً .

وإدراكنا للأشياء على مستويين :

الأول هو التفاوت النوعي ، والثاني تفاوت الدرجة في النوع

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٢٢.

الواحد .

أما التفاوت النوعي فيكون بتفاوت المدركات التي ندركها بواسطة القوىٰ المتفاوتة .

وأما التفاوت في درجة النوع الواحد فيكون حسب تفاوت الدرجات كالتفاوت بين السكر وقطعة الحلوىٰ ، فكلاهما حلو المذاق ولكن التفاوت يكون بحسب الدرجة ، وهذا التفاوت يكون موجباً لتلاشي لذة بعض الأشياء من أجل وجود أشياء أخرىٰ أشد لذةً منها ، كما أن إدراك اللذة يعتمد على مراحل تطور الإنسان ، ولذا فإن وجود الميل عنده ، لذلك الشيء ، ففي الطفولة يكون الميل شديداً إلى اللعب واللهو ، وعند الشباب يكون الميل إلى الجنس شديداً لبروز مناشىء الميل لذلك في هذه المرحلة فلا نعبأ بألقاب الصبا أبداً ، وعند إشباع هذا الميل سيكون لنا ميل آخر هو الحصول على الأموال والأولاد ، وفي هذه المراحل يقترب الإنسان كثيراً من الحيوانات التي لا طموح لها إلا إشباع البطن والفرج ، بينما ينطلق الإنسان الرباني إلى عوالم أخرىٰ فيسمو تاركاً البهائم ومن تأسىٰ بها في الحضيض ، تخالجه لذائذ القرب الإلهي المتوالية المتجددة . فهو ينظر بنور الله تعالى تلفه موجة الحب الخالص وتشع على قلبه فيستأنس بذكر الله تعالىٰ فقط ، يلهج به قلبه قبل لسانه ، ويرىٰ بعين الحقيقة ما لم ير الآخرون من جمال وكمال ، قال الشاعر :

أنا تواً أتممت وضوئي من عين عشق ونطقت بأربع تكبيرات لمن ؟

وانظر جيداً إلى مناجاة الإمام زين العابدين (ع) إذ يقول :

« فقد انقطعت إليك همتي وانصرفت نحوك رغبتي ، فأنت لا غيرك مرادي ولك لا لغيرك سهري وسهادي ، ولقاؤك قرة عيني ووصلك مني

تقسي ، وإليك شوقي وفي محبتك ولهي وإلى هواك صبابتي ورضاك بغيتي ، ورؤيتك حاجتي ، وجوارحك طلبي ، وقربك غاية سؤلي ، وفي مناجاتك روحي وراحتي ، وعندك دواء علّتي ، وشفاء غلتي وبرد لوعتي وكشف كربتي ، فكن أنيسي في وحشتي ومقيل عثرتي ، وغافر زلتي ، وقابل توبتي ، ومجيب دعوتي ، وولي عصمتي ، يا نعيمي وجنتي ويا دنياي وآخرتي ، يا أرحم الراحمين » .

ويقول في مناجاة أخرىٰ :

« إلهي ما ألذ خواطر الإلهام بذكرك على القلوب ، وما أحلى المسير إليك بالأوهام في مسالك الغيوب وما أطيب طعم حبك ، وما أعذب شرب قربك » .

ومثل ذلك وردت عبارات كثيرة على لسان أهل البيت (ع) ، وقد أصبح معلوماً من ذلك أن ألذ اللذائذ هو محبة الله تعالىٰ وهي لا تحتاج لجهود النقل ولا تزاحم عليها ، ولا تخل بمدح الآخرين ولا تثير انتقادهم ، على خلاف المحبة لبقية الأشياء ومن هنا يكون العالم مظهراً من مظاهر الله تعالى ومرآة لعرض الله تعالىٰ ومن هذه الجهة يكون جميلاً .

فالشخص الرباني حين ينظر إلى العالم فإنه سيرىٰ الله تعالىٰ فيه فيشعر بلذة منقطعة النظير وينتزع من آياته الباهرة وحدانية الخالق تعالىٰ قال الشاعر :

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

إن أسعد الناس في دار الآخرة هم أشد الناس حباً لله تعالىٰ ، وذلك لأن أصل وحقيقة الدار الآخرة عبارة عن عالم لقاء الله حيث قال تعالىٰ **﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه**

أحداً ﴾[1] .

وهـذا اللقـاء يحصـل لجميـع العبـاد فـي الآخـرة ولا يختـص بفئـة دون أخرىٰ فالأشقياء المحرومون يصفهم تعالىٰ في قوله **﴿ ولو ترىٰ إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ﴾**[2] .

وأمـا السعـداء فهـم **﴿ فـي مقعـد صـدق عنـد مليـك مقتـدر ﴾**[3] فهـم غارقون في لذة القرب ، إذن فكل من كان يحمل الحب في قلبه لله تعالىٰ في هذه الدنيا ، سيحظى بلقاء القرب بربه تعالىٰ ومحبوبه العزيز ، وكلما كانت محبته أكثر فسوف تكون لذته أكثر .

وقـد يحصـل التفـاوت فـي المحبـة بـاختـلاف المحبـوب ، وشـدة ميـل النفس نحوه ، فالدنيا دار العمل والآخرة دار الجزاء والأجر « الدنيا مزرعة الآخرة » فمن يخلو قلبه من محبة الله تعالىٰ في الدنيا لن يكون له نصيب في الآخرة كما قال تعالىٰ **﴿ ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾**[4] . إذن فأصل المحبة يكون في الدنيا ، وكماله يكون في الآخرة ، لقوله تعالى : **﴿ ربنا أتمم لنا نورنا ﴾**[5] . وقد ضرب بعض العلماء مثالاً لتفاوت حال الدنيا عن الآخرة بأن الإنسان قد يلاقي محبوبه أحياناً في جو مليء بالغبار والأكـدار ، وأحيـانـاً يـلاقيـه في جـو لطيـف مـلائـم فحينئـذ يـلاقيـه عـن قـرب وصفاء ، فاللقاءان وإن كان كلاهما لذيذاً ولكن البون شاسع بينهما ، ولذا قيل أنّ أسعد الناس في الآخرة أشدهم محبة لله تعالى في الدنيا ، وعلة ذلك

---

(١) سورة الكهف، الآية: ١١٠ .
(٢) سورة السجدة، الآية: ١٢ .
(٣) سورة القمر، الآية: ٥٥ .
(٤) سورة النور، الآية: ٤٠ .
(٥) سورة التحريم، الآية: ٨ .

أن دار الدنيا دار الانشغال بأمور كثيرة كالعمل في حقول الزراعة أو التجارة وبمشاكل الأسرة مما يشكل مانعاً لتضرع الإنسان وارتباطه بالله تعالىٰ فيكون كالسجين الذي حجزه السجن عن حبيبه فإذا جاء أجله انطلق من سجنه للقاء حبيبه دون استعداد لذلك اللقاء .

إن كل مؤمن لديه مقدار من الحب لله تعالى بمقدار ما يحمل من إيمان ومعرفة ، فحين يبذر بذرة المعرفة والإيمان في قلبه فإن الثمرة ستكون هي المحبة (المعرفة بذر المحبة) .

واختلاف الناس في المحبة يكون لاختلافهم في المعرفة ، وهي قابلة للزيادة حتىٰ تصل إلى درجة العشق والهيام بالمعبود تعالىٰ .

والمقصود من المعرفة هي المعرفة الحقيقية وقد قلنا : إن الإيمان إما أن يكون تقليدياً أو تحقيقياً ، فبعض الناس يستمعون القول فيتبعون أحسنه ويهتدون بهدي الله تعالى ولكنهم لا يتأملون بدقة وعمق فتتولد المحبة في قلوبهم بهذا المقدار ، وهذه أيضاً تكون على شكلين : ـ أحدهما الذي في الذكر الحكيم : ﴿ **واعلموا أن الله سميع** ﴾ أو ﴿ **إن الله بصير** ﴾ أو ﴿ **ان الله على كل شيء قدير** ﴾ فيذعنون ويصدقون وهي حالة موجبة لنجاتهم يوم القيامة ، وهم أصحاب اليمين ، وطائفة أخرىٰ لا تحصل لديها تلك الحالة من الحب نظراً لأعراضهم وربما يصورون الله تعالى بصورة مختلفة فيجسمونه ، وبهذا المقدار تحصل لديهم محبة زائفة وهؤلاء هم أصحاب الشمال ، ومجموعة أخرىٰ يصلون إلى المعاني الواقعية بطرق مختلفة فيتملكهم الحب الحقيقي الخالص ، فأولئك هم المقربون من الأنبياء ، وورثة الأنبياء في تلك العلوم .

ولقوة المحبة سببان :

أولهما : قطع علاقة القلب عن الدنيا . والثاني : قوة المعرفة والإيمان .

أما السبب الأول ، فإن علماء الأخلاق يشبهون القلب بظرف يحوي مقداراً من الماء كدورق سعته خمسة أكؤس من الماء ، فإن ملأناه بماء آسن فلن يبقىٰ فيه مجال للماء الصافي ، وبالعكس من ذلك فإن ملأناه بالماء الصافي فلن يبقى فيه مجال للماء الآسن ، ويمكن مزجهما بإراقة مقدار من كل منهما فيكون خليطاً تظهر فيه آثار ما غلب مقداره ، وكذلك حال القلب . فإن امتلأ القلب بحب معين ثم أدخل عليه حب ثان ، فإن الثاني سيزيح من الأول بمقدار ما سيدخل منه ليشغل مكانه ، وبهذا قال الله تعالى في محكم كتابه : ﴿ **ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه** ﴾[1] .

ومثال آخر على ذلك وهو المشرق والمغرب ، فإن افترضنا أن إنساناً كان موجوداً في الغرب فإنه سيكون بعيداً عن المشرق بذلك المقدار ، وكلما تقدم بضعة أقدام من المشرق ، فإنه سيبتعد عن المغرب بنفس ذلك المقدار ، وكذلك حال الدنيا والآخرة ، فإن تقدمت عدة أقدام إلى الدنيا فإنك تكون قد ابتعدت عن الآخرة بذلك المقدار ، إذن فالجمع بين الاثنين محال وممتنع ، ونقصد به الجمع بين حب الدنيا وحب الآخرة بصورة كاملة في آن واحد ، لأنه بمقدار انشغاله بأحدهما تكون غفلته عن الثاني .

فالقلب الذي تستولي عليه محبة الله تعالىٰ لن تكون فيه محبة لشيء آخر ، لأنها لا تجتمع مع محبة الله تعالىٰ .

وإذا قلنا أن الحب يجب أن يكون لله وحده فليس معنى ذلك أنه لا يجب علينا حب النبي وآله المعصومين (ع) مثلاً ، بل يجب علينا ذلك ولكن

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٤ .

يجب أن لا يتقاطع مع حب الله تعالى بل أن يكون من آثاره ونتائجه .

إذن فإن أول أسباب المحبة هو قطع العلاقة بهذه الدنيا ، وهذا لا يحصل إلا بالزهد ، والزهد لا يحصل إلا بالخوف والرجاء ، وسيأتي توضيح ذلك إن شاء الله تعالى . والخوف والرجاء يحصلان بدرجة واحدة من المحبة لله تعالى ، والإيمان بالجنة والنار ، إذ أن الإيمان بالجنة يبعث الرجاء والإيمان بالنار يبعث الخوف ﴿ **ذلك يخوف الله به عباده** ﴾[1] . والخوف والرجاء والزهد يفرغان القلب من محبة الدنيا ، فيكون مهيّئاً لبذر بذور المحبة الحقيقية فيه ، وبهذا المعنىٰ قيل « الطهور شطر الإيمان » وللإيمان شعبتان :

أولاهما : الشعبة العلمية ، وتكون بمنزلة الجناح الأيمن ، والشعبة الثانية هي العملية ، وهي بمنزلة الجناح الأيسر ، وهي عبارة عن الإتيان بالعبادات في محلها من صلاة وصيام وحج وزكاة وجهاد وأمثالها ، فهذه الأعمال جزء من الإيمان ، وبهذا نقول : إن القلب إن لم يخل من المحبوبات الدنيوية فلن يجد الإيمان مكاناً له فيه . وإن استحوذ الإيمان على القلب يحصل بأمرين : أولها تخلية القلب من الصفات الذميمة لحد الطهارة ، والثاني : التحلي بالأخلاق الحسنة . وهذا من المحبة المجازية التي تدور في النهاية في محبة الله تعالىٰ فالشخص المحب يطلب من حبيبه الإخلاص في حبه والانقطاع إليه كي لا يشرك أحداً معه في الحب ، وهو إثم وظلم عظيم وقد سمّاه الله تعالىٰ بالشرك . وبواسطة الحب المجازي يأتي الحب الحقيقي كما قيل « المجاز قنطرة الحقيقة » . فمحبة زليخا للصدِّيق يوسف (ع) مثلاً كانت في البداية مجازية ولكنها وصلت إلى حد الحقيقة في ما بعد . فإن تخلىٰ القلب عما سوىٰ الله تعالىٰ وتطهر عن كل شيء دونه

---

(١) سورة الزمر، الآية: ١٦.

خلصت المحبة طبقاً للمقولة أن الطهور شطر الإيمان ، ولذا جاء في حديثه القدسي « لا تسعني أرضي ولا سمائي ولكن يسعني قلب عبدي المؤمن » وآنذاك تباشر المحبة قلب المؤمن كما ورد في الأدعية المأثورة « اللهم إني أسألك إيماناً تباشر به قلبي » . وعلة ذكر القلب في كافة الأحاديث راجعة لكونه سلطان مملكة البدن ، إذ تخضع لأوامره كافة أعضاء وجوارح البدن ، ولأن ولاء القلب يكون لله تعالىٰ فإن كل أعمال أعضاء وجوارح البدن ستكون خاضعة له تعالى أيضاً .

والسبب الثاني :

قوة المعرفة فكلما ازدادت معرفة العبد بخالقه اشتدت محبته وهذه مسألة لا تحتاج إلى برهان ، نظراً لأن الله تعالى كامل ، بل هو عين الكمال ، وجميل وهو عين الجمال ، وجلاله عين الجلال وحين يكتشف الإنسان مثل هذه المعرفة فإنه سيحبه طبعاً وقهراً . وكلما ازداد اطلاعه أكثر ازداد حبّه له أكثر ، ولأن حسن الله تعالىٰ وصفاته لا متناهية فتكون معرفة العبد به لا متناهية أيضاً . وهذا يحصل بعد قطع العلاقة بالدنيا ، حيث تبذر بذور الإيمان ، كمثل الفلاح حين يريد زراعة أرضه ، فإنه يطهرها أولاً من الحشائش والأشواك ، ويزيل كل العقبات التي تقف في وجه الزراعة ، ثم يحرث الأرض ويهيؤها للزراعة ، ثم يراقبها بعد بذر البذور ويحافظ عليها من الآفات لكي لا يصيبها التلف . وعند ذلك سوف يجني محصوله سالماً ناضجاً ، والقلب يشبه الأرض ، فتطهيره من الأدران والشوائب ورذائل الأخلاق لا بد منه أولاً ، كي تزال جميع الموانع ، ويصبح مهيئاً لبذر بذور المعرفة الإلهية ، وثمرة ذلك ستكون المحبة والعيش في رحاب محبوبه مسروراً بذلك أيما سرور شاعراً بلذة لا تعد لها لذة .

إن ترتب هذه اللذة على المحبة يكون قهرياً وضرورياً كما تكون لذة

السكر قهرية .

والمحبة لازمة للمعرفة ، ولا يمكن تخلفها غالباً ، فمن مستلزمات إدراك الجمال حب الجمال . والقلب الذي يخلو من معرفة الله تعالى يكون منشغلاً بغيره ، والقلب ليس كالأرض التي وإن طهرها الفلاح من الحشائش والأشواك فإنها لا تثمر ما لم تبذر ببذر ما ، بل القلب بمجرد تطهيره وتخليته من الرذائل تظهر فيه بعض الآثار من المعرفة الإلهية ، فهو يشبه المرآة التي تزال عنها والشوائب والعتمة لتبدو صقيلة صافية تعكس النور قهراً ، إذن فترتب حصول المعرفة على تنقية وتطهير القلب أمر قهري ، وهذه علامة بذرة شجرة المعرفة في القلب ، التي ثمرتها المحبة في القرآن الكريم ، والتي عبّر عنها بالشجرة الطيبة كما قال تعالىٰ : ﴿ **ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء** ﴾[1] والمراد من السماء سماء عالم الربوبية الذي ﴿ **إليه يصعد الكلم الطيب** ﴾[2] وهي الشجرة الطيبة نفسها التي يعلوها العمل الصالح ﴿ **والعمل الصالح يرفعه** ﴾[3] وكل ذلك يكون من بركات المعرفة البسيطة حيث يتطهر الإنسان بواسطتها وبالتطهر تزداد هي كذلك . والمعرفة والعلم شيء واحد ، ويمكن القول : إن المعرفة الحقيقية تحصل بالعمل الذي هو تطهير القلب . والعمل يكون من آثار المعرفة الأولية والعلم الأولي « فالعلم هو الأول والعلم هو الآخر » . فالعلم الأول هو علم المعاملة ، والعلم الثاني هو العلم التحصيلي ، الذي يكون طلبه من أجل الله تعالى ومن أجل إيجاد قوة المعرفة .

(١) سورة إبراهيم، الآية : ٢٤ .
(٢) سورة فاطر، الآية : ١٠ .
(٣) سورة فاطر، الآية : ١٠ .

إذن فمن أجل تطهير القلب نحتاج للفكر الصافي عما سوىٰ الله تعالى والذكر الدائم ، وعلو الهمة ، والنظر الثابت بصورة دائمة ، بحيث نستطيع القول إن لم تكن تلك الأمور موجودة فلا يكون تطهير القلب ميسراً ، وقد أنعم الله تعالىٰ علينا بتلك القدرات لكي نصل إلى المعرفة الحقّة وتغمر قلوبنا بأنوارها القدسية وتجتث من أعماقنا موانع العروج والسمو إلى حضيرة القدس الربانية .

إن تغلغل السكر في غياهب أعماق التفاح المُربّىٰ فلأنه يتداخل في جميع أجزائه فسيغلب طعم السكر على طعم التفاح ويضحىٰ جميعه سكراً ، وهذا يكون أيضاً حال استيلاء المعرفة على أجزاء القلب جميعاً بحيث إذا تفحصناه فلن نجد فيه غير محبة الله تعالى ، وعندها سيلهج اللسان بذكر الله تعالىٰ دائماً ولا ينظر إلى شيء إلا ويرىٰ الله تعالى فيه وقبله وبعده .

وقد ورد في الحديث : « لربكم في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها » وأفضل الذكر ما يكون في ملأ من الناس وتذكيرهم بالنعم الإلهية ، فإن التحدث بها من أفضل أنواع الشكر للخالق تعالىٰ .

ولحصول المعرفة طريقان : أحدهما طريق الخواص والآخر طريق العوام .

أما طريق الخواص فقد أشار إليه تعالىٰ في القرآن الكريم حيث تكفل هو بنفسه بالدلالة على نفسه وبعدها تحصل المعرفة بالخلق كما قال تعالىٰ : ﴿ **أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد** ﴾[1] أو حين يقول ﴿ **شهد الله أنه لا إله إلا هو** ﴾[2] فمن أراد الشمس استدل بها على نفسها ، وقال الإمام

(١) سورة فصلت، الآية: ٥٣.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٨.

السجاد (ع) « بك عرفتك وأنت دللتني عليك ودعوتني إليك ولولا أنت لم أدرِ ما أنت » . وقال الإمام علي (ع) في دعاء الصباح : « يا من دل على ذاته بذاته وتنزه عن مجانسة مخلوقاته » .

وقد أحاط اللثام الإمام الحسين (ع) عن أروع صورة ترسمها لنا ألفاظه في قوله : « فكيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك ؟ إلغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك ؟ متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ؟ ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك ؟ عميت عين لا تراك ولا تزال عليها رقيباً وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيباً » .

هذا هو طريق الخواص ، إذ يستدلون على الله تعالىٰ بذاته دون الحاجة إلى الوصول إليه عن طريق آثاره ، ثم يتجهون إلى عالم المخلوقات كما قال الشاعر : أصبحت عاشقاً للعالم لأن جماله منه ولأن العالم كله منه .

وحين يصل الإنسان إلى هذه الدرجة ، فلن يجد الغم والحزن مكاناً في قلبه ، لأن القلب يبتهج بحب الله تعالى ، ويصير قلباً شكوراً .

وأما عامة الناس فإنهم يستدلون على الله سبحانه وتعالى بواسطة آثاره ودلائله ، أي عن طريق المصنوع إلى الصانع ، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في آيات عديدة نذكر منها ، قوله :

﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ﴾[1] ، وقوله تعالى : **﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت * وإلى السماء كيف رفعت * وإلى الجبال كيف نصبت * وإلى الأرض كيف**

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩٠.

سطحت ﴾[1] .

ومثل هذه الآيات كثيرة في هذا الباب من التذكير بالنعم التي تفضل بها سبحانه على عباده . وهذا الطريق واضح ، ويؤدي إلى الإيمان والتعلق به تعالى ، ولأجل ذلك لا بد من النظر في آيات الله تعالى في الكون بإمعان وتفكر ولذا قيل إن « فكر ساعة خير من عبادة سنة » . وسبب انغلاق هذا الطريق أمام أغلب الناس يعود لأمرين :

الأول : الغفلة ، وهي تعتبر من أشد الأمور السلبية التي تصيب الإنسان فتشغله عما ينبغي أن يقوم به تجاه خالقه تعالىٰ من شكر وتعلق به دون غيره وهذا من أسباب كدورة النفس وتلوثها بالذنوب .

والثاني : كثرة الآيات والدلائل التي يفتح كل منها باباً في المعرفة فيعجز بعض الناس عن إرجاع الدلائل والآيات بأسرها إلى وحدة جامعة تؤدي إلى الإيمان بوحدانية الخالق . فنحن حينما نرىٰ العمارة نتصور المعمار وعندما نرىٰ السجادة نتصور النساج وهكذا ، ولكن الكون في حقيقته يرتبط بمبدع وخالق واحد لا شريك له يقول الشاعر :

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

وطريقة استقراء هذه الدلائل غير المتناهية في الآفاق وفي الأنفس والأشياء قربت منّا أو بعدت فكلها تشير إلى إثبات الخالق فحين ينظر الإنسان البدوي إلى بعيره يستدل به على وجود لخالق تعالىٰ ولذا أشارت الآية الكريمة إلى هذا المعنىٰ في قوله تعالىٰ : **﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ﴾**[2] ولو أجلت نظرك في السموات والأرض أينما كنت فسترىٰ قدرة

(١) سورة الغاشية، الآيات: ١٧ ـ ٢٠

(٢) سورة الغاشية، الآية: ١٧ .

الله تعالى متجلية كما قال تعالى : **﴿ وإلى السماء كيف رفعت ﴾**[1] **﴿ وإلى الأرض كيف سطحت ﴾**[2] . أو حين تنظر إلى الجبال وسفوحها فسترىٰ الله تعالى كذلك **﴿ وإلى الجبال كيف نصبت ﴾**[3] . إذن فمثل هؤلاء الأشخاص لن يكونوا بحاجة لحضور قاعات الدرس لمعرفة الخالق تعالى ، فإن الإنسان أينما وحيثما كان يستطيع معرفة الله تعالى بالطريقة السهلة التي يسرها له ، وما أعظم آفاق العوالم الربانية التي لا تشكل أرضنا فيها إلا كوكباً صغيراً محدود الأبعاد وكما قال الشاعر :

« الأرض قبالة الكون لا تعدل حبة سمسم تتأرجح على سطح المحيط » .

وقد دلّت الاكتشافات العلمية الحديثة أن الشمس أكبر بكثير من حجم الأرض حتى أن المراصد الحديثة ذكرت أن حجم الشمس يعادل مليون وأربعمائة وأربعة وتسعون ألف مرة بقدر الأرض .

فما أصغر الأرض قبالة الشمس ! فالأرض وطبقاً للفلكيين المعاصرين فإن الأرض تبعد عن الشمس بفاصلة خمسمائة عام ، وأن لها حركتين إحداها : حول الشمس ، والأخرىٰ : حول نفسها ، فتتولد الفصول الأربعة من دورانها حول الشمس ، ويتولد الليل والنهار من دورانها حول نفسها . وما هي إلا كوكب يدعىٰ بالأرض ، وكذلك إن سرنا خمسمائة عام أخرىٰ فسنصل إلى كوكب إسمه المريخ وهو كذلك ذو حركتين حول الشمس وحول نفسه ، وإن سرنا خمسمائة عام أخرىٰ نصل إلى كوكب آخر اسمه المشتري وخمسمائة عام أخرى نصل كوكب زحل ، وبعده لن ترىٰ

---

(١) سورة الغاشية، الآية: ١٨.

(٢) سورة الغاشية، الآية: ٢٠.

(٣) سورة الغاشية، الآية: ١٩

كواكب .

فلنفترض أننا جالسون في إحدىٰ الزوايا ، فتأتي فجأة بعوضة ضئيلة تخاطبنا بصوتها الضعيف : يا عبد الله انظر إليّ وجُل بفكرك واستقرىء وجودي . ثم اعرف خالقي فأنت لا ترىٰ مني غير الجناحين ولكن الواقع أن جسماً وروحاً ، وفي جسمي كل ما في جسمك من قدم ويد وعين وأُذن وغيرهما ، وعلاوة على ذلك فإن لدي جناحين لا تملكهما أنت ، وقد جعل الله تعالى لي شكل الفيل فمنحني الخرطوم وفي رأسه المنقار الحاد والإبرة ، فأغرس ذلك في جسمك وأمتص دمك فلا تلتفت إلا إلى وخزته ، وكذلك عندي كل ما عندك من قوة هاضمة ودافعة وماسكة ومولدة وكل ما لديك من أجهزة الغذاء من فم ولسان وحلقوم ومعدة ورئة .

وأما بشأن روحي فإني أحس بروحي الحيوانية وأدركها وعندي فهم إرادي للحركة ، ولديّ القوة اللازمة لدفع الضرر وجلب المنفعة .

إذن فكيف لا يكون سبيل الله تعالىٰ مفتوحاً للجميع ؟ وبهذا فإنه لا حاجة لمغادرة البلاد والتجوال في العالم لكي نعثر على الله تعالى ، فأين ما نكون سنستطيع أن نجده ونستدل عليه .

﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً ﴾[1] .

إن مثل هذا الاستقراء يكون موجباً لازدياد المعرفة ، ويجب أولاً تطهير القلب من التعلق بالدنيا حتى يحسن استقراء هذه النعم ، ونحن جميعاً ضيوف على مائدة الله تعالىٰ ، نمد أكفّنا لتناول الطعام منها دون الاستفسار عن المضيف .

---

(١) سورة الكهف، الآية: ١٠٩ .

فالغفلة يمكن علاجها بالرجوع إلى الله تعالىٰ وتدبر آياته ، والمعرفة هي التي تضفي على القلب حالة نورانية تجعله لا يرىٰ سوىٰ الله تعالىٰ ، أينما تقلب أو نظر .

يحكىٰ أن شخصاً كان يسعىٰ وراء كنز مدة طويلة ، ويلتقي بكثير من الناس ويستفسر منهم ، فلم ينل بغيته ، حتى جاءه شخص في المنام وقال له : خذ قوساً وسهماً وارمه فأينما يسقط السهم فاحفر هناك فستجد الكنز ، فذهب يقذف سهمه بقوة ويحفر فلم يجد شيئاً وبقي على هذه الحال مدة أربعة عشر عاماً ، وبعدها جاءه ذلك الشخص في المنام وقال له : لقد قلت لك ارم سهمك بقوتك الطبيعية ولا ترمه بشدة ، وحين أفاق رمىٰ سهماً فسقط قريباً منه ، وحين حفر في ذلك الموقع عثر على الكنز .

وهذه إشارة إلى أن الله تعالىٰ قريب جداً من عبده فلا حاجة للسعي هنا وهناك بحثاً عنه ، إذن فاستقراء هذا السبيل يوجد لدينا المعرفة والمحبة . فلنعقد المجالس ولنحضر الحلقات العامة أو الخاصة لنسافر بفكرنا في عالم الله تعالىٰ الرحب ، ولكن جميع عمرنا لا يكون كافياً لذلك ، لأننا أيقنا أن نعم الله تعالىٰ وكلماته لا نفاد لها ولا نهاية .

والنتيجة من هذا البحث هي أن المعرفة تستحصل من دلائل الآيات اللامتناهية ، وأن المحبة كذلك تُستحصل من المعرفة . وإن المتفق عليه أن البشر لن يستطيعوا معرفة ذات الله ، بل أن المعرفة به فرع من فروع معرفة آثاره كما جاء في الحديث « تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في ذات الله » وذلك لأن قابلياتنا الذهنية أضأل من أن تدرك حقيقة ذات الله تعالىٰ ، ويضل الإنسان في ذلك الطريق ، فكيف يسلكه ولا مادة له فيه ولا مقدار ولا جهة ولا مكان ولا حدود ؟ إذن فالتفكر بذات الله تعالىٰ غير ممكن ، بل إنه

سيكون مورداً للحيرة والاضطراب وباعثاً للضلال عن غير قصد كما قال الشاعر : « ذلك أنك توهمت أنني لست أنا » .

ومعنىٰ كلمة الخالق في اللغة العربية هي (الله) والتي تعني المطلق الذي يجمع كل الصفات الكمالية ، وأحد معاني كلمة الله هي الحيرة نظراً لأنها مشتقة من الوله . وللناس مراتب ودرجات في حقل التفكر في آلاء الله تعالىٰ لأن كل شيء نستطيع رؤيته بنظرتين مختلفتين أولاهما : النظر إلى الآثار مجردة ، فلا نرىٰ المؤثر عند رؤيتنا الآثار كأن ننظر إلى الشمس والقمر وغيرهما بنظرة مجردة عن الخالق جل شأنه العظيم ، وأخرىٰ ننظر إلى الأثر لنرىٰ من خلاله المؤثر والخالق العظيم . ولن نصل لمعرفة الله في النظرة الأولى ، ولكننا نصل لذلك بالنظرة الثانية . وأغلب الناس قد ألقوا أنفسهم في أرض مجدبة بالغة الوعورة نتيجة لنظرتهم الأولىٰ لأنهم لا يرون إلّا الآثار دون موجدها .

فلنفترض أن شخصاً صنف كتاباً فإن مشاهدة الكتاب ستكون بواحدة من ثلاث طرق :

الأولى ـ أن يكون الكتاب مدوناً بخط جميل وجلده لطيف وورقه صقيل . فحين نرىٰ مثل هذا الكتاب فسيكون إعجابنا به وحده ، ولن نرىٰ شيئاً آخر كالمؤلف أو الخطاط ، وعلى هذا فإن نظرة بعض الناس للموجودات تبدأ وتنتهي علىٰ تلك الشاكلة .

الثانية ـ أن يكون النظر إلى الكتاب للاطلاع على الحقائق المدونة فيه وطريقته في التبويب وأسلوبه في التعبير عما يريد إلا أنه اطلاع عام يخلو من العمق والدقة . والذين يتعرفون لله تعالى بهذه الطريقة سيمتلكون من المحبة لله تعالىٰ بالمقدار الذي يستوعبونه من هذه المعرفة .

الثالثة ـ النظرة الدقيقة إلى الكتاب واستيعاب ما فيه من حقائق وفنون وهذا النظر لا تتيسر إلا لذوي الخبرة في ذلك الميدان ، فالنظرة الأولى نظرة سطحية والثانية نظرة إجمالية والثالثة نظرة تفصيلية .

والناس يختلفون في معرفتهم ومن ثم في محبتهم لله تعالى بهذا الشكل ، وقد سبق القول : إنه لا شيء أجلىٰ وأظهر من الله تعالىٰ وإنما يكون خفاؤه لشدة ظهوره . وخفاء الأشياء عن نظرنا لأمرين : أما لتناهيها في الصغر حتىٰ تخرج عن مستوىٰ النظر المجرد كالميكروبات الضئيلة في حجمها ، أو لشدة ظهور الشيء حيث لا نستطيع مواجهته كالخفاش الذي لا يستطيع رؤية الشمس لا لخفائها ، وإنما لشدة سطوعها . إذاً ، فعلة عدم رؤيته للشمس ليس لأنها غير موجودة ، بل لأن عينيه تريدان قلة الضياء .

نحن البشر جميعاً مثل هذا الخفاش لا نرىٰ الله تعالىٰ لأن عيوننا لا تستطيع رؤيته ، والشيء الذي يمنعنا من الرؤية هو الغفلة ، ومثال ذلك القلم الذي يتحرك فوق الورقة فنسأل هل أن فعل القلم بسبب القلم ذاته أم بسبب فعل الورقة ؟ والحق أنه ليس بسبب أيّ منهما فالاثنان جمادات لا روح ولا علم ولا قابلية فيهما ، وإنما السبب يد الكاتب التي تحرك القلم . ونحن بسبب فعل الكاتب نكون عالمين وبأربع صفات له :

فالشمس لا تحتجب عن الخفاش إنما هو الذي يحتجب عنها لقصور في قدرته على مواجهتها ، ونحن كذلك نحتجب عن الله تعالىٰ ، وهو ظاهر كلّت عن ظهوره الظاهرات . وقد ذكرنا أن الغفلة هي التي تحجبنا والمعاصي هي التي تمنعنا ، فلو نظرنا كتابة على ورق فهل تحتمل أن ذلك من فعل القلم بمجرده أم الورقة ؟ لا هذا ولا ذاك بل كاتب كتب ذلك ، وعندها نكتشف أربعة أمور : أولها ـ الحياة : لأنه يجب أن يملك الحياة

حتى يستطيع الكتابة .

ثانياً ـ معرفة الكتاب : فبدون معرفته للكتابة لا يمكن أن يفعل شيئاً منها .

ثالثاً ـ القدرة على الكتابة : فلو كانت يده عاجزة عن الكتابة لما أمكن أن تحصل منه .

رابعاً ـ الإرادة : والمقصود أن الكاتب وإن توفرت فيه الأمور المذكورة إلاَّ أنه لو لم يقصد بإرادته الكتابة لم يحصل منه ذلك .

إذن فنحن قد عرفنا أربعة أمور : وهي العلم والقدرة والحياة والإرادة ، من خلال مشاهدة واحدة . وما عدا الكتابة ليس هناك ما يدل عليها ، فإن رؤيتنا لملابس إنسان لا تدل على الكتابة كما أنها لا تدل على الحياة والعلم والقدرة والإرادة بهذه الصراحة التي دلت عليها الكتابة . فإن شخّصنا نوع خطه ظهر لنا أثر آخر من خلال الكتابة ، وهكذا فإننا عندما نتدبر في آيات الله تعالى نصل إلى الخالق المبدع العظيم .

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

يعني أن في كل شيء دليلاً على وحدانية الله تعالى ، فلو فرضنا أن لهذا الكون خالقين واستطعنا تمييز مخلوقات كل واحد منهما ، فسوف يكون العلم بمخلوقات أحدهما علماً بخالقها ، ويعرف الآخر بسلب هذه المخلوقات عنه فنعرفه بما ليس له ، وقد قيل « تعرف الأشياء بأضدادها » ولما لم يكن لله سبحانه وتعالى ضد ، فقد تفرد سبحانه وتعالى بجميع المخلوقات وتنزّه عن الشرك ، فدلت عليه كل الآثار فتجلىٰ بوحدانيته ولكن شدة ظهوره صارت سبباً لغموضه لقصور في ذواتنا كمن يواجه نوراً قوياً ساطعاً عند خروجه من ظلمه فإنه لا يبصر ما حوله لشدة النور الذي يسلب

منه رؤيته

يـــا مـــن هـــو اختفـــى لفـــرط نـــوره   الظـــاهـــر البـــاطـــن فـــي ظهـــوره

وقـد خلـق الله تعـالـى المـوجـودات مـن أجـل أن يعـرف ، إذ ورد فـي الحديث القدسي « كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لكي أُعرف » . وحيثما وجدنا مصنوعاً للصانع العظيم جل جلاله وجدناه مرآة لتعريفه والدلالة عليه ، لأنه من المتعارف أن لكل صانع مميزات تميزه عن غيره ، والتعرف عليه يكون بآثاره المميزة له وحده ، ولكن لعدم وجود ضد لله تعالى فمن هذه الحيثية قد يأتي الخفاء على الناس بالنسبة لله تعالى وقد قال أحـد العلمـاء : إن الأسمـاك الصغيرة ذهبت إلـى الحيتـان متسائلـة : أن البشـر يقـولـون « نـريـد المـاء نـريـد المـاء » فنـريـد أن نعـرف مـا هـو المـاء وأيـن يوجد ؟ فكان الجواب : الماء هو هذا الذي تسبحون فيه ، فهو يغمركم ولو خرجتم منه لفارقتم الحياة . وهذا يكون لشدة غلبته وكثرته التي تكون موجباً لاستبطانه ثم عدم الالتفات إليه ، مثل الهواء الذي تعيش فيه كل المخلوقات ذات الـروح مـن حيـوان وإنسـان ، والجميـع يستنشقـه ، وحيـاتهـم مـرتبطـة بوجوده وما أكثر الأشياء الموجودة فيه ونحن لا نعرفها ولا نراها ويكون كل هذا معلوماً لنا حين نغطس غطسة واحدة تحت الماء فنشعر بالحاجة للهواء ، فنعرف آنئذٍ أهميته لاستمرار الحياة . وهذا شبيه لمثال الماء عند الخروج منه ، فهنا تكون غلبة الهواء باعثاً لخفائه عنا وكذلك حين نرى النور يسطع منعكساً من البنايات نتوهم أنه منها ، ولكن شدته وضعفه وتتابع شروق الشمـس وغـروبهـا تجعلنـا نفهـم أن النـور يصلنـا مـن الشمـس وليـس مـن البنايات ، إذاً فقد أصبح الشروق والغروب معرفاً للنور ، فنقول : ما دام الله تعـالـى ليـس لـه أفـول وشـروق وغـروب ، لـذا فـإنـه يكـون خفيـاً وغـائبـاً عـن الناس .

قال الشاعر :

لـو كـانـت الشمـس علـى وتيـرة واحـدة لكـان شعـاعهـا علـى منـوال واحـد
ولمـا علمـت أن ذلـك النـور منهـا فحينهـا لـن تميـز بيـن العقـل والجلـد
العـالـم ذاتـه شعـاع ضيـاء الله الـذي لا يـأفـل فلـذا يكـون وجـود مبهمـاً

وقال آخر :

كـان مـن كمـال كبريائـك أن تمنـح «قطـرة نـدىٰ» العـالـم مـن بحـر عطـايـاك
فكلما حمدناك وأثنينا عليك وجدنا أن الحمد والثناء من صنع يديك

وقال آخر :

النـور مطـوق بضـده فلـم تـر لـونـه	فبـذلـك الضـد عثـرت علـى النـور
لـذلـك عـرفـت النـور بضـده	والضـد يـدل علـى الضـد عنـد حـدوثـه
فقـد خلـق الله الهـم والغـم	حتـى يبـدده بـواسطـة الخيـر
إذن فكـل هـذا الإبهـام يفسـره ضـده	ولكـن الله لا ضـد لإبهـامـاتـه
لم يكن وليس كائن ضد لله في الوجود	حتـى نعـرفـه بتلـك الأضـداد

ويتجلىٰ لنا من هذه النظرة نموذجان متفاوتان ، نموذج سما به توحيده إلىٰ أعلى مراتب المعرفة ، كالإمام أمير المؤمنين (ع) ونموذج أخلد إلى حضيض الكفر ويكون هذا التفاوت في المعرفة من تفاوت المشاهدة للآثار . أي أن أحدهم يعرف المؤثر بالآثار الدالة عليه ، والآخر يعرف الآثار بواسطة المؤثر الموجد لها ، وآخر لا يرىٰ في مشاهدته إلا الآثار

نفسها . وقد ذم الله تعالى هذه الجماعة الأخيرة في القرآن الكريم : **﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾**[1] .

والطائفة الأولىٰ تلاحظ الأشياء بصورة آلية .

أي أنهم يتخذون الموجودات وسائل دالة للتعرف على الله ، ويسلكون طريق الله من خلال مشاهدتهم الأشياء بعلم وقدرة وإرادة الله تعالى . ولكن الطائفة الثانية تشاهد الأشياء مشاهدة استقلالية ولا تلتفت إلى شيء آخر .

لا يزال حديثنا في محبة الله وقلنا أنها علىٰ قسمين : أحدهما علمي والآخر عملي ويبحث القسم العلمي في إمكانية محبة العبد لربه وهل هي أمر معقول أم لا ؟ وبحمد الله فقد توصلنا في بحثنا إلى كون المحبة ممكنة ومعقولة وقبل أن نتطرق لطريقة إيجاد المحبة وعلاماتها . نذكر أن جماعة من العقلاء ينكرون هذا المعنىٰ ، ويقولون : إن المحبة بالنسبة لله لا معنىٰ لها . وقد صرحت بالمحبة آيات قرآنية وأخبار مستفيضة ، وتكون عائدتيها للإطاعة والامتثال لأوامر ونواهي الله .

نريد أن نقول الآن : إذا علمنا أن المحبة لله أمر معقول ، إذن يصبح الشوق لله أمراً معقولاً وممكناً نتيجة لذلك ، نظراً لأن الشوق إليه هو من ثمرات المحبة ومعنىٰ ذلك أنه ما دام الإنسان يريد شيئاً فإنه سيجد الشوق إليه حتماً . وما نريد معرفته هو معنىٰ الشوق لله تعالى ، وطريق إمكانيته . وما معنىٰ شوق بعضنا للبعض الآخر .

إن الشوق عبارة عن تطلع النفس ورغبتها بشيء ما ، فمثلاً قد يتفق

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩ .

أحياناً أن نلتقي بجماعة فنستأنس بهم ، ونتطلع إليهم . إذن فبرؤية هؤلاء الناس قد وجدت في قلوبنا حالة شعورية تشدّنا إليهم وتعمق أواصر الأخوة بيننا وهذه الحالة يسميها علماء الأخلاق بـ « الشوق » . الذي هو عبارة عن حب الإطلاع على المجهول ، إلا أنه ليس مجهولاً مطلقاً ، فإن طلب المجهول المطلق محال ولا يخلو الأمر من حالتين :

هما أولاً : حالة إدراك ، وثانياً : حالة جهل .

فعليك أن تطلبه بحالة الإدراك هذه ، وأن تسعىٰ في طلبه حتى يتبدل جهلك علماً . فالشيء الذي لا يمكن إدراكه يستحيل طلبه . كما أن البحث عن المعلوم لا جدوىٰ منه ، لأنه تحصيل حاصل ، فلأجلِ الكشف عن المجهول لا بد من حصول هذين الأمرين . والحالة النفسية التي تدفعنا للسعي وراء ما نجهله ، هي عبارة عن الشوق وتكشف عن المجهول بأمرين :

أولهما : يتفق أحياناً وجود شيء يكون معلوماً من جهة ومجهولاً من جهة أخرىٰ . وهذه معرفة إجمالية ، وهي المعرفة التي تختلط بالجهل ولغرض تحصيل المعرفة التفصيلية نسعىٰ للكشف عن ذلك الشيء لا إزالة حجاب الجهل لتصبح المعرفة كاملة وهذه الحالة النفسانية التي تدفعنا للسعي لكشف ذلك المجهول « تسمىٰ الشوق » .

ثانيهما : ربما نستعين بما ينكشف لدينا عن الشيء للوصول إلى المجهول في نفس ذلك الشيء . والفرق بين الأمرين أن نافي الأمر الأول يستعين بأمور من خارج الشيء لتحصيل المجهول ، وفي الثاني نستعين بأمور منكشفة من نفس ذلك الشيء المجهول .

وبعد هذه المقدمة نقول : أن الشوق بشعبتيه يكون أمراً معقولاً

وممكناً بالنسبة لله تعالىٰ .

أما شعبته الأولىٰ فقد قلنا : إن كل عبد بل كل موجود من الموجودات مشترك في معرفة الله أصلاً ، وهذه المعرفة تكون فطرية وتكوينية ، والإنسان هو المخلوق الوحيد الذي يستطيع الاقتراب أو الابتعاد عن الله تعالىٰ بفطرته . ومن ناحية أخرىٰ سبق أن قلنا : أن المحبة تكون تابعة للمعرفة ، بحيث فأي شخص تحصل له المعرفة بشيء ، يحصل له الميل تبعاً لذلك ثم المحبة ، وإن مراتب المحبة تختلف كذلك طبقاً لمراتب المعرفة . ومعرفتنا بالله تكون مثل رؤيتنا لصورة يكون أحد وجوهها معروفاً لنا ، والوجه الآخر مجهولاً . وذلك يوجب علينا تحصيل العلم لذلك حتى يصل علمنا الناقص إلى درجة الكمال . ومن أسباب نقص العلم كثرة انشغال فكر الإنسان بأمور البدن والأمور المشابهة لها ، التي تبعد الإنسان عن كمال المعرفة . وكمال المعرفة يتم بإطلاق الروح وتحريرها من قيود البدن ولا يحصل ذلك إلا بالانتقال إلى النشأة الأخرىٰ .

إذن فإن كان كمال المعرفة ينتهي بهذه المرحلة ، فإن حالة الاشتياق للمعرفة فينا سوف تنتهي في الآخرة . والشوق الذي هو زيادة العلم في الدار الدنيا ممكن وميسر ، ولكنه محال وممتنع في الآخرة . مثال ذلك ، أننا نكدح طويلاً للحصول على شيء ضروري لحياتنا لكن شوقنا إليه سيزول بمجرد الاستحواذ عليه .

فشوقنا للشيء المحدود يتلاشىٰ بمجرد الحصول عليه ولا نشعر بالشوق نحوه إلا إذا شعرنا بالحاجة إليه مرة أخرىٰ .

وأما القسم الثاني : فهو العلم المتعلق بكمال الله تعالى التي يوجب العلم بها الاطلاع على كمالات أخرىٰ ، وذلك يعني أننا كلما توصلنا إلى

مرحلة من العلم فسنصل إلى مرحلة أخرىٰ من الكمال وهكذا . وكلما توصلنا إلى كمال من كمالاته نشعر بشدة الشوق إلى مقام أعلى من ذلك . وسوف يكون شوقنا دائماً لا حدود له ، لأن كمالاته لا حدود لها ولأنه دائم لا زوال له .

إننا حتى نصل إلى ما نشتاق إليه من هذه الدنيا فنحن نكون في حالة تطلع إليه ونتحمل الآلام والمشقة ثم تزول عنّا لوصولنا إليه ، ونكون مسرورين وسعداء ، فالدار الآخرة دار السعادة والخلود والدنيا دار الآلام والمحن ، فينعم العبد باللذائذ في الآخرة بدون أدنىٰ ألم . فتحصل عندنا أن الشوق الدنيوي له حدود ونهاية والشوق الأخروي لا حدود له ولا نهاية .

ففي دعاء النبي الأكرم (ص) يقول : « اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء ، وبرد العيش بعد الموت ، ولذة النظر إلى وجهك الكريم وشوقاً إلىٰ مقامك » .

وفي رواية أخرىٰ « من طلبني وجدني ومن طلب غيري لم يجدني » .

وجاء في الأخبار الداودية : « أن الله (عزّ وجلّ) قال : يا داود أبلغ أهل أرضي أني حبيب لمن أحبني ، وجليس لمن جالسني ومؤنس لمن أنس بذكري ، وصاحب لمن صاحبني ، ومختار لمن اختارني ، ومطيع لمن أطاعني ، ما أحبني عبد أعلم ذلك يقيناً من قبله إلا أختاره لنفسي وأحببته حباً لا يتقدمه أحد من خلقي ، من طلبني بالحق وجدني ، ومن طلب غيري لم يجدني ، فارفضوا يا أهل الأرض ما أنتم عليه من غرورها وهلموا إلى كرامتي ومصاحبتي ومجالستي وأنسوا بي آأنس بكم وأسارع إلى محبتكم فإني خلقت طينة أحبائي من طينة إبراهيم خليلي وموسىٰ كليمي ومحمد (ص) صفيي ، إني خلقت قلوب المشتاقين من نوري ونعمتها

بجلالي » .

وكذلك ورد في الحديث القدسي : « عبدي أطعني تكن مثلي تقل للشيء كن فيكون » .

وهذه المنزلة السامية لا تحصل إلا للذي يهب نفسه لله ويذوب فيه . وإلا إن كانت لغير الله فإنه سيكون محروماً من هذه النعمة العظيمة .

وفي رواية أخرىٰ « أوحىٰ الله إلى بعض الصديقين : أن لي عباداً من عبادي يحبوني وأحبهم ويشتاقون إلي وأشتاق إليهم ، ويذكروني وأذكرهم ، وينظرون إلي وأنظر إليهم ، فإن حذوت طريقتهم أحببتك وإن عدلت عنهم مقتك ، قال يا رب ما علامتهم ؟ قال (عزّ وجلّ) : يراعون الظلال بالنهار كما يراعي الراعي الشفيق غنمه ، ويحنون إلى غروب الشمس كما تحن الطير إلى أوكارها عند الغروب ، فإذا جنهم الليل واختلط الظلام وفرشت الفرش ونصبت الأسترة وخلا كل حبيب بحبيبه نصبوا إلي أقدامهم وفرشوا إلي وجوههم وناجوني بكلامي وتملقوني بأنعامي فبين صارخ وباك ومتأوه وشاك ، وبين قائم وقاعد وبين راكع وساجد ، بعيني ما يتحملون ومن أجلي وبسمعي ما يشكون من حبي ، أول ما أعطيهم ثلاث : أقذف من نوري في قلوبهم فيخبرون عني كما أخبر عنهم ، والثانية لو كانت السموات والأرض وما فيهما في موازينهم لاستقللتها لهم ، والثالثة أقبل بوجهي عليهم ، أفترىٰ من أقبلت عليه ما أريد أن أعطيه » .

وفي خبر آخر من أخبار داود (ع) :

« يا داود إني خلقت قلوب المشتاقين من رضواني ونعمتها بنور وجهي ، واتخذتهم لنفسي ، وجعلت أبدانهم موضع نظري إلىٰ الأرض ، وقطعت من قلوبهم طريقاً ينظرون به إلي يزدادون في كل يوم شوقاً » .

وهذا يعني أن أولياء الله لهم في كل يوم اطلاع جديد على الصفات الكمالية والجلالية لله تعالىٰ ولهم في كل يوم شوق جديد .

« قال داود (ع) : يا رب أرني أهل محبتك ، فقال : يا داود إئت جبل لبنان فإن فيه أربعة عشر شخصاً وفيهم شبّان وفيهم كهول وفيهم شيوخ فإذا أتيتهم فاقرئهم مني السلام وقل لهم ربكم يقرؤكم السلام ويقول لكم ألا تسألوني حاجة فإنكم أحبائي وأصفيائي وأوليائي أفرح لفرحكم وأسارع إلى محبتكم ، فأتاهم داود (ع) فوجدهم عند عين من العيون يتفكرون في عظمة الله تعالى وملكوته ، فلما نظروا إلى داود نهضوا ليتفرقوا عنه ، فقال لهم داود : إني رسول الله إليكم جئتكم لأبلغكم رسالة ربكم ، فأقبلوا نحوه ، وألقوا أسماعهم ، وأبصارهم إلى الأرض ، فقال داود : إني رسول الله إليكم وهو يقرئكم السلام ويقول لكم ألا تسألوني حاجة ألا تنادونِ فأسمع صوتكم فإنكم أحبائي وأصفيائي وأوليائي أفرح لفرحكم وأسارع إلى محبتكم وأنظر إليكم في كل ساعة نظر الوالدة الشفيقة الرفيقة » « قال فجرت الدموع على خدودهم فقال شيخهم : سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك فاغفر لنا ما قطع قلوبنا عن ذكرك فيما مضىٰ من عمرنا » .

لذا فإن «ذكر الله هو عبارة عن التوجه إلى الله وروح الإيمان ما هو إلا عبارة عن ذلك ، وإلا فهي الغفلة وروح الكفر » .

وقال آخر : « سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك فأمنن علينا بحسن النظر فيما بيننا وبينك » .

وقال آخر « سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك أفنجترىء علىٰ الدعاء وقد علمت أنه لا حاجة لنا في شيء من أمورنا فأدم لنا لزوم الطريق إليك وأتمم بذلك المنّة علينا » .

وقال آخر : « نحن مقصرون في طلب رضاك فأعنّا عليه بجودك » .

وقال آخر : « من نطفة خلقتنا ومننت علينا بالتفكير في عظمتك أفيجترىء على الكلام من مشتغل بعظمتك متفكر في جلالك وطلبتنا الدنو من نورك » .

وقال آخر : « كلت ألسنتنا عن دعائك لعظم شأنك وقربك من أوليائك وكثرة مننك على أهل محبتك » .

وقال آخر : « أنت هديت قلوبنا لذكرك وفرغتنا للاشتغال بك فاغفر لنا القصور في شكرك » .

وقال آخر : « قد عرفت أن حاجتنا النظر إلى وجهك » .

وقال آخر : « كيف يتجرأ العبد على سيده فإذا أمرتنا بالدعاء بجودك فهب لنا نوراً نهتدي به في الظلمات بين أطباق السموات » .

وقال آخر : « ندعوك أن تقبل علينا وتديمه علينا » .

وقال آخر : « لا حاجة لنا في شيء من خلقك فأمنن علينا بالنظر إلى جمال وجهك » .

وقال آخر : « أسألك من بينهم أن تعمي عيني عن النظر إلى الدنيا وأهلها وقلبي عن عدم الاشتغال بالآخرة » .

وقال آخر : « قد عرفناك أنك تباركت وتعاليت تحب أوليائك فامنن علينا باشتغال القلب بك عن كل شيء دونك » .

« فأوحىٰ الله إلى داود قل لهم سمعت كلامكم وأجبتكم إلى ما أحببتم ، فليفارق كل واحد منكم صاحبه ، ويتخذ لنفسه سرباً ، فإني

كاشف الحجاب فيما بيني وبينكم ، حتى تنظروا إلى نوري وجلالي . فقال داود : يا رب بم نالوا منك هذا ؟ قال : بحسن الظن والكف عن الدنيا وأهلها والخلوات بي ومناجاتهم لي ، وإن هذا منزل لا يناله إلا من رفض الدنيا وأهلها ، ولم يشغل بشيء من ذكرها ، وفرغ قلبه لي ، واختارني على جميع خلقي فعند ذلك اعطف عليه فأفرغ نفسه له واكشف الحجاب فيما بيني وبينه ، حتى ينظر إلي نظر الناظر بعينه إلى الشيء وأريه كرامتي في كل ساعة ، وأقربه من نور وجهي ، إن مرض مرضته كما تمرض الوالدة الشفيقة ولدها ، وإن عطش آويته وأذقته طعم ذكري ، فإن فعلت ذلك به يا داود عزفت نفسه عن الدنيا وأهلها » .

« إن تعفف المؤمنين عن متاع هذه الدنيا مثله مثل مرور شخص على مزبلة فإنه سيبذل جهده ليسرع الخطىٰ ويجتازها ويحفظ عينيه وأنفه بيديه منها ويقي ثيابه من نجاساتها وكان هذا هو شأن المخلصين » .

« وإن اشتياق أولئك المؤمنين للموت يعني أنهم كانوا يهملون مطالب الجسد حتى يرتفعون عن المادية ، ويريدون المشاهدة والمسامعة لله بأقصى حدودها ، وهكذا كان سيد الموحدين وأمير المؤمنين (ع) حين قال : والله لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أُمه » .

إن المحبة كشجرة جذورها تكون في تربة القلب وثمارها وأغصانها في الخارج وواحدة منها تكون عبارة عن الشوق إلى الله ، الذي تكون له درجتان ومقامان وقد أوضحناهما .

وأن ثاني ثمرات المحبة هو الأنس ، وهو عبارة عن حالة استبشار وفرح وسرور ، فالشيء المعلوم عندما يكون ملائماً لطبعنا نأنس به وعلى هذا يكون الشوق أفضل من الأنس ، ولكن الأنس ألذ من الشوق .

ففي الشوق ، يزداد علمنا بكمال المحبوب ويسمو بنا ذلك العلم نحو الكمال ، ولكن هذا المعنى لا يحصل في الأُنس إذ ليس فيه تطلع لشيء غير معلوم واللذة التي يحصل عليها الإنسان في الأنس لذة منقطعة النظير ، لأنها تخلو من المنغصات والآلام التي ترافق الشوق هكذا تكون اللذة وتستحوذ ، ولكن تجعله مشوباً بالمرارة والأذىٰ .

إذن فأهل الشوق يسمو بهم شوقهم بألم وأهل الأُنس مستقرين بسرورهم وبهجتهم . فيكون الأُنس عبارة عن الإعتياش على المحبة بمشاهدة جمال المحبوب . والشوق عبارة عن التبحر في كمالات المحبوب ، ولأن كمالات الله لا متناهية لذلك فإن حالة الشوق تكون لا نهائية .

وعلىٰ هذا فإن الشخص لا يمكن أن يكون مشتاقاً ومستأنساً في آن واحد . أي أن هاتين الحالتين لا تجتمعان في شخص في آن واحد ، وهذه الفقرة فيها بحث مفصل سبق أن ذكرنا خلاصته في ما مضىٰ ، وقلنا : إن لكل نفس خصوصيات ذاتية تميزها عن غيرها . وقد قيل « الناس معادن كمعادن الذهب والفضة » ومعناه : أن بعض الناس مثل الذهب وبعض كالفضة من كافة النواحي ، وترىٰ تفاوتاً كبيراً بين الناس منشؤه الاختلاف بين النفوس والأرواح .

فالشخص الذي غمره الأنس يقتضي أن تكون عيناه ممتدين إلى الطريق الذي يسلكه ، وأهل الشوق يعيشون في النصب والتعب ، وقد وردت أخبار وروايات كثيرة في باب الأنس . منها خطاب الله تعالىٰ لداود : « يا داود كن بي مستأنساً ومن سواي مستوحشاً » .

وروي عن شخص أنه قال : « مررت براهب فقلت له : يا راهب قد

أعجبتك الوحدة ؟ قال : يا هذا لو ذقت حلاوة الوحدة لاستوحشت من نفسك » .

فسألته : «يا راهب ما أقل ما تجد في الوحدة ؟» .

قال : « الراحة من مداراة الناس والسلامة من شرّهم » .

قلت : « متى يذوق العبد حلاوة الأنس بالله (عزّ وجلّ) ؟» .

قال : « إذا صفىٰ الود » .

قلت : « متى يصفو الود ؟» .

قال : « إذا اجتمعت الهموم فصارت هماً واحداً في الطاعة » .

إذن فالقلب إما أن يكون منشغلاً بالله تعالىٰ ، أو يكون منشغلاً بالهوىٰ . وأول علامات الأنس بالله ضيق الصدر من معاشرة الخلق ، وبهذا ورد في سيرة رسول الله (ص) فكان حين يضيق صدره الكريم يقول لبلال : « أرحنا يا بلال » .

أي : يا بلال دعنا ننشغل بالمحبوب ، فيفهم بلال ذلك ويقيم الأذان .

وقيل : « الأنس بالناس من علامة الإفلاس » .

أي الإفلاس من الله ، فحين نحصل على الأنس بغير الله ، يكون قد حصل لنا الإفلاس من الأنس بالله .

وإحدىٰ علامات الأنس بالله هي « التبرم بالخلق والإحساس بعذوبة الذكر » .

وقال أمير المؤمنين في وصف المتقين : « هم قوم هجم بهم العلم

علـى حقيقـة الأمـر ، فبـاشـروا روح اليقيـن ، واستـلانـوا مـا استـوعـره المترفون » .

« أنسوا بما استوحش منه الجاهلون ، صحبوا الدنيا بأبدانهم ، أولئك خلفاء الله في أرضه والدعاة إلى دينه » .

والثالث من ثمرات المحبة هو الخوف ، وهو عبارة عن خوف المحب من أن يفلت الحبيب من يده ، بينما يكون الأنس أفضل من الخوف نظراً لحالة السرور والبهجة التي ترافق حالة الأنس ، حتى لو كان طلب الزيادة منه لا يتحقق ، ولكن يشترك الخوف مع الأنس في عدم الزيادة ، وما أشد الخوف عن قرب ، وما أخفه عن بعد .

إن حالة الخوف تنشأ من المحبة ، والمحبة مثل شجرة جذورها في تربة القلب وثمراتها تظهر في الخارج وتنبع هناك مثل حالة الشوق والأنس والخـوف والـذي يتـذوق حـلاوة المحبـة لله فسيقـع فـي الهيـام ولا يستطيـع الانسحاب من هذه المحبة وبذلك قال سيد الساجدين في مناجاة المحبين :

« إلهي من ذا الذي ذاق حلاوة محبتك فرام منك بدلا ! ومن ذا الذي أنس بقربك فابتغىٰ عنك حولاً » .

والنتيجة هي أن الأنس عبارة عن حالة معايشة وسرور بالاطلاع على كمال المحبوب ، والخوف عبارة عن حالة اضطراب ورهبة من زوال نعمة المحب . ويمكن للقلب أن ينقلب من حالة إلى أُخرىٰ مثله مثل العصفور الذي يتقلب بين الأغصان والثمار .

ومن ثمرات المحبة الرضا ، فلأن العبد يجد في قلبه المحبة لربه ، فإنه سيكون راضياً عنه ، وهذه الحالة ليست مقتصرة الحدوث مع الله بل هي تحدث لكل محب مع من يحبه ، حيث يتغاضىٰ عن هفوات محبوبه ويكون

مجبراً على الإعجاب بكل أعماله ، ويندر أن لا نحب شيئاً في حياتنا ، لأن أساس خلق العالم قدّر له أن يكون على عنصر المحبة :

« كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لكي أُعرف » .

وقوانين هذه المحبة سارية على كافة الموجودات ، بعضها يكون واضحاً وبيّناً مثل محبتنا لشيء وبعضها غامضاً كمحبة الموجودات بالنسبة لنا .

ونتيجة ذلك أن القلب الذي لا توجد فيه المحبة لن يستطيع محبة أي شيء في الدنيا بأدنىٰ درجة ، ونهاية ذلك أن هناك محبة للدنيا وأخرىٰ للجنة والنعم ، وأخرى مختصة بالله تعالىٰ .

وعندما نستقرىء الأمر نرىٰ أننا حين نحب شيئاً نكون محبين لكل ما يتعلق به ، فلأننا مثلاً نحب دارنا فإنّا نحب كل ما يتعلق بها وحتى نحب الزقاق الذي تقع فيه ، والمحلات المحيطة بها ، والمدينة بأجمعها ، إذن فحبنا لكل ما تقدم إنما هو بسبب حبنا لمحبوبنا ، وهو دارنا ، وإذا وصلت المحبة إلى درجة الوله ، فإن الغاية من هذه المسألة تكون أوضح ، حيث تصبح حالة انجذاب واختلاط بين الحب الذي في القلب ، والشيء المحبوب . ويروىٰ أن الامام الحسن (ع) سأل مجنون ليلىٰ يوماً قائلاً له : هل الحق معي أم مع معاوية ؟ فأجابه الحق مع ليلىٰ . فقال (ع) : لو لم يدل بهذا الجواب لما عرف أنه عاشق .

وينقل أن قيساً ذهب إلى قبيلة ليلىٰ وأخذ يقبل جدران بيت ليلىٰ ، كما نفعل عندما نتشرف بزيارة قبور الأئمة المعصومين (ع) وكان يقول :

« وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديار »

ويظهر أن البشر لا يستطيعون الحياة بدون الحب ، فهو أمر فطري ، ويرویٰ أن الرسول الأكرم (ص) لما خرج من مكة مهاجراً قال بألم وتأثر : إن قلبه سيبقىٰ فيها ولن يفارقها أبداً .

ومن ثمرات المحبة الرضىٰ بما يصدر من المحبوب ، ونحن يجب أن نشعر بالرضىٰ والتسليم المطلق وأن يكون رضىٰ الله تعالى هدفاً نسعىٰ لتحقيقه وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في الآية الشريفة : ﴿ **رضي الله عنهم ورضوا عنه** ﴾[1] والآية الأخرىٰ : ﴿ **يا أيتها النفس المطمئنة * ارجعي إلى ربك راضية مرضية** ﴾[2] . وقال تعالى : ﴿ **هل جزاء الإحسان إلا الإحسان** ﴾[3] .

إن منتهىٰ الإحسان عبارة عن رضا الله عن عبده ، وهذا مقام تعجز الكلمات عن وصفه نظراً لأن أي طاعة يؤديها الإنسان فهي للطمع بالأجر والثواب . كما قال تعالىٰ ﴿ **وعد الله المؤمنين والمؤمنات جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم** ﴾[4] .

إذن فمقام الرضىٰ من الرضوان ، وهو يكون فوق كل ثواب وأجر ، لأنه بحد ذاته يكون روحاً للأجر والثواب ، كما قال تعالىٰ ﴿ **إن الصلاة تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر** ﴾[5] ومعناه أن ذكر الله يكون أكبر من كل شيء ، ومعنى الذكر هو التوجه فمعنىٰ ﴿ **ولذكر الله أكبر** ﴾ أن التوجه

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١١٩.
(٢) سورة الفجر، الآيتين: ٢٧ ـ ٢٨.
(٣) سورة الرحمن، الآية: ٦٠.
(٤) سورة التوبة، الآية: ٧٢.
(٥) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.

بالقلب في الصلاة ، فالصلاة بمنزلة الجسم والتوجه بمنزلة الروح ، ولا قيمة للجسم بدون الروح ، إذن فروح الصلاة عبارة عن التوجه القلبي لله ، وجسدها هو عبارة عن القيام والركوع والسجود ، إن الروح تأنس بالأمور المعنوية وعذابها بحرمانها من تلك اللذائذ المعنوية كما قال أمير المؤمنين (ع) في دعاء كميل : « فهبني يا إلهي وسيدي ومولاي وربي صبرت على عذابك فكيف أصبر على فراقك » . وإن ما عنده تعالى ممّا ادخر لعباده ما يعجز التصور أن يحيط به ﴿ **لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد** ﴾[1] . وقال تعالى : ﴿ **فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين** ﴾[2] . وقال تعالى ﴿ **للذين أحسنوا الحسنىٰ وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة** ﴾[3] ومن ألطافه على عباده قوله تعالى : ﴿ **من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزىٰ إلا مثلها** ﴾[4] .

ولا غرو في ذلك وهو الرحيم حيث قال تعالى ﴿ **سلامٌ قولاً من رب رحيم** ﴾[5] .

وهذا السلام يستبطن كل معاني اللطف والرحمة وهو عزّ ورفع منزلة لأولئك العباد ورضاه عنهم أعظم وأكبر .

ويروىٰ أنه (ص) سأل طائفة من أصحابه عن إيمانهم فقالوا : إنهم يصبرون عند البلاء ، ويشكرون عند حلول النعمة ، ويرضون بقدر الله وقضائه ، لأنهما من المحبوب . فأقسم (ص) برب الكعبة أنهم مؤمنون .

---

(١) سورة ق، الآية: ٣٥.
(٢) سورة السجدة، الآية: ١٧ .
(٣) سورة يونس، الآية: ٢٦.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٦٠ .
(٥) سورة يس، الآية: ٥٨ .

إذن لنرىٰ هل يمكن تصور الرضا مع وجود المنغصات المكروهة كالفقر ، أو المرض ، أو الشيخوخة أم لا ؟

ومسألة الالتذاذ والابتهاج لا تختص بالإنسان فقط بل هي إحساس حيواني كل بحسبه ، فالبلبل يلتذ ويغرد في جنينة الورد ، وحيوان آخر يستأنس في موضع كريه إلا أنه لا يختلف عن البلبل في استئناسه وتفاعله كالطيور التي تنهش الجيف الكريهة وتملأ أجربتها بلذة وشوق ، وذلك أن كلاً يستأنس بما يلائم طباعه الفطرية وإن استوحشها غيره . فهل يستأنس الإنسان بما يكره ويرضىٰ به أم أنه يقف منه موقفاً سلبياً ؟

نقول إن في المسألة وجوهاً : ـ

أولها : أنه من الممكن للإنسان أن يكره شيئاً يخالف طبعه من جهة ، ويرضىٰ عن نفس الشيء بسبب أثره الموافق لطبعه ويستأنس به من جهة أخرىٰ ، فيجب أن نرىٰ أية كفة من كفتي الميزان هنا تميل أكثر لنستطيع أن نصدر حكمنا بالابتهاج أو التقزز . فإن كان أثر الكره فيه أشد فسوف يقف موقفاً سلبياً منه ، وإن كان أثره أشد تلذذاً وابتهاجاً فسيتقبله ويرضىٰ عنه ، ومثال ذلك عندما يمرض شخص فإنه يتحمل مرارة الدواء ويتناوله رغم منافرته لطبعه ، وذلك بسبب الأثر المترتب عليه وهو سلامة البدن ، وإلا فإن تناول الدواء المر مكروه بالطبع .

وبناء على ذلك فإننا يجب أن نرضىٰ عن كل ما يصدر عن الله تعالىٰ إلا أن هذا الرضىٰ سيكون شبيهاً بالرضىٰ بالدواء لا بالطبيب الذي أعطى الدواء ، فيعود الرضىٰ والحب لذات الإنسان أكثر من عائديته لله جل جلاله .

والمرتبة الثانية من الرضىٰ هي التسليم لقضاء الله تعالىٰ وقدره كما قال

سيد الشهداء (ع) : « رضىٰ بقضائك وتسليماً لأمرك يا غياث المستغيثين لا معبود سواك » . فيصبر على كل ما يصيبه من فقر وآلام ومحن ويسلم أمره لله تعالىٰ شأنه ويرضىٰ بمشيئة الباري جلّ وعلا كتسليم الحسين (ع) استناداً لما قيل له : « إن الله شاء أن يراك قتيلاً » ولأن التقدير كان ربانياً فإنه (ع) قد تقبله بغاية الغبطة والشجاعة والرضىٰ بالقضاء الإلهي .

وأما المرتبة الثالثة فهي الاستئناس بقضاء الله تعالى وقدره ، وهي حالة لا يرتقي إليها إلا الأولياء الذين امتحن الله قلوبهم للإيمان ، ويمكن تصويرها لفظياً بما أشار به الإمام علي (ع) في دعاء كميل في قوله « واجعلني بحبك متيماً » وهي حالة انقطاع مطلق وحب تذوب فيه الذات الإنسانية وتتحول إلىٰ طاقة روحية عالية تسمو على تعلقها بالمادة إلى حد لا يمكن تصوره ، لأن الأمر خارج عن الأمور الحسية أو الإدراكات العقلية ، ويمكن اقتناص ذلك الأمر من خلال مقاطع لبعض النصوص الصادرة عن أئمة الهدىٰ (ع) أو أحداث رويت لنا ، فالإمام علي (ع) تنتزع منه بقايا السهام أو تخيط الصدِّيقة الزهراء (ع) جراحه وهو في الصلاة فلا يشعر بشيء وكان الجسد ليس له ، أو الإمام السجاد (ع) عندما يحيط به ضجيج زوجته ويملأ الأسماع صراخها لوليدها الذي سقط في البئر وهو لا يشعر بما حدث حتى تنتهي صلاته ، وغير ذلك مما يدل على القدرة الروحية العالية الناشئة من حالة التعلق والانقطاع المطلق إلىٰ الله . « من لم يصبر على بلائي ولم يشكر نعمائي ولم يرض بقضائي فليطلب رباً سواي وليخرج من تحت سمائي » .

فأين نحن من تلك المراتب السامية والمنازل العالية ، ولكن لا يتسرب إلينا اليأس .

ودليل الرضىٰ عدم التبرم والشكوى التي تشعر بالاستنكار أو التأوه من

القضاء الإلهي بما يشعر بالاعتراض بل التسليم والانبساط .

وإن تفاوت مقامات الأنبياء يكون بسبب تفاوت حالاتهم بالنسبة لذلك ، فإبراهيم (ع) كان مستسلماً راضياً بمشيئة الله تعالىٰ فلم يشك ولم يتأوّه ، وآهة واحدة من زكريا (ع) عندما يقطعه منشار أعداء الله أعقبته عتاباً إلهياً ، فينشر جسمه وهو حامد مستسلم يرى أن ما نزل به بعين الله تعالى فيستأنس وينسىٰ كل جراحه .

والقرآن يستعرض لنا صوراً من لطفه وعطفه على عباده وإن ضلوا وأضلوا حيث يبعث موسىٰ إلى فرعون ويطلب منه التحدث معه باللطف واللين ﴿ **لعله يتذكر أو يخشى** ﴾ . ولا منافاة بين الدعاء وحالة الرضىٰ وإن كان بعضه لا يخلو من ذلك .

لنر هل نحن نحب الله تعالى ؟ وما هي علامات المحبة ؟ فالعلامة كالثمرة ، فكما أن الثمرة تدل على وجود الشجرة ونضوجها فعلامة كذلك تدل على وجود المحبة وصدقها ومن العلامات البارزة لها « الشوق إلى لقاء الله تعالىٰ » وهذا لا يحصل إلا بحصول الموت فلنرَ أنفسنا ونمتحنها بذلك ، فإنّ من له حبيب في شاطىء النهر المقابل لا يتوانىٰ في العبور إليه وهو يسعىٰ أن يلتقيه بأحسن زي وصورة كي يستحوذ على رضاه ويجتنب كل ما يسخطه ولا يرضاه . وصدق هذه العلامة يظهر في آثار سلوكية تنعكس على الإنسان فيزهد في الدنيا وينشغل في تهيئة لوازم السفر ، وعليه فهل يكون حب الموت علامة الشوق ، وكره الموت علامة على انتقائه دائماً ؟ والجواب : إذا كان عدم حب الموت ناشئاً من الرغبة في تهذيب النفس وإصلاحها والسعي للتهيّؤ للقاء الله تعالى بأحسن صورة وأحسن زي فهو من المقدمات الممدوحة وإن كان عدم الحب ناشئاً من حب البقاء والتزود بالمتع الدنيوية وحب الجاه والسلطان فهو ممقوت جداً والحديث صريح بذلك « من كره

لقاء الله كره الله لقاءه » ومن أحب لقاءه فليتهيأ له .

وعلامة المحبة الأخرىٰ هي : الإيثار ومعناه عبارة عن التنازل عن الهوىٰ في سبيل المحبة ، فإن تولد مثل هذا الشعور في أحد فسوف يكون دليلاً على صدق حبّه وإلا تكون محبته وهمية وخيالية .

ويحكىٰ أن شخصاً قال لآخر : إني أحبك . فقال له الآخر : إذا كنت صادقاً فما هي علامة حبك ؟ قال : كل مالي فداك ، ولأني لا أملك شيئاً فسأحمل روحي على راحة يدي وأقدمها قرباناً لك .

وبالنتيجة فإنه من الممكن أن يصل فعل المحب لمحبوبه إلى هذا المستوىٰ من التضحية بكل شيء من أجل محبوبه ، فيفني نفسه لأجله . فلنرَ ما تريده الذات الإلهية المقدسة منا ، حتى نتمكن من التخلي عن أهوائنا والاهتداء بهدي الله تعالى شأنه ، والسبيل إلى ذلك أن نعمل وفق ما أورده الشارع المقدس من أوامر ونواهي ، فليس من المعقول أن ندعي الحب ولا نهيّيء وسائل المحبة ورضىٰ المحبوب . وعلى من يبحث عن ذلك أن يعرف مواقع الرضىٰ والغضب ويسعىٰ ما أمكن للتعلق بمولاه .

فقد ذكر في الأخبار الصحيحة :

« لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ولسانه الذي ينطق به » وبذلك تحصل المحبة المتبادلة بين العبد وربه ، فيصير نصب عينيه في كل قول وفعل ، وتسمو حالة الحب وتتعمق فيحصل بذلك الذوبان الكامل ، فتظهر آثار الحبيب على حبيبه بأجلىٰ صورها فيصبح سمعاً وبصراً ويداً . تبطش ، ولساناً ينطق لله تعالىٰ .

ويحكىٰ أن شخصاً خاطب الله تعالى قائلاً : « ليس لي في سواك حظ

فلو شئت فاختبرني » . فعرض له ألم في رأسه ، فأخذ يصرخ ويتلوىٰ حتى تجمع الأطفال من حوله ، ففهم من ذلك أن ادعاءه كان كاذباً .

إذن فإن مجرد الادعاء والتظاهر بالدعاء ـ كما نقول « اللهم إنك بغيتنا وطلبتنا » ـ ليس كافياً ، لأن هذه الكلمات ذات مغزىٰ ومعنىٰ عميق تحتاج إلى مصداق واقعي وقد يخطر مثل ذلك الخشوع على الإنسان في جميع عمره مرة واحدة ، مثله كمثل برق السحب الثقال الذي يخطف ويختفي بسرعة . فيكون له تأثير محدود .

إن أول درجات الإيثار أن يترك الإنسان هوىٰ نفسه ، من أجل محبوبه كما يقول الشاعر :

أريد وصاله ويريد هجري فأترك ما أريد لما يريدُ

وفي هذه المرتبة يرىٰ الإنسان ذاته وهواه ، ثم يرىٰ ذات المحبوب وهواه ، فيلقي بهواه جانباً ، ويتخذ هوى محبوبه عوضاً له ، وهذه هي أولى علامات المحبة .

« يا نعيمي وجنتي ويا دنياي وآخرتي » وقال الخواجه :

« إن عثر المرء على محبة الله فلن يبقى في جعبته شيئاً » .

والمرتبة الثانية من الايثار : أن يرىٰ المحب ذاته ويرىٰ محبوبه ويرىٰ هواه ، ويرىٰ هوى محبوبه كذلك ولكن يكون هواه هو عين هوى محبوبه ، ومعناه أنه لا يميل إلى شيء ليس للمحبوب فيه رضىٰ به .

والمرتبة الثالثة : أنه لا يرىٰ هوىٰ ذاته أصلاً ، بل كل ما يراه هو محبوبه .

وهنا يكون قد خرج من ذاته بصورة قاطعة .

إن المؤشر على مدىٰ حبنا لله هو مقدار إطاعتنا له وامتثالنا له ، ونقصان محبتنا له يتناسب مع كثرة معصيتنا له . يقول الشاعر

تعصي الله وأنت تظهر حبه ... هذا لعمري في الفعال بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته ... إن المحب لمن يحب يطيع

والخلاصة إن علامة صدق المحبة هو اختيار ما يريده المحبوب ، واجتناب منابع الشهوات ومتابعتها والإعراض عن الكسل في أداء الواجبات ، والمواظبة علىٰ الطاعات ، فكلما اشتدت الطاعة اشتد القرب من المحبوب .

إن طريق الوصول إلى الله بدون محبة ميسر ، ولكنه يستغرق وقتاً طويلاً : نظراً لأن الصفات الرذيلة من قبيل البخل والحسد والحقد والعجب والرياء وسائر الأخلاق الذميمة تكون مانعاً لا يدع الشخص يصل إلىٰ الله ، وإذا أردنا معالجة تلك الصفات واحدة واحدة ، فإنها ستستغرق وقتاً طويلاً ، وما أكثر الفرص السانحة أمام هذا الشخص المعالج لأن يكتسب صفات ذميمة على حين غرة في مدة علاجه لصفاته الذميمة السابقة ، فيجب عليه البحث عن علاج جديد للرذائل الجديدة ، ولكن العلاج عن طريق المحبة سريع كما يذوب الثلج عند تعرضه للنار فيعود ثانية ماءً زلالاً . وهذا ما تحققه الهجرة إلىٰ الله تعالىٰ ، إن المهاجر سيرجح إرادة الله علىٰ إرادته .

يروىٰ أن زليخا طاردت يوسف في سبعة غرف تعرض عليه مفاتنها وهو يعرض عنها حتى ركضت خلفه وقدت قميصه من دبر ، ولما مات عزيز مصر ، وأصبحت زليخا زوجة ليوسف أعرضت عنه ، فعاتبها يوسف (ع) وذكرها بالمحبة ، فقالت : نعم ، لأنك ملكت قلبي حينها ، وقلبي أصبح الآن متعلقاً بالله تعالىٰ فلم يعد لك فيه محل ، وعندما أفهمها بأن الله تعالىٰ

قد أمرهما بذلك وأنه من علائم المحبة الاستجابة لإرادة الله تعالى ، فأنجبا ولدين صالحين . وغالباً ما نرىٰ أن الحب يتبادل بين الحبيب وحبيبه وكلما ازداد في طرف ازداد في الطرف الآخر بنفس النسبة إلا أن الحب لله تعالى ، إذا ثبت في قلب مؤمن فإن حب الله تعالىٰ سوف يكون أضعافاً مضاعفة لذلك العبد المؤمن ، والمحبة الإلهية لا تعني الميل النفسي الذي نشعر به تجاه المحبوب إنما ذلك أمر يرتبط بذاته المقدسة .

وعليك أن تعلم أن أشد أعداء الإنسان له هو نفسه ، حيث ورد في الحديث « أعدىٰ أعدائك نفسك التي بين جنبيك » .

وفي رواية : أن المسلمين عادوا من إحدىٰ غزواتهم منتصرين ، فقال لهم خاتم النبيين (ص) : مرحباً بكم عدتم من الجهاد الأصغر ، وبقي أمامكم الجهاد الأكبر ، فقالوا : وما الجهاد الأكبر يا رسول الله ؟ فقال : مجاهدة النفس التي هي من أشد أعداء الإنسان ، ولن يستطيع الإنسان أن يثبت في هذا الميدان ما لم يتوكل على الله تعالىٰ ويستمسك بصراطه القويم ، ومن المعلوم أن انفلات قياد النفس يتنافىٰ مع محبة الله تعالىٰ .

والمعاصي على نوعين : ما كان منها بسبب الاستهانة والجرأة علىٰ المولى كترك الصلاة ، وما كان منها بدافع الغريزة والشهوة . والأولىٰ تتنافىٰ مع المحبة . أما ما يصدر بدافع الشهوة فإنه لا يتنافى مع محبة الله تعالى إنما يتنافىٰ مع كمال المحبة له تعالى كالنظر إلى ما يحرم النظر إليه مثلاً فإنه معصية، إلا أن العاصي قد يحب الله تعالى في قلبه إلا أن محبته ليست كاملة وإلا لأصبحت رادعاً عن وقوعه في المعصية.

ومن علامات المحبة انشغال المحب بذكر محبوبه على الدوام ، فيلهج لسانه بذكره ويمتلىء قلبه بالتفكير فيه ، حتى لا يبقىٰ فيه مجال لشيء

آخر ، وفي هذا يروىٰ أن أباً كان يحب ولده حباً جماً لأن أولاده ماتوا جميعاً فأضحىٰ وحيده ، وكان من جملة ما قال فيه « وكان قلبي قبره ، وكأنه في طيه سر من الأسرار » وهذا علامة من علامات صدق المحبة وتمكنها من النفس « واجعل لساني بذكرك لهجاً وقلبي بحبك متيماً » .

ونتيجة ذلك الالتذاذ بذكر المحبوب وبرؤيته وسماع صوته . وهذا ما كان يحدث لموسىٰ (ع) حين كان يناجي ربه ويسمع صوته ، فإنه يكره لعدة أيام سماع صوت أحد من الناس . إن الإنسان لا يمكنه أن يمر بصديقه وحبيبه دون أن يكلمه ، بل انه إن لم يمر بحبيبه ، فإنه سيتذكر متعلقات حبيبه فيناغيها ويداعبها بعواطفه المشدودة بكل حبال الوصل وذلك ما حدا بقيس ليلىٰ إلى تقبيل جدران دار ليلىٰ حين مرَّ بها ، وحين أشكلوا عليه فعله قال بيت شعره المشهور « وما حبّ الديار شغفن قلبي ، ولكن حب من سكن الديارا » .

فالذي يعشق الله تعالى سوف يلهج لسانه بذكره وبتلاوة القرآن الكريم ، نظراً لأنه رسالة محبوبه ، كما يحب جميع الأنبياء والأئمة وبيت الله الذي قال رسول الله (ص) إنه لشدة حبه له إلا مضطراً للأمر بالهجرة ، وأن يحب المسجد لأنه بيت محبوبه حيث قال « المؤمن في المسجد كالمحبوب في دار محبوبه » وأعذب الأوقات يقضيها المحب في المسجد فينشغل بذكر الله ومناجاته وعبادته ، والمحبوبات الأخرىٰ كمنىٰ وعرفات والمشعر الحرام كلها من آثار المحبوب ، بل جميع مخلوقات الله كل بحسبه ، إذن ففي عالم محبة الله يكون شرط الصدق توحيده تعالى ، حيث يكون القلب كالكأس التي إن ملئت بالماء الزلال فلا تستوعب شيئاً آخر غيره . قال أهل الذوق من الصالحين : « قبلة عشق واحدة كافية » ولكن هل ينافي ذلك أن نحب غيره كالنبي (ص) وأهل بيته (ع) والقرآن والكعبة وسائر

مخلوقاته . أم لا ؟ والجواب : إننا نحب هذه الأشياء لكونها محبوبة لله تعالىٰ وهي مقدمات لحبه ، وأما إذا صارت لنا حجاباً عن حبه تعالىٰ فسوف يكون حبها منافياً لحبه تعالى . فهي رشحات من فيوض رحمته .

ومن علامات المحبة : أن المحب يأنس بالخلوة إلى حبيبه ، فبالنسبة لمحبته لله تعالى يداوم على تلاوة القرآن الكريم ويحيي الليالي ، فيغتنم الخلوة مع الله واللذة بمناجاته ، وذلك لهدوء الليل وسكونه وانقطاع الناس والموانع . قال الشاعر :

عجباً للمحب كيف ينام　　إنما النوم للمحب حرام

وفي الحديث القدسي : « كذب من ادعىٰ محبتي ، وإذا جنّه الليل نام عني ، أليس كل محبوب يحب لقاء حبيبه . . . فها أنذا موجود لمن طلبني » .

وشرط المحبة الابتهاج بالأُنس بالخلوة بالمحبوب ، ومن يستأنس بغير الله جلّ جلاله العظيم ، فإنه سيستوحش من الله بمقدار أُنسه بغيره ، لأن القلب لا يسعه الأنس باثنين في وقت واحد ، ون الأنس من تبعات المحبة .

يحكىٰ أن عابداً كان مشغولاً بالعبادة وبالقرب من كهفه أيكه تعشعش فيها العنادل المغردة فيطرب العابد على ألحانها ، ولذا فإنه انتقل من معبده إلى تحت الشجرة ليتعبد الله ويسمع تغريد العنادل في آن واحد . فنزل الوحي على نبي زمانه أن يبلغه ما يلي :

«استأنست بغيري من مخلوقي لأحطنك عن درجة لا تنالها بشيء من عملك » .

إن الوصول إلى الله تعالى بنية توحيد الله وتنزيهه والإخلاص في

توحيده ، ولأن لكل وصول درجة فإن الله عاتب العابد بهذا النحو قائلاً : إن كنت تريد عبادتي بهذا الشكل من الإشراك فسأسلب منك درجة فانتبه العابد وأصلح نفسه وانقطع لمولاه .

وهناك رواية حول تجسم الأعمال في يوم القيامة فإن كل امرىء يحمل في اليوم الواحد أربعاً وعشرين صندوقاً ، كل صندوق يحمله تنبعث منه رائحة عطر وعنبر ، تغطي كل أهل القيامة فيعجبون لذلك العطر الذكي ويسألون : ما هذا ؟ فيقال لهم : هذه أعمال فلان ابن فلان ، ثم يحمل صندوقاً من الصناديق فتنبعث منه رائحة منتنة كريهة تغطي كل أهل القيامة ، فيضج الناس جميعاً منها ويتساءلون : ما هذه الرائحة الكريهة ؟ فيقال : هذه الأعمال السيئة لفلان ، ثم يحمل صندوقاً ويفتحه ليرىٰ ما فيه فيجده فارغاً ولا يجد فيه سوىٰ الحسرة والندامة والأسىٰ ، ولو شملت أهل القيامة لأصابهم مثل ما يصيبه من تلك الحسرة والندامة ، وما ذلك إلا عبارة عن إضاعة ساعات العمر في هذه الدنيا ، فيبقى فيها شاغراً يوم القيامة ، فلا بد من زيادة العمل الصالح « ويل لمن ساوىٰ يومه أمسه » .

فالأنس بالحبيب من صدق المحبة ، وكل ما يمنع من ذلك موحش وحصوله بالخلوة والمناجاة كما حصل لأحد الأئمة (ع) حين كان منشغلاً بهذه الحال من المناجاة العرفانية ، ثم فقد وعيه فجأة فاجتمع حوله الناس ورشوا عليه الماء فأفاق وعاتبهم لأنهم أصبحوا حائلاً بينه وبين محبوبه حيث كان في انسجام تام معه فقطعوا عليه ذلك .

ويمكن تصور نوعين للخلوة بالمحبوب ، أولهما الذي يرىٰ ما حوله خالياً فيتكلم إلى محبوبه . والآخر الذي يغفل عن نفسه وينساها لشدة اللذة التي تستحوذ عليه من مناجاته لخالقه ، فيزول منه كل شكل من أشكال الإحساس المادي ويكون انتباهه كله منصباً على محبوبه بحيث إذا دعاه أحد

وكلّمه بصوت عالٍ لا يسمع ولا ينتبه له .

وذلك ما جرىٰ للإمام أمير المؤمنين (ع) حين أتم صلاته أثناء إصابته بسهم وأخرج من فخذه وهو لا يحس به .

والأثر الآخر للخلوة بالمحبوب الذي يمكن تصوره هو غلبة المحبة على قلبه فلا يفكر في غير محبوبه ، ولذا فلن تجد في مثل هذا القلب همّاً وغمّاً لاستغراقه بالأُنس بالله .

من وصف أمير المؤمنين للمتقين قوله : « أما الليل فصافون أقدامهم تالين لأجزاء القرآن يرتلونه ترتيلاً ، يحزنون به أنفسهم ويستثيرون به دواء دائهم . فإذا مرّوا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعاً وتطلعت نفوسهم إليها طمعاً وتطلعت نفوسهم إليها شوقاً ، وظنّوا أنها نصب أعينهم » .

« وإذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم وظنوا أن زفير جهنم وشهيقها في أُصول آذانهم فهم حانون على أوساطهم مفترشون لجباههم وأكفهم وركبهم وأطراف أقدامهم يطلبون إلىٰ الله تعالى فكاك رقابهم » .

ومن علامات المحبة ، أن لا يحس المحب بالأسف على فقدان أيّ شيء إلا لقائه بمحبوبه ، فلأنه قد وصل إلى محبوبه فلا مجال للحزن في قلبه ، وإن انفصل عن محبوبه فلن يحصل على البهجة والسرور بغيره .

ومن علامات المحبة سرور المحب بإطاعة محبوبه ، وأن لا يتسرب إلىٰ قلبه النصب والملك منها ، وليكن « فرهاد » قدوة حين احتفر نهراً من جبل « بيستون » إلى « قصر شيرين » ليرسل الحليب عبره إلى محبوبته شيرين ، وخلال تلك المشقة والتعب من العمل لم يعوض عليه إحساس من الكسل والتماهل والضجر ، لأن المحبة تجعل العسر يسراً وتعب الحبيب

راحة ، وعلامة المحب دوام النشاط والمواظبة . ومعناه أن العبد كلما ازدادت طاعته ازداد نشاطه ، ويروىٰ أن شخصاً معدماً سُئِل عن سبب فقره فقال : إنه رأىٰ شخصين أحدهما يحب الآخر ويقول له : إني أحبك إلى درجة جعلتني مستعداً لإعطائك كل ما أملك ، ولأني لا أملك شيئاً ، فسأهب روحي فداء لك . فقلت : إن كان هذا يضحي بروحه في سبيل محبوبه بهذا الشكل فكيف يجب أن يتصرف المرء تجاه محبوبه الخالق ؟ فذهبت وأنفقت كل ما عندي في سبيل الله حتى وصلت إلى هذا الحد من النعيم والغبطة والبهجة والسرور بإطاعة حبيبي .

ومن علامات المحبة أن المحب يكون رحيماً شفيقاً بجميع عباد الله وشديداً بغلظة على أعداء الله كما جاء في الآية الشريفة :

﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾[1] .

فأولئك الذين لا ترقىٰ إليهم الملامة لأنهم لا يجدون سبيلاً لهم غير سبيل الله يقول فيهم :

« الذين يكلفون بحبي كما يكلف الصبي بالشيء » .

تلكم كانت علامات المحبة وكل امرىء يعي مقدار ما فيه منها في باطن ذاته ، فإذا كانت تلك العلامات السبع موجودة فإن محبته تامة ، وإن لم يكن أيّاً منها موجوداً أصلاً ، فليس هناك محبة ، وإن وجد بعض هذه العلامات فستكون محبته ناقصة .

وينقسم الناس إلى ثلاث مجاميع في ذلك :

---

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٩.

١ ـ المقربون .

٢ ـ الأبرار .

٣ ـ الفجار .

أما المقربون فإنهم يشربون من عين في الآخرة تسمى تسنيم وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم ﴿ عيناً يشرب بها المقربون ﴾[1] وهي عبارة عن شراب خالص يختصون به ، ولا يوجد له مثيل في الكون .

وأما الأبرار فإنهم يشربون من عين فيها نسبة معينة من عين تسنيم : **﴿ إن الأبرار لفي نعيم * على الأرائك ينظرون * تعرف في وجوههم نضرة النعيم * يسقون من رحيق مختوم * ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس * المتنافسون ومزاجه من تسنيم * عيناً يشرب بها المقربون ﴾** .

ولأن أوله يكون عذباً فآخره يكون مسكاً في أفواههم .

« ثانياً يكون مختوماً في قناني محكمة الإغلاق بالمسك » وفي ذلك يكون لذة للشاربين . وذلك هو الماء المخلوط من عين تسنيم الذي يقدمه الولدان المخلدون والحور العين في أوعية يدورون بها عليهم . وتسنيم هي العين المخصصة للمقربين فقط ، والمخلوط منها للأبرار . فلنرَ مقدار تفاوت الدرجات ، ثم نرى نسبة الخلط في مقدار الماء القراح المقدم حسب درجاتهم . وميزان اختلاط ماء عين تسنيم بماء الشرب يكون بمقدار محبة المرء لغير الله ، وهذا جزاء عادل .

إذن فالمقربون فقط هم الذين يشربون من عين تسنيم لأن قلوبهم مطهرة من حب غير الله ومحبتهم له محبة صافية .

---

(١) سورة المطففين، الآية: ٢٨.

ومن علامات المحبة أن المحب يكون خائفاً ووجلاً من المحبوب وكذلك يكون متواضعاً ومتصاغراً أمام مشاهدة هيبته وعظمته ، أي أنه في الوقت الذي يكون محبوباً ، فهو مرهوب الجانب بدرجة تفاوت حالة القلب في إدراك هذا المعنىٰ ، لأنه حين يدرك عظمة محبوبه يهابه ويخافه ، ولكن إدراكه لجماله وكماله يزيد من محبته له .

ويجب أن تعلم أن الخوف على قسمين :

الأول : أن العبد يعصي مولاه فيخاف عقابه ، ولذا فإنه متى ما تذكر مولاه تملكه الخوف .

الثاني : أن لا يكون خوفه لقصوره في أداء واجبات العبودية بل لأنه يتوغل في عظمة مولاه فيسيطر الخوف على قلبه . وهذا ما يسمىٰ « بالخشية » وهو يختص بأهل الإدراك العارفين بهيبة وعظمة الله كما قال سبحانه : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ .

وحين نستقرىء سيرة النبي الأكرم (ص) نراه أشد خلق الله هيبة وخشية لله ، لأن إدراكه لعظمته فوق كل الإدراكات .

وفي مجال الحب نرىٰ درجات من الخوف ، أشدّها الخوف من الإبعاد أي أن يقوم المحبوب بإخراجه من حريم ساحته ، إن الطرد والابعاد من ساحة الله من أصعب وأشد عذابات جهنم .

وورد في الخبر أن رسول الله (ص) قال : شيبتني سورة هود . لقوله تعالى فيها : ﴿ واستقم كما أمرت ﴾ فإنه (ص) أُمر بالاستقامة وكان يخشى أن يقصر في أدائها .

ويشتد الخوف من البعد عن الله حين يقترب العبد من محبوبه فيتذوق

لذة القرب منه ويفهمها .

إن قرب التلميذ من معلمه يكسبه صفاته ، فيقال : هذا تلميذ فلان ومعناه أنه قد اكتسب صفات أُستاذه فأخذ يعرف بها . إذاً فالقرب من الله يكون كذلك حيث تسري صفات الله الجمالية والكمالية لعبده المقترب منه ، ولكن يوجد فرق بين قرب العبد من الله ، وقرب التلميذ من أستاذه ، إذ قد يتمكن التلميذ من أن يصل إلى مستوى أستاذه أو يتفوق عليه ، ولكن لا يمكن للعبد أن يتفوق على ربه مهما جدّ وكدّ في عبادته ، نظراً لأن كمالات الله لا نهائية ، ولذا فإن درجات ترقي العبد تكون أيضاً لا نهائية ومن جملة الأدعية التي علّمها الله تعالى رسوله الأكرم (ص) : ﴿ وقل ربِّ زدني علماً ﴾ .

« وقد روىٰ أن أدنى ما أصنع بالعالم إذا آثر شهوات الدنيا على طاعتي أن أسلبه لذيذ مناجاتي » .

إنّ في طريقنا آفات كثيرة ما هي إلا الشهوات النفسية ، التي يختارها الإنسان ويفضلها على طاعة الله ، إذن فمتىٰ ما وجدنا علاج الآفات ، فإننا سوف نتلذذ بقراءة الأدعية والأذكار والعبادة .

المهم أن الإنسان كلما أراد استحصال اللذة من أي شيء فإنه سوف يلجأ إلى قوىٰ الروح المتواجدة فيه من أجل ذلك ، ويكون ذلك للتمتع بالملذات الدنيا ، ولكن في مقام مناجاة الله تعالى فإن الروح تتلذذ بدرجة أعلىٰ وأقوىٰ وشدة وضعف اللذة تكون بشدة وضعف المدرك ومنزلته .

إن من يتذوق لذة القرب من الله تعالىٰ لن تلفت انتباهه لذة دنيوية سواها مهما كانت ، ولن يكون لها أثر في نفسه .

والخامس من أسباب الخوف الخوف من زوال الشوق الذي يُعبر عنه

« بخوف السلو » وهو من مقدمات الاستبدال .

إن الشوق يكون متناهياً بالنسبة لغير الله ، ولا متناهياً بالنسبة لله تعالى ، نظراً لأن كمالاته تعالى لا متناهية ، وأن الشوق الذي نعرفه في الدنيا يكون مصحوباً بألم ، وفي الآخرة يكون مجرداً منه .

إن انقطاع المحب عن حب محبوبه أمرٌ ممكن الحدوث ، ولذا فيجب الخوف من ذلك وفي هذا قال بعض الأكابر :

« من عبد الله تعالى بمحض المحبة من غير خوف هلك بالبسط والألاء ، ومن عبده بطريق الخوف من غير محبة انقطع عنه بالبعد والاستيحاش ، ومن عبده من طريق المحبة والخوف أحبه الله تعالىٰ وقربه ومكّنه » .

فالذي يعبد الله بالخوف وحده يكون في دوامة الفكر بذلك حتى يجد ذاته منفصلة عن محبوبه ، نظراً لأنه لا محبة هناك ، فتأكل الوحشة كيانه .

وأما الذي يعبد الله خوفاً وطمعاً فهو حسن ، نظراً لأن الحد الأوسط هو الاعتدال بعينه ، ومعناه أنه كلما أراد أن يزيحه الخوف عنه منعه عن ذلك الرجاء والمحبة ، فلا يدعه يبتعد ، وكلما حاول الرجاء والمحبة أن يخرجه عن حد الاعتدال منعه الخوف من ذلك ، فيظل يراوح في محور الوسط .

إذن فلا يحسن أن يكون المحب خالياً من الخوف ، ولا الخائف خالياً من الحب ، ولذا فإن هذا القسم من الخوف يكون أفضل من الأقسام الأخرىٰ .

وأفضل صورة هي أن يمتزج الخوف بالحب وهي حالة التعادل التي تستقر عندها النفس وتطمئن بها .

يقال أن شخصاً من أولياء الله دعا ربه أن يذيقه ولو شيئاً طفيفاً من محبته ، فما إن أتم دعاءه حتى أنفق كل ما كان يملكه وذهب ليعيش في الغابات والصحاري ليمضي بقية عمره على ذلك المنوال . ولو أن هذا داخله بمقدار المحبة خوف لاعتدل في سلوكه وحياته .

الحكمة والمصلحة في امتزاج الحب بالخوف وبدون ذلك فإن الحياة سوف يتغير وجهها لعزوف الناس عنها والزهد في كل شيء ، فينقطع النسل وتتعطل الأعمال .

لا منتهىٰ لحكمته ولا منتهىٰ لقدرته :

ومن علامات المحبة كتمانها عن غير المحبوب ، لأن كتمان المحبة سيكون داعياً لزيادة الشوق والإخلاص . إن إظهار المحبة ربما تكون له آثار سلبية وتكون سبباً للإنتكاسة . قال أحد الحكماء :

« أكثر الناس من الله بعداً أكثرهم إشارة إليه » .

إذ لعله في هذا الإظهار يولد الشركة في المحبة .

ويحكىٰ أن بعض أهل المحبة ذهب إلى زيارة أحد أصدقائه الذي أصيب بصداع شديد أثر في صحته ، فقال له :

« لا يحبه من وجد ألم ضره »

باعتبار أن كل ما يأتي به المحبوب محبوب فأجابه صديقه المريض :

« لا يحبه من لم يتنعم بضره »

يقصد لعل الله لا يحب من لا يبتليه بالمرض فأجابه الزائر :

« لا يحبه من شهر نفسه بحبه »

كأنه ينبهه إلى عدم ادعاء حب الله له وأنه يشتري سهام البلايا بروحه العزيزة .

فقال المريض على الفور :

« استغفر الله ربي وأتوب إليه » .

ونتيجة ذلك أن علامة المحبة ظهور المحبة في أحوال المحب وقسمات وجهه وليس في أفعاله وأقواله . قال الشاعر :

لا تخدعن فللمحب دلائل ولديه من تحف الحبيب وسائل
منها تنعمه بمر بلائه وسروره في كل ما هو فاعل
فالمنع منه عطية معروفة والفقر إكرام وبر عاجل

ومن علامات المحبة أن يسد جوعه بطعام قليل ، ويستر جسمه بلباس بسيط يحفظه من الحر والبرد ، كما قال أمير المؤمنين ومولى الموحّدين (ع) : « ولقد رقعت مدرعتي حتىٰ استحييت من راقعها » ، وكان يشتري القميصين فيعطي أحسنها لغلامه .

ومن علائم الحب الرضىٰ بما قسم الله تعالىٰ لهم « واجعلني بقسمك راضياً قانعاً » . فالحب قد ملأ قلبه وسد عليه الآفاق ولم ير سوىٰ محبوبه فهو لا يرىٰ الأشياء إنما يرىٰ المحبوب ويرىٰ الأشياء من خلاله كما قال أمير المؤمنين (ع) « ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله فيه وقبله وبعده » .

ومن علامات المحبة العزم الثابت والإصرار الراسخ على إطاعة المحبوب وعدم التحول عن حبه مهما اشتدت المحن ولا يأبه بلوم لائم .

﴿ يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ﴾(١)

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٥٤.

ومن الدلائل أن يُرى من شوقه مثل السقيم وفي الفؤاد غلائل

ومن علامات المحبة أن يُرىٰ المحب وكأنه مريض ظامىء ملتاع فيتوجه إلى حبيبه قائلاً :

« وعندك دواء علتي ، وشفاء غلتي ، وبرد لوعتي »

ومن الدلائل أن يرىٰ من أنه مستوحشاً من كل ما هو شاغل

ومعناه أنه لفرط حبه لا يأنس عن المحبوب بالناس .

ومن علامات المحبة أن يسهر الليل باكياً متضرعاً لحبيبه لا يطلع عليه أحد إلا المحبوب .

ومن الدلائل أن يرىٰ متفهماً لكلام من يحظىٰ لديه السائل

فهو في بحث مستمر وشوق دائم لحبيبه :

ومن الدلائل أن تراه باكياً إن قد رآه على قبيح فعائل

والبكاء وسيلة الأولياء للتكامل فكلما ارتقوا درجة ازدادوا شوقاً وحنيناً إلى مولاهم لذا فهم يبكون ويتضرعون ويحسبون أنفسهم مذنبين مقصرين .

هذا في محبة العبد لربه ولنرىٰ محبة الرب لعباده ، إن أصل نسبة محبة الرب لعبده ثابت بنصوص آيات القرآن الكريم والسنّة الصحيحة فالصفات تكون على قسمين بعضها مختصة بالعبد فقط ، وبعضها مختصة بالله تعالى فقط كصفة العظمة والكبرياء التي قال الله فيها : « العظمة إزاري والكبرياء ردائي » .

فصفات العظمة والكبرياء والعزة والقوة والكرم وما شابه تنحصر

بالذات الإلهية المقدسة وليس فيها خط للعبد ، وهذا الحصر للصفات هو من موجبات الكمال الإلهي .

ولكن هناك بعض الصفات المشتركة بينهما مثل صفة المحبة التي تكون من الطرفين . فالله تعالى يحب العبد والعبد يحب الله . وفي القرآن الكريم شواهد كثيرة من الآيات على ذلك منها ﴿ **إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين** ﴾[1] والآية الشريفة ﴿ **إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص** ﴾[2] أو الآية الشريفة ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله** ﴾[3] أما من السنّة « إذا أحب الله عبداً لم يضره ذنب » ونظير ذلك في ولاية علي بن أبي طالب : « حب علي حسنة لا يضر معها سيئة » وفي خبر آخر « يؤتي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يؤتي الإيمان إلا من يحب » .

وفي خبر آخر :

« من تواضع لله رفعه ومن تكبر خفضه ومن أكثر ذكر الله أحبه الله » .

وفي حديث آخر متفق عليه بين الفريقين :

« لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي سمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ولسانه الذي ينطق به ، ويده التي يبطش بها » .

والأخبار والروايات في هذا الشأن كثيرة جداً . وذكرنا سابقاً أن محبة الشيء تكون عبارة عن ملاءمته لطبع الإنسان من ناحية الإدراك ، كالجوع

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢٢.
(٢) سورة الصف، الآية: ٤.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٣١.

مثلاً الذي يولد الميل الشديد لدىٰ الإنسان لتناول الغذاء حيث يكون هذا الميل تابعاً للإدراك : إذن فقد أصبحت الروح محلاً لأمر حادث بالنسبة لتناول الغذاء ، ومعناه أنه لم يكن قبلاً ثم حصل فيما بعد ، ولأن هذا الميل يشتد فإنه سيتحول إلى حب ولأن الحب يشتد فإنه سيتحول إلى عشق .

أما محبة الله سبحانه وتعالى لعبده فليست بهذه الكيفية ، نظراً لأن الذات الإلهية المقدسة منزهة عن الحلول في الوقائع الحادثة .

ولأن العبد عند إدراكه ما يلائم طبعه فإنه سيتحرك لتحصيله ولكن محبة الله بالنسبة للعبد ليست بهذا الشكل نظراً لأنه غني ، وليس للفقر طريق أو منفذ لذاته المقدسة حتى يطلب شيئاً هو فاقده ، فهناك بون شاسع بين محبة العبد لربّه ومحبة الرب لعباده . ويبدو لنا أمران لا بد من إيضاحهما وهما :

أولاً : يجب أن نرىٰ كيف يمكن لله تعالى محبة غير ذاته في الوقت الذي تعتبر فيه محبة الغير نقصاً بناءً على ما قدمنا ؟

ثانياً : كيف يقع الله في محلاً لصفة المحبة بينما هو ليس محلاً للحوادث ؟

أما بالنسبة للشق الأول فقد قلنا في فصل المحبة : إن العبد يتفاوت مع الله من حيث الإدراك والمدرِك والمدرَك ، وهذا الاختلاف يدور في فلك موجبات شدة وضعف المحبة ، وقد ضربنا مثالاً لكليهما . فإن كان الإدراك كاملاً ، والمدرِك والمدرَك قوي وفي ذرة الكمال والجمال فستكون المحبة التامة متواجدة تجاهه ، والباري جل جلاله العظيم أتم إدراكاً لذاته .

ولأجل حصول الإدراك لدينا لا بد من تواجد ثلاثة أشياء :

١ ـ وجود الشيء المدرك خارجاً .

٢ ـ انطباع صورة الشيء المدرك في الذهن .

٣ ـ علمنا بتلك الصورة الذهنية . وعلمنا بالنسبة لذاتنا عبارة عن نفس حضور الذات ، وهنا يكون العالم والعلم والمعلوم أمراً واحداً .

ونقول هذا لأن إدراكنا لذاتنا هو عين ذاتنا ، والعلم بالشيء في الذهن هو علم حاصل بالذات ، ونتيجة ذلك هي أن الله علم بذاته بعين ذاته وهو أسمىٰ وأتم الإدراك ، ومحيط بما لذاته من جمال وكمال تامّين ، ونتيجة ذلك فإنه سيكون سروره بذاته بالغاً النهاية ، بحيث لا يوجد بين مخلوقات الله من يمتلك الحب بمقداره ، نظراً لأن إدراكاتهم ناقصة .

وكان ذلك كله في باب ذاتية الحق « الله » .

وأما في باب محبة الله (عزّ وجلّ) لما سواه ، فقد قلنا سابقاً ، بالنسبة لما يتعلق بالمحبوب وتبعاته ، أن المرء إن أحب شخصاً فإنه سوف يحب كل ما يتعلق به ، وقد أتينا هذه المسألة بالنسبة له تعالى ولحبنا له ، ولأن الله تعالى يمتلك الحب فإنه سيحب جميع مخلوقاته نظراً لأنهم جميعاً تابعين له وكلهم متعلقين به ، قال تعالى : ﴿ **يحبهم ويحبونه** ﴾ فحين قرأها أحدهم قال بوجد وسرور « بحق يحبهم ويحبونه فإنه لا يحب إلا ذاته » .

ويروىٰ أن نبياً دعا على قومه بالهلاك لكفرهم وعنادهم ، فجاءه الخطاب الرباني بأن يزرع أرضاً ، فطفق النبي بإعداد الأرض وزراعتها ، ولما ارتفعت سيقان النبات ولما تثمر أمره تعالى بأن يحصدها ويجتثها من عروقها فتساءل كيف يمكن حصاده ولم يثمر بعد ؟ لقد بذلت جهداً في زراعته ولم يحن وقت قطافه ، فأجابه تعالىٰ : فكيف تريدني إذن أن أبيد ما خلقت ؟ ألا تعلم إني أحب خلقي كما تحب زرعك ، ولا يعجبني أن أهلكهم ، فانظرهم إلى يوم يبعثون .

فلو أن شخصاً في فلاة قد انقطعت به السبل وضلت عنه راحلته التي تحمله وتحمل أثقاله ومتاعه فبينما هو حائر لا يهتدي إذ لاحت له راحلته ، فكم ستكون لهفته واشتياقه وسروره ؟ إن شوق الله أشد إلى عباده من هذا . حتى أن جهنم عنده لتطهير العباد الذين أوغلوا في المعاصي وارتكاب السيئات فمنهم يلبث برهة ومنهم من يخلد فيها مهاناً جراء ما اقترفت يداه ﴿ **ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك** ﴾[1] .

إنّ محبة الرب لعبده عبارة عن رفع الحجاب عن العبد حتى يصل إلى مقام المشاهد للباري بالرؤية القلبية ، ويؤيد ذلك روايات وأخبار وما ورد من أدعية على لسان أهل بيت العصمة (ع) حيث : إنه منزّه من الرؤية بالعين المجردة ، ولا يحويه إلا قلب العبد المؤمن فإن وصلنا إلى هذه المنزلة ، فقد رفع الحجاب عنا . وتسمىٰ هذه الحالة بمحبة الله لعبده حيث يمكنه من الاقتراب من هالة عرشه ، فالذي يسير في هذه السبيل سيحبه الله أكثر وأكثر كلما اقترب بخطاه على بساط الاستقبال الإلهي وذلك ما جرىٰ للرسول الأكرم (ع) فقد اقترب من العرش اقتراباً لم يسبق لمخلوق حتىٰ أن جبرائيل (ع) قال « لو دنوتُ أنملة لاحترقت » . ويمكن تصور القرب على نحوين :

١ ـ قرب مكاني وهو ما يحصل بين الناس .

٢ ـ قرب معنوي وهو الذي نقصد به القرب إلى الله تعالىٰ ، ومعناه التخلق بأخلاق الله تعالى والسير على هداه واجتناب المعاصي . وهو على مرحلتين أساسيتين هما : التخلية والتحلية وكلما كانت التخلية جادة وعميقة وتحررت فيها النفس من شراك ذاتها التي تكبل الإنسان وهي سبب رقة وبعده

---

(١) سورة النساء، الآية: ٧٩.

عن الباري تعالىٰ ـ كانت التحلية أعمق وأيسر حتى تصل إلى درجة التجلية فتكون انعكاساً للألطاف الإلهية والنفحات الرحمانية المتجلية في سلوكه وحياته .

« إذا أحب الله عبداً ابتلاه فإن صبر اجتباه وإن رضي اصطفاه » . ونقصد بالتخلية تخليص النفس من الرذائل والمعاصي والسيئات ولها مصاديق متعددة ، والتحلية عبارة عن التزود بالأعمال الخيرة الصالحة والتحلي بالصفات الفاضلة .

يروىٰ عن عيسى ابن مريم (ع) أنه كان عندما ينام يفترش الأرض ويضع رأسه عليها ، ففكر بأن يضع حجراً تحت رأسه لينام ، وحينما فعل ذلك استغل الشيطان الفرصة وقال لعيسىٰ مستفزاً إياه : حتى أنت يا عيسىٰ أصبحت مائلاً ومحباً للدنيا تتخذ وسادة لرأسك . فقذف عيسىٰ (ع) الحجر فوراً من تحت رأسه وتوسد الأرض . إن وضع المحب بالنسبة للمحبوب قد يبلغ هذه الدرجة فيستكثر على نفسه وضع حجر ملقىٰ في الطريق تحت رأسه ، إذن فكم يكون عديم المحبة ذلكم الشخص الذي يرفع يده أمام الآخرين قائلاً : يا الله ، طلباً للعون منهم .

إذن فإن صبر العبد على البلاء فإنه سيحظىٰ بمنزلة رفيعة ويكون عند الله مختاراً ومن الأصفياء ويحصل على مقام شامخ من بين العباد .

وفي رواية أن تلميذاً قال لأستاذه : اني أحس أن الله يحبني . فقال له أستاذه : يا بني لا تطلق ذلك جزافاً ، فإن من امتلأ قلبه بحب الله تعالى ابتلاه حتىٰ يرىٰ صبره ثم يختاره ثم يصطفيه ، فهل ابتلاك الله بفقد أحبة ثم أحببت الله تعالىٰ ولم تفكر بهم ، قال : لا ، فقال له الأستاذ : إذن لا تعجل في إطلاق الحكم .

ثاني علامات محبة الرب لعبده أن لا يستأنس بشيء سوىٰ الله تعالىٰ . فالأشياء الكثيرة التي يراها العبد في مسيرته إلى الله يضع الرب حجاباً بين عبده وبينها ليتسنىٰ للعبد الانشغال بحبه وحده ، ويكون كل توجهه إليه ، قال الحواريون لعيسىٰ (ع) : لو اشتريت حماراً تركبه ، فيخفف عليك من مشقة السير الطويل ، ويرتاح بدنك ، فقال لهم : الحق أقول ، إني أعز عند الله بدون حمار أنشغل به عن عبادته .

والثالثة من العلامات التي وردت في الروايات : « إذا أحب الله عبداً جعل له واعظاً من نفسه وزاجراً من قلبه » .

وقال النبي الأكرم (ص) : « إذا أراد الله بعبد خيراً بصره بعيوب نفسه » .

الرابعة من العلامات ، وهي أخص وأظهر العلامات : إن المحبة كما ذكرنا سابقاً تكون من الطرفين ، وخلاصة ذلك أنه إذا أردنا معرفة مقدار محبة الله لنا ، فعلينا أن ننظر في أنفسنا ، ونرىٰ مقدار. حبنا له ، وهذه من العلامات بين العاشق والمعشوق ، والميزان الصحيح لمقارنة المحبة ، ولذا يقال : إن قيس ليلىٰ كان عاشقاً لها ، لأنها أيضاً كانت عاشقة له ، إلا أن قيساً كان يظهر عشقه ، بينما كانت هي تخفيه .

الخامسة من علاماته أن يحصل للعبد التوفيق الإلهي لأمور الخير وتدبير الأمور الحياتية بإرادته تعالى وهدايته الخاصة التي لا تنال إلا أولياءه المخلصين ، فيكون طبقاً للحديث القدسي يده ورجله وعينه وأذنه ولسانه « هو الجاعل همومه هماً واحداً » .

أي أنه يجعل قراره قراراً واحداً ، ويكون ارتباطه وتوجهه بمركز واحد ، فيبغض الدنيا ، ويستوحش من كل أحد سوىٰ الله ، ويأنس بلذة

الدعاء والأذكار في مناجاته في خلواته ، حتى يصل في نهاية المطاف إلى منزلة يرىٰ الله فيها بقلبه وبصيرته ، « تراه القلوب بحقيقة الإيمان » .

●●●

الفصل الخامس

- في الغضب -

أضحىٰ معلوماً أن علم الأخلاق هو ما يسمىٰ بعلم المعاملة حيث يقوم الإنسان بمتابعة علم الفقه والأحكام الشرعية ليتسنىٰ له معرفة طريق الأحكام والعبادات ، وعليه أيضاً متابعة دراسة علوم المعاملة الروحية ، وهو علم الأخلاق ، ليتمكن من تجنب الأخلاق الذميمة والخبيثة ويتجلّىٰ بالأخلاق الطيبة والخيرة .

ومن الصفات الأخلاقية القبيحة : الغضب ، فالشخص الغضوب يعد منحرف المزاج والسلوك . والغضب أمر ضروري في أصل وجوده لحماية الإنسان والدفاع عن معتقداته ، إلا أن الإفراط في ذلك يسبب انحرافاً سلوكياً خطراً .

وبحثنا في الغضب يتضمن أموراً :

الأول : في حكمة وخاصية الغضب وماهيته .

وكمقدمة لذلك نقول : إن من البديهي أننا لا نملك الخلود في هذه

الدنيا ، وقد ورد في الرواية عن الرسول الأكرم (ص) : « من أراد البقاء ، ولا بقاء ، فليخفف الرداء ، وليجود الغذاء ، وليباكر بالغذاء » .

إن بنية بدن الإنسان لم تخلق بنحو يتيح له الخلود في هذه الدنيا ، ولذا فإن الإنسان عرضة للزوال ، ولكنه خلال حياته يسعىٰ لتأمين أموره المعاشية وترويج معتقداته الدينية والأخلاقية ، فيصطدَم بمعوقات وأذواق متباينة فيحتاج إلى تلك القوة الغضبية التي تحركه وتدفعه باتجاه العمل والكدح وتذليل المعوقات التي تعترض طريقه وبدونها فإنه سيفقد فاعليته ويتحول إلى كتلة لا خير فيها ولا حركة .

الأمر الثاني : في معنىٰ الغضب ، وهو عبارة عن وجود حالة نفسانية تهيّج العنف في داخل الروح ، فتظهر آثارها منعكسة في البدن ، والناس على ثلاثة أقسام من حيث الغضب بين إفراط وتفريط ويتوسطهم قسم ثالث هو أفضل الأقسام .

فالإفراط انحراف وخروج عن الحدود المعقولة ، وله آثار سلبية وخيمة في المجتمع وإفرازات سلوكية تخلف الدمار والخراب وانفلات الزمام ، ولا يصلح مثل أولئك للتصدي لأمور تحتاج إلى سعة الصدر والحلم .

والتفريط انحراف كذلك حيث يتحول فيه الإنسان إلى ذليل لا ينطق بحق ولا يؤدي عملاً ولا يأمر بمعروف ولا ينهىٰ عن منكر ، وهي حالة انتكاس في السلوك والمعتقد .

أما القسم الثالث فهم الذين يغضبون لله تعالىٰ ويدافعون عن مبادئهم بصلابة ، أعزة على الكافرين أذلة على المؤمنين ويكظمون غيظهم لله تعالى ، ويصبرون على الأذىٰ عندما ينال الشخص لا العقيدة والمبدأ .

ويمكن أن يروض الإنسان نفسه ويقلل من غلواء الغضب ويستمد العون منه تعالىٰ فيمكنه أن يتحول من إحداهما إلى الحالة المتوسطة الممدوحة .

ويترك الغضب آثاراً سلبية على البدن والروح ، وهي :

أولاً : الآثار البدنية :

١ ـ تغيير في اللون وارتجاف في أطراف الجسم قبلاً .

٢ ـ حصول اضطراب في أفعاله وأقواله ويتصرف بحالة جنونية بعيدة عن سيطرة العقل .

أما الآثار التي تطرأ على الروح فهي أخطر بكثير ويمكن تلخيصها بما يلي :

١ ـ الحقد ، يعني أن الغضب يولد الحقد عند الإنسان تجاه ذلك الشخص المغضوب عليه .

٢ ـ الحسد وإضمار السوء ، فيتألم إن أصابه خير ويشمت به إن أصابته نائبة ، ويظهر معايبه ويخفي محاسنه .

والإنسان الغضوب يعيش حالة قلقة لا تستقر نفسه وتثور لأتفه الأسباب وبعكسه الحليم فإنه يحمل نفساً مطمئنة مستقرة .

إن الأحنف بن قيس كان حليماً وامتحنه يوماً شخص حيث دعاه إلىٰ وليمة في داره ، وما أن وصلا إلى باب الدار حتى اعتذر منه الرجل ولم يدخله الدار ، فعاد الأحنف إلى منزله وقبل أن يدخل داره جاءه الرجل نفسه ودعاه أن يأتي إلى داره ، فذهب معه أيضاً وفعل ذلك عشر مرات ، والأحنف يلبي دعوته في كل مرة بدون أن ينبس ببنت شفة حتى شعر ذلك

الشخص بالتعب والملل ، فقال للأحنف : لقد تعبت وأراك هادئاً لم تغضب ، فقال له الأحنف : لن أغضب وإن فعلت ذلك مائة مرة ، لأن الغضب مذموم ، وهو حالة نقص عند الإنسان .

والسؤال هل يمكن معالجة الغضب أم لا ؟

إن الغضب المكتسب يمكن معالجته باعتباره أمراً عارضاً وطارئاً قابلاً للزوال ، وذلك بترويض النفس ومعاشرة الذين لديهم القدرة على كظم الغيظ وإمساك النفس عند حصول المثيرات .

وأما الغضب الفطري والغريزي ، فذلك مورد بحث بين العلماء ، فقال بعضهم : إنه ليس قابلاً للزوال والعلاج كالشجرة التي نشأت ونمت معوجة ، أو أنه مثل النار التي تولد في طبعها الحرارة عند اشتعالها فلا تأمل منها البرودة يوماً ما . وقال آخر : إنه قابل للتغيير .

ومن مسببات الغضب هو الكره المسبق للأشياء أو الأشخاص ، والأشياء التي نتعلق بها على ثلاثة أصناف : ـ

أولها : ما هو ضروري لنا ، فمن الطبيعي أن نحب وجوده ونكره زواله ، ونبغض مزيله ، كالغذاء والمسكن والملبس والأمن ، وبذلك قال الرسول الأكرم (ص) أن من أصبح على حال فيه ثلاث نعم فقد فتحت له كل أبواب الخير . وهي عبارة عن الصحة وسلامة البدن والأمن من شر الناس وامتلاك قوت الغد . ولذا فنحن نحب هذه الأمور ونكره كل ما يسبب ضياعها من بين أيدينا .

ثانيها : أمور تكون ضرورتها خاصة لفئة من الناس كالكتاب للعالم ، والمنشار والمبرأة للنجار والفأس للبناء والمحراث للفلاح وهكذا .

والثالث : أمور كمالية كالأثاث الفائض عن الحاجة .

فالأمور الضرورية نتعلق بها ونغضب لسلبها ، إلا أن الأمر في موقفنا من الأمور الكمالية وما لم يكن ضرورياً في حياتنا هو مقياس الغضب والحلم .

وللحد من الغضب لدينا طريقان يمكن أن نسلكهما :

١ ـ الوقاية قبل الوقوع في موجبات الغضب أو السلوك السيّىء ، ويقال بهذه الطريقة يدفع السوء قبل وقوعه .

٢ ـ العلاج وهو رفع الخلق السيّىء بعد وقوعه ، والطريقة الأولىٰ أيسر وأسهل ، وذلك كأن نمنع الدخان من دخول الغرفة بإغلاقها فهذا أيسر من ندع الدخان يدخلها ثم نقوم بإخراجه ، فمثل الغرفة هو القلب ، ومثل الدخان دخان الغضب .

فأما بالنسبة للطريقة الأولىٰ وهي عدم السماح للصفات الذميمة بدخول ميدان القلب فنقول : إن منع وجود أي شيء يكون برفع علة وجوده ، كالمصباح إن قللت نوره فإنه لن ينطفىء ، ولا ينقطع نوره إلا بإطفائه ، إذن فأي شيء يمكن منع علته لن يتحقق ولا يوجد ، وهناك مثيرات ومناشىء للغضب ، منها :

١ ـ الشعور بالفخر والكبر ، فيرىٰ أن الناس أقل منه شأناً ، فيغضب عندما يعامله الناس بالأمور المتعارفة ، وشعوره هذا ناشىء من تصوره أنه أفضل من غيره ، أو من جهة الثروة والمال أو الجاه والمنصب ، وكلها آثار جاهلية مقيتة .

٢ ـ العُجْب والأنانية وحب الذات واستصغار الآخرين .

٣ ـ كثرة المزاح والهزل ومعاشرة الحمقىٰ .

٤ ـ شدة الحرص على تحصيل المال والجاه وحب الدنيا .

وأما معالجة العجب فتكون بأن يستقرىء المرء ذاته باتزان ونفكر قليلاً من أين أتىٰ وإلىٰ أين ؟ وعلاج ذلك بتقوية الوازع الديني والابتعاد عن مواطن الإثارة والغضب والنظر في آثار السلف الصالحين والتواضع للمؤمنين ومعاشرة الأتقياء والحلماء والابتعاد عن مجالس البطالين الذين يذكرون العثرات والعيوب ، والإكثار من ذكر الله تعالىٰ ، فإنه نور للقلوب .

﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً * الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ﴾[1] .

وأخيراً فإن الإنسان إذا نظر إلى عيوبه انشغل بها عن ذكر عيوب الآخرين .

ونذكر بعض ما ورد من روايات عن الغضب :

١ ـ عن رسول الله (ص) : « الغضب يفسد الايمان كما يفسد الخل العسل » .

٢ ـ ما ورد عن أمير المؤمنين ومولى المتقين (ع) : « الحدة ضرب من الجنون ، لأن صاحبها يندم ، فإن لم يندم فجنونه مستحكم » .

٣ ـ عن الإمام محمد الباقر (ع) قال :

« إن هذا الغضب جمرة من الشيطان توقد في قلب ابن آدم ، وإن أحدكم إذا غضب احمرت عيناه ، وانتفخت أوداجه ، ودخل الشيطان فيه ، فإذا خاف أحدكم ذلك من نفسه فليلزم الأرض ، فإن رجز الشيطان يذهب

---

(١) سورة الكهف، الآيتين: ١٠٣ ـ ١٠٤ .

عنه عند ذلك » .

٤ ـ وعنه (ع) : « إن الرجل ليغضب فما يرضىٰ حتى يدخل النار » .

٥ ـ ما روي عن الصادق (ع) :

« وكان أبي يقول : أي شيء أشد من الغضب ، إن الرجل يغضب فيقتل النفس التي حرم الله ويقذف المحصنة » .

٦ ـ وعنه (ع) :

« الغضب مفتاح كل شر » .

ومثل ذلك في شرب الخمر ، قال (ع) : الخمر مفتاح كل شر ، نظراً لأنهما يزيلان سيطرة العقل على تصرفات الإنسان .

وإنما سمي العقل عقلاً اشتقاقاً من العقال ، وهو رباط ركبة الجمل حتى لا يسرح ، فكذلك يكون العقل رباطاً للنفس الأمارة للسوء ، وأم الخبائث الخمرة تستولي على هذا العقل وتضرب حجاباً من الوهم والخيلاء بينه وبين الإنسان . فإن سُلب عقله فإنه لن يستطيع الحد من شطط دوافعه ، فيسلك سلوكاً يطيش عن القانون والعرف والشرع .

٧ ـ وجاء عن بعض الحكماء :

« السفينة التي وقعت في اللجج الغامرة واضطربت بالرياح العاصفة وغشيها الأمواج الهائلة أرجىٰ إلى الخلاص من الغضبان الملتهب » .

وهناك روايات تحث على ترك الغضب وكظم الغيظ ، منها :

١ ـ عن الرسول الأكرم (ص) :

« من كف غضبه عن الناس كف الله عنه عذاب يوم القيامة » .

٢ ـ عن الباقر (ع) :

« مكتوب في التوراة في ما ناجىٰ الله تعالى به موسىٰ : أمسك غضبك عمن مَلَّكْتك عليه أكف عنك غضبي » .

٣ ـ عن الصادق (ع) :

« أوحىٰ الله إلى بعض أنبيائه : يا ابن آدم اذكرني في غضبك ، أذكرك في غضبي ، ولا أمحقك فيمن أمحق ، وإذا ظلمت بمظلمة فارض بانتصاري لك ، فإن انتصاري لك خير من انتصارك لنفسك » .

يروىٰ أن أحدهم كان يؤذي الإمام زين العابدين فأخذ (ع) يتلو عبارة ﴿ **اني مغلوب فانتصر** ﴾[1] لعدة أيام فغرب عنه عدوه ولم يره أبداً .

٤ ـ عن الصادق (ع) :

« سمعت أبي يقول : أتىٰ رسول الله (ص) رجل بدوي فقال : إني أسكن البادية فعلمني جوامع الكلم . فقال : آمرك أن لا تغضب . فأعاد الأعرابي عليه المسألة ثلاث مرات ، حتى رجع الرجل إلى نفسه فقال : لا أسأل عن شيء بعد هذا ، ما أمرني رسول الله (ص) إلا بالخير » .

عن الصادق (ع) أيضاً :

« أن رجلاً أتىٰ رسول الله (ص) فقال : يا رسول الله علمني عظة أتعظ بها . فقال له : انطلق ولا تغضب ، ثم عاد عليه فقال له : انطلق ولا تغضب ثلاث مرات » .

٥ ـ عن الصادق (ع) أيضاً : « من كف غضبه ستر الله عورته » .

وفي رواية أنه غضب ملك لبني إسرائيل غضباً شديداً وكان بقربه حكيم ، فسلمه الحكيم كتاباً كتب له فيه أن يرحم المساكين وأن يخاف

---

(١) سورة القمر، الآية: ١٠.

الموت ويتذكر الآخرة ، وبعد أن قرأ الملك تلك الصفحة هدأ غضبه .

وخير علاج للغضب أن يقول « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » . وتغيير مكانه أو هيئته ، فإن كان واقفاً يجلس ، وإن كان جالساً يقف ، وأن يتوضأ أو يسكب على وجهه الماء البارد ، أو يضطجع على الفراش ، ليهدأ روعه ويسكن غضبه . وعلاج الغضب بالحلم وكظم الغيظ ، والفرق بينهما أن الحلم يقف حاجزاً دون دخول الغضب إلىٰ القلب ، وكظم الغيظ يحجزه في داخل القلب بعد أن يدخل إليه ، والحلم خير من الكظم فهو ملكة ثابتة في النفس .

وأما في معنىٰ الحلم وكظم الغيظ ، فنقول أن الحلم عبارة عن صفة نفسانية وحالة روحانية تتمثل بسكون النفس والطمأنينة وهدوء الخاطر بالتعامل مع الأحداث بهدوء وتعقل دون السماح للآثار السلبية بالنفوذ إلى قلبه ، فيوفر على نفسه تبعات الهجوم والصراعات الغضبية ، ويسمىٰ هذا بالحلم .

وأما كظم الغيظ فهو عبارة عن إبداء حالة من السكون والهدوء ومقاومة ظواهر الغضب وعدم السماح لها بالبروز ، وهذه الصفة تسمىٰ بالتحلم كذلك ، وهو أمر عارض على خلاف الحلم الذي يكون في الغالب فطرياً وجبلياً في الإنسان كمن فطر على البذل والسخاء كما قال الشاعر :

ولو لم يكن في كفه غير نفسه   لجاد بها فليتق الله سائله

قلنا أن كظم الغيظ مشابه لهذا المثال ، ومعناه التحلّم ، وهو استجلاب الحلم للذات ومثال الحلم مثال الماء الذي في فطرته الميل إلى الانحدار إلىٰ أسفل ، ولكن التحلم مثله مثل الماء الذي يسحب إلى أعلى بخلاف طبيعته بواسطة المضخات .

إذن فتارة تكون الروح في حالة السكون والهدوء على الدوام ، وتارة يرد الروح السكون والهدوء إليها بصورة مؤقتة ، ولأن كلمة الإنسان مشتقة من الأنس ، إذاً فإن لها قابلية التأثر بالحالات ، وتستطيع الوصول إلى حالة التحلم رويداً رويداً ، حتى يصبح حلماً ويستقر في مكانه ولذا قال (ص) : تعلم حتى تصبح عالماً وتحلم حتى تصبح حليماً . فمعلوم إذن أن الحلم أفضل من التحلم ، نظراً لأن امتلاك صفة جيدة شيء ، والاستحواذ على صفة ليست فيه شيء آخر ، ولذلك فإن طريق الاستحواذ على الحلم هو التحلم ، وهذه بعض الروايات في ذلك :

١ ـ روي عن النبي الأكرم (ص) أنه كان يقول في دعائه :
« اللهم اغنني بالعلم وزيّنّي بالحلم » .

٢ ـ عن أمير المؤمنين (ع) قال ما معناه أن العلم أفضل من المال بعشر جهات وواحدة من تلك العشر أنه أفضل بذاته ولا ينفذ بإنفاقه ، والمقصود من ذلك عين العلم وليس المكتسب منه ، والعلم بلا حلم كذلك لا قيمة له ولا جمال ولا زينة ، لذلك فإن النبي الأكرم (ص) بعد سؤاله الله تعالىٰ العلم سأله الزينة بالحلم .

٣ ـ قوله (ع) :

« خمس من سنن المرسلين : الحياء والحلم والحجامة والسواك والتعطر » .

٤ ـ قوله (ص) :

« ابتغوا الرفعة عند الله ، قالوا : وما هي يا رسول الله ؟ قال : تصل من قطعك ، وتعطي من حرمك ، وتحلم عمن جهل عليك » .

٥ ـ وقال الرضا (ع) : « لا يكون الرجل عابداً حتى يكون حليماً » .

إذن فالحلم عبارة عن حالة سكون وطمأنينة في النفس مقابل الأمور غير الملائمة التي تواجهها والتي تتنافر مع طبعنا بنحو لا تجد فيه أي تأثر أو تألم نفسي قبالها .

وأما كظم الغيظ فهو عبارة عن حالة نفسية تتأثر بالأمور غير الملائمة لها ولكن لا يظهر عليها أثر من ذلك .

إذن فبواسطة الحلم يمكن رفع الغضب ، وبصفة كظم الغيظ يمكن السيطرة عليه . وبالطبع ، فإن من يتمتع بالحلم ، أفضل من ذلك الذي يتمتع بقابلية كظم الغيظ فقط ، ومع ذلك فإن كظم الغيظ صفة ممدوحة ، ولأن هذه الصفة تترسخ في النفس فإنها تتحول بالتدريج إلى حلم . فالتحلم يكون منشأ للحلم ، كما أن التعلم منشأ للعلم ، ولذا قال خاتم النبيين (ص) : « إنما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم » .

وقد مدح الله تعالى عباده بصفة كظم الغيظ في القرآن الكريم بقوله : ﴿ **والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين** ﴾[1] .

وقد روي عن الرسول (ص) : « من كظم غيظاً ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه يوم القيامة رضى » .

وقال أيضاً :

« ما جرع عبد جرعة أعظم من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله تعالىٰ » .

وقال أيضاً : « إن لجهنم باباً لا يدخله إلا من شفى غيظه بمعصية الله » .

---

(١) سورة آل عمران، الآية : ١٣٤ .

وقال الإمام زين العابدين (ع) : « ما تجرعت جرعة أحب إليَّ من جرعة غيظ إلا أكافي بها صاحبها » .

وقال الباقر (ع) : « من كظم غيظاً وهو يقدر على إمضائه حشى الله قلبه أمناً وإيماناً يوم القيامة » .

وقال (ص) لبعض أولاده : « يا بني ما من شيء أقر لعين أبيك من جرعة غيظ عاقبتها صبر » .

وقال الصادق (ع) : « نعم الجرعة الغيظ لمن صبر عليها فإن عظيم الأجر لمن عظم بلاؤه ، وما أحب الله قوماً إلا ابتلاهم » .

ومعنىٰ ذلك أنه منحهم قوة الشهوة العاقلة وقوة الغضب ، ثم أمرهم بعدها بدفع هذه الشهوات ليصلوا إلى مقام يصافحون فيه الملائكة . وقد قال الصادق (ع) : « ما من عبد كظم غيظاً إلا زاده الله (عزّ وجلّ) عزاً في الدنيا والآخرة ، وقد قال الله (عزّ وجلّ) : ﴿ **والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين** ﴾ وأثابه الله مكان غيظه ذلك » .

وقال الكاظم (ع) :

« إصبر على أعداء النعم ، فإنك لن تكافىء من عصىٰ الله فيك بأفضل من أن تطيع فيه » .

وجاء في رواية :

« مر المسيح (ع) بقوم من اليهود فقالوا له شراً ، فقال لهم خيراً ، فقيل له : إنهم يقولون شراً ، وأنت تقول خيراً ، فقال : كل ينفق ممّا عنده » .

فمعيار حد كمال الإنسان يكون قوله انموذجاً له ، فقد قال لقمان

الحكيم :

« ثلاثة لا يعرفون إلا عند ثلاثة : لا يعرف الحليم إلاّ عند الغضب ، ولا الشجاع إلا عند الحرب ، ولا الأخ إلا عند الحاجة إليه » .

وفي هذا قال الشاعر :

سألزم نفسي الصفح عن كل مذنب ... وإن كثرت منه علي الجرائمُ

وما الناس إلا واحد من ثلاثة ... شريف ومشروف ومثل مقاوم

فأما الذي فوقي فأعرف قدره ... وأتبع فيه الحق والحق لازم

وأما الذي دوني فإن قال صنت عن ... إجابته عرضي وإن لام لائم

وأما الذي مثلي فإن زل أو هفا ... تفضلت إن الفضل بالحلم حاكم

كانت تلك جملة من الآيات والأخبار في مدح كظم الغيظ ، ومن هنا ننتقل بحديثنا إلى باب الانتقام .

فنقول : أن أحد آثار الغضب الذي يطفح من الروح إلىٰ الخارج هو الانتقام ، والشخص الغاضب يكون أمام طريقين في انتقامه ، فإما أن يكون قادراً على الانتقام أولاً ، فإن كان غير قادر فإنه سوف يكبت هواجسه في قلبه وباطنه ، فيعبّر عن ذلك بالحقد حيث يتربص بصاحبه الدوائر ليشفي غليله منه ويتشفىٰ به ، وإن كان قادراً على الإنتقام فهناك حالتان : إما أن ينتقم ، أو أن يمتنع عن ذلك ، فإن كان قادراً على الانتقام ولم يفعل فذلك هو بالعفو ، وإلا فهو الانتقام ودرجة الانتقام هي درجة بروز الغضب بأعنف وأعتىٰ صورة ، وهذا يعني أن الغضب صفة نفسانية وقلبية لأنها حين تبرز فإن جميع أعضاء وجوارح الغضبان تتحفز للانتقام .

وهناك بعض المواقف يجب مقابلتها بالمثل كما جاء في القرآن الكريم :

﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ﴾[1] .

وجاء في الآية الشريفة الأخرىٰ :

﴿ فمن اعتدىٰ عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدىٰ عليكم ﴾[2] .

أو ما جاء في الآية :

﴿ وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص ﴾[3] .

إذن فهذه الآيات جميعاً تشير إلى آفة إذا أراد شخص الانتقام فعليه مقابلة الاعتداء بما يماثله ، وهنا يتمثل خطر كبير فيجب عليه تمييز وتشخيص مقام الانتقام ، وإن لم يستطع التمييز والتشخيص بدقة ، فقد يقع في ظلم المقابل . ولكن هناك بعض الأمور لا يمكن مقابلتها بالمثل ، مثلاً إن أسمعنا أحد كلاماً بذيئاً فاحشاً ، فلا يجوز لنا الرد عليه بالمثل بل يجب الرد عليه بنحو لا يحتوي على فحش أو بذاءة كأن نقول له : يا أحمق أو يا جاهل ونظيراتهما مما أجازه الشارع المقدس ، لكونها لا تكون كاذبة بالنسبة للمشتوم .

وفي ذلك رواية « كلكم حمقىٰ في ذات الله » ، ويقصد مقصرين في معرفته .

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٦ .

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٤ .

(٣) سورة المائدة، الآية: ٤٥ .

الفهـرس